# فلسفة الأخلاق

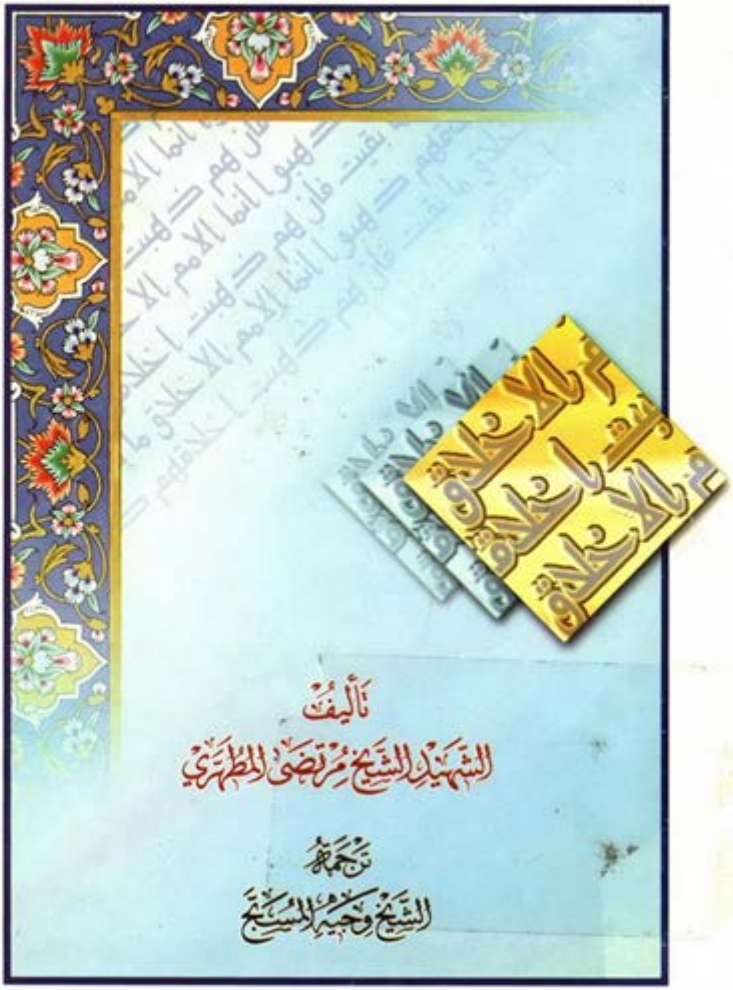

تأليف

الشهيد الشيخ مرتضى المطهري

ترجمة

الشيخ وحيد المسيح

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

# فلسفة الأخلاق

تأليف

الشهيد الشيخ مرتضى المطهري

ترجمة

الشيخ وجيه المسبّح

شبكة كتب الشيعة

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

كافة حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤسسة

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

| |
|---|
| اسم الكتاب: فلسفة الأخـــلاق |
| تأليف: الشيخ مـــرتضى مطهـــري |
| تـــرجمة: الشيـــخ وجيه المسبّح |
| الناشـــر: مؤسسة ام القـــرى للتحقيق والنشـــر |
| الطبعة الأولى / شوال ١٤٢١ هـــ |
| لبنان / بيروت / الغبيري ص ـــ ب ٢٥/٢٧٨ |
| Omalqora@mail.com |

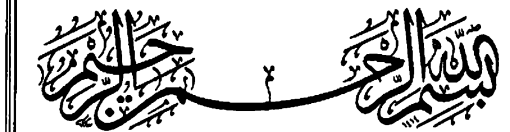

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# الإهداء

إلى من غذياني حب الوصي..

إلى من اشربا قلبي ولاية آل النبي..

إلى امي وابي..

اهدي مجهودي هذا.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# المقدمة

**بسم الله الرحمن الرحيم**

والحمد لله تعالى وحده حمداً كما هو أهله، والصلاة والسلام على رسوله المختار واله الاطهار...

وبعد...

فإنّ من يسرّح بصره يرى كمّاً هائلاً من الأطروحات والعقائد، والفلسفات، والأوهام أيضاً.. وسوف يدرك أيضاً التخبط الذي يعيشه الإنسان، والظلام الحالك الذي يسدّ عليه كلّ طريق، ويوصد كلّ باب، نتيجةً عدم تميّز الحق عن الباطل، والفلسفة عن الاسطورة، والكلام الحكيم عن الهراء والهذيان.

«والحياة الإنسانيّة ــ بتأثير هذا الركام الهائل ــ تتخبط في فساد وإنحلال، وفي ظلم وذل، وفي شقاء وتعاسة، لا تليق بالإنسان، بل لا تليق بقطيع من الحيوان»[1].

وهذا التخبط تنسحب ذيوله الى كافّة الاصعدة، ولا يقتصر على بعضها. وما من سبيل للإنقاذ إلاّ بتمييز الخبيث من الطيب، والغث من

---

(١) خصائص التصور الاسلام للسيد قطب فصل «قبه وركام» ص٣.

السـمين، لأن الحـقّ والصواب واحدٌ لا تعدد فيه، واذا عُرف الحق وامتاز، فليس بعده الاّ الباطل والضلال.

ومـن هـنا، فنحن سنستعرض ــ اجمالاً ــ الاطروحة الاسلامية بما يساعدنا في فهم سرّ هذه الحياة، التي نحياها بين نوم ويقظة، وصحّة وسقم، وغـنى وفقـر، وكفـر وإيمان، وفرح وترح، وهذا بدوره، سوف يعيّن لنا وظيفتـنا في هذا الحياة في كافّة مستوياتها، بما في ذلك الوظيفة الاخلاقيّة، التي هي موضوع هذا الكتاب، واذا تعقلنا هذه الاطروحة، وتجلت حقيقتها في بصـائرنا، واعـتقدتها ضمائرنا، فسوف ندرك انّ ما عداها «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً».

## الحياة الإنسانية مبدأ وغايةً

* يؤكـد الدين الإسلامي، في آيات قرآنه وروايات سنته، على وجود مبدأ واحد أحد، ليس لحياة الإنسان وحسب، بل لكل شيء **﴿ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء﴾** الانعام/١٠٢.

فكـلّ مخـلوق وكـائن من الذرّة الى المجرّة راجع في بدء وديمومة وجوده لذلك المبدأ المفيض.

كما يؤكد القرآن المجيد على أنّ هذا المبدء المفيض حقيقة ثابتة، ذات أثار واقعية محسوسة، في عموم الكون والحياة، وانّه عالم ومحيط بكلّ شيء، وأنّـه أقـرب للإنسـان من حبل الوريد، فهو **﴿يعلم ما يلج في الارض وما يخـرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم﴾** الحديـد / ٤. فهـو تعالى ليس بمعزل عن خلقه، ولا محتجب، إلا ان تحجبهم الاعمـال دونـه؛ بل هو المدبّر والقيّوم، **﴿إن الله فالق الحبّ والنوى يخرج**

**الحـــي مـــن الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون * فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾** الانعام / ٩٥ ــ ٩٦.

((فالحقيقـــة الالهيّة في التصور الإسلامي حقيقة فاعلة في هذا الوجود، وتُلـــتمس خصائصـــها وصفاتها في اثارها الواقعيّة في هذا الوجود، وهذا ما يفصلّه القرآن الكريم، وهو يصف الحقيقة الإلهيّة للناس، وهو يعرّفهم بربُهم تعـــريفاً يســـيراً عميقاً واضحاً، وهو يستشهد بواقع الكون وواقع الناس في منطق فطري واقعي جميل)) [١].

اذاً: فالانسان بكلّ وجوده ــ المادّي والروحي والفكري ــ رهين ذلك الإلـــه الواحد، ومحاط بأثار قدرته وعظيم نعمته **﴿سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتّى يتبين لهم أنه الحقّ﴾** فصلت / ٥٣.

وفـــي كـــلّ شيء له آية  تـــدل على أنـــه واحـــد

* وكما انه تعالى هو المبدأ، فكذلك هو الغاية وإليه المنتهى، فالإنسان ــ كما هو ثابت عقلاً ونقلاً ــ لا ينتهي به المطاف الى الفناء والعدم، وإنّما خُـــلق ليبقى ((**خُلقتم للبقاء لا للفناء**)). لكن لا ليبقى في هذه الحياة الظاهرية، ويخـــلد في دار الدنيا، ((فإنها منزل قُلعة وليست بدار نُجعة))، و((دار ممر لا دار مقـــر))، بل هو راجع الى خالقه وملاق بارئه **﴿يا أيها الإنسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه﴾** الانشقاق / ٦ فكل إنسان ــ المؤمن والكافر، المحسن والمسيئ ــ سوف يصير اليه تعالى: **﴿إنا لله وإنّا إليه راجعون﴾** البقرة/١٥٦. والرجوع معناه العودة الى المكان والمقام الاول، وهذا يفيد أن مكان ومكانة

---

(١) خصائص التصور الاسلامي للسيد قطب فصل ((الواقعيّة)).

الإنسان ليسا هنا، بل عند الله جلّ جلاله، وهذه الاية الاخيرة تدل على المبدأ الفاعلي «انا لله» وعلى المبدأ الغايي «وانا اليه راجعون».

* إن حكمـــة الخالق المدبِّر ــ توجب وجود هدف سامٍ، ومنظور راقٍ للخَـــلْق بصورة عامّة، وللإنسان بصورة خاصة، لأنّه تعالى منزّهٌ عن اللهو والعـــبث **﴿وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين﴾** الانبياء / ١٦. بل **﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾** الذاريات / ٥٦.

فالغايـــة والهدف من إهباط الإنسان في هذه الارض هو العبادة والقيام بوظائف العبوديّة، فكما انّه تعالى متفرد بالالوهيّة ومتميز بالربوبيّة، فما عداه متسـمٌ بالعـــبوديّة المحضة، وهذه العبوديّة والخضوع له تعالى تشمل جميع الموجودات بدون استثناء **﴿ولله يسجد ما في السموات والارض﴾** النحل/٤٩. الاّ انه يوجد فارق كبير بين عبوديّة الانسان وعبوديّة غيره، ذلك أنه يُراد من الإنســـان العـــبوديّة الاختيارية، «وقد علمتُ أن افضل زاد الراحل إليك عزم إرادة يخـــتارك بهـــا» العبوديّة الواعية الصادرة عن حبّ وشوق اليه تعالى، عبوديّة عن طريق الصراع ومجاهدة هوى النفس، ومنازلة الشيطان، وإيثار هـــواه تعـــالى على هوى النفس وشهواتها. عبوديّة إجتياز الإبتلاء الإلهي، والإنتصـــار عـــلى الفتنة، **﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾** العنكبوت / ٢.

واذ مـــا حقق الانسان هذه العبودية المطلقة، استحقّ ان يكون خليفةً له تعـــالى بمـــا لـــلخلافة من معنى ومميّزات، فالتكريم الربوبي يتمّ بالعبودية والتسليم المطلق لارادة الربّ تعالى، ومعنى ذلك «ألاّ يتلقى الناس الشرائع في امـــور حيـــاتهم إلاّ من الله، كما انّهم لا يتوجهون بالشعائر إلاّ لله... توحيداً

للسلطان الذي هو أخصُّ خصائص الألوهيّة..»[١]..

فالنظام العبادي والأجتماعي والاقتصادي والاخلاقي الموضوع من قبل الإله الخالق هو الاكمل والاوفق بحقيقة الانسان، والاشد توافقاً وانسجاماً مع الهدف من خلقه، ومع الغاية التي هو منته اليها، «إنّه تصور رباني، جاء من عند الله بكلّ خصائصه وبكلّ مقوماته، وتلقّاه «الإنسان» كاملاً بخصائصه هذه ومقوماتـه، لا ليـزيد عليه من عنده شيئاً، ولا لينقص كذلك منه شيئاً، ولكن ليتكيّف هو به، وليطبّق مقتضياته في حياته، وهو من ثمّ تصور غير متطور فـي ذاته، انّما تتطور البشريّة في إطاره، وترتقي في ادراكه وفي الإستجابة له»[٢].

وهـذا التصـور الربانى يضمن الكمال والسعادة للإنسان؛ لكونه يلبّي كافّـة إحتياجاته بنحو متعادل ومتوازن، لا يطغى فيه جانب على جانب، ولا يُعطِّـل جـانبٌ لحساب آخر؛ ولكونه «يتعامل مع الحقائق الموضوعيّة ذات الوجـود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصورات عقليّة مجـرّدة، ولا مع «مثاليات» لا مقابل لها في عالم الواقع، أو لا وجود لها في عـالم الواقع» فهو يتعامل «مع هذا الإنسان ذي التركيب الخاص، والكينونة الخاصـة. الإنسان من لحم ودم وأعصاب، وعقل ونفس وروح. الإنسان ذي الـنوازع والاشـواق، والرغائب والضرورات. الإنسان الذي يأكل الطعام، ويمشـي في الأسواق، ويحيى ويموت، ويبدأ وينتهي، ويؤثر ويتأثر، ويحبّ

---

(١) خصائص التصور الاسلامي للسيد قطب.

(٢) نفس المصدر.

ويكـــره، ويـــرجو ويخـــاف، ويطمع ويِيأس، ويعلو وينحط، ويؤمن ويكفر، ويهتدي ويضل..)).

فالخالق الحكيم لم يدع مخلوقه الضعيف يتيه في عالم مجهول مظلم، لا يكاد يخرج من هوّة حتى يتردّى في أسحقَ منها، كما هو حال الذين لا يأتون البيوت من أبوابها، بل هداه النجدين، وأوضح له السبل، حتى تبين الرشد من الغـــي، عـــن طريق العقل والفطرة تارةً، وعن طريق الوحي والرسل تارة أخرى، ((وناظر قلب اللبيب به يبصر أمده، ويعرف غوره ونجده، داع دعا، وراع رعى، فاستجيبوا للداعي، واتبعوا الراعي)).

عـــلى ضـــوء مـــا تقدّم، يعرف دور ((الاخلاق))، وموقعها في الحياة الإنسانيّة في التصور الإسلامي، ومدّ النظر القرآني، فهي فيهما غير منفصلة عـــن واقـــع الإنســـان، مبدأً وغايةً وهدفاً. وكما أنّ الحقيقة الإنسانيّة واحدة، والهـــدف المرســـوم ثابت وسام، فالأخلاق ــ أيضاً ــ ليست في واقعها إلاّ حقيقة واحدة ثابتة، سامية بقدر ملائمتها للهدف، ووضيعة بقدر مناقضتها له.

فليســـت هي مجرّد امور اعتباريّة محضة، أو ذوقيّة، تعكس الرغبات الفردية، والميول الاجتماعيّة.

بل هي امور إعتبارية ذات منشأ خارجي تكويني لا تنفك عنه. فكما لا يمكن إطلاق اسم ((الشجر)) جزافاً، كذلك لا يمكن اعتبار مفهوم ما خلقاً كريماً او وضـــيعاً جـــزافاً، وبدون ملاحظة منشأه الخارجي، يدلّك على ذلك انه لا يمكـــنك اعتبار الظلم حسناً والعدل قبيحاً، وهو دليل على ارتباطهما بالواقع بنحوٍ ما.

**وخلاصة القول:**

إنّ هـذه المفـاهيم، من قبيل الأمانة والخيانة، الغدر والوفاء، التحقير والإحترام، و.. و.. «ليست مقطوعة الصلة تماماً عن الحقائق الخارجيّة، ولا هـي خارجة عن نطاق العليّة» «ولكنّها رمز للعلاقات الخارجيّة والحقيقيّة، بيـن افعـال الإنسـان والنتائج المترتبة عليها، تلك العلاقات التي لابدّ من اكتشـافها، والإهتمام بها في مجال سلوك الإنسان». هذا وقد تعددت الآيات، واستفاضـت الـروايات، المصـرّحة والملوّحة بتأثير ملكات النفس، طيبها وخبيـثها، في الواقع المحيط بالإنسان، مثل: إطالة الاعمار، وإنزال البركات والأمطار، أو إنزال العذاب والدمار، وضرب الذل والمسكنة، وغير ذلك من ضروب النعم وانواع النقم، **﴿ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** الانفال / ٥٣.

بـل ــ وهـو الأهـم ــ تأثيرها في حقيقة «النفس» وتبديل صورتها الملكوتيّة، وصورة الانسان هي روحه ونفسه، وهي فصله المقوّم والمحصّل، لا مادتـه، فإنّه يشترك فيها مع بقية الحيوانات، فالكلب مستقذَر ومنفّر بسبب سُـبعيّة «نفسـه» وشـهويتها، لا بسبب شكله الخارجي، و«إبليس» طُرد من السـاحة الالهيّة، وصار مغضوباً عليه، لما فيه من الكبر والحسد والمفاخرة، لا بسبب مادته الناريّة، فالانسان ايضاً إذا تلبس بهذه الصفات، وترسّخت فيه هـذه المـلكات، تـبدلّت صـورة «نفسه» الباطنية إلى مسانخ تلك الصفات، والعكس كذلك.

وفـي الخـبر أنّ عليّاً (ع) قال لحبر من احبار اليهود وعلمائهم: «من اعـتدل طـباعه صفى مزاجه، ومن صفى مزاجه قوى أثر النفس فيه، ومن

قــوى أثر النفس فيه سمى الى ما يرتقيه، ومن سمى الى ما يرتقيه فقد تخلق بـــالأخلاق النفسانيّة، ومن تخلق بالأخلاق النفسانيّة فقد صار موجوداً بما هو إنسان، دون أن يكون موجوداً بما هو حيوان، ودخل في الباب الملكي، وليس له عن هذه الحالة مغيّر)).

فقـــال اليهـــودي: الله أكـــبر يـــا ابـــن ابي طالب! لقد نطقت بالفلسفة جميعها[1].

اذاً فالإنســـان هـــو الـــذي يمهّد جنته ويوجدها، وهو الذي يسجّر ناره ويوقدهـــا. فهو يتحد وجوداً مع جملة معتقداته وأعماله، فالمؤمن تصبح نفسه جنّةً ونعيماً، والكافر تصبح ناراً وجحيماً، **﴿كلّ يعمل على شاكلته﴾** الاسراء/٨٤ **((فشقوةٌ لازمةٌ او سعادةٌ دائمةٌ))**.

واذا عرف الانسان مكانته في هذا الكون، وكرامته عند خالقه العظيم، فلســـوف يدرك ما يليق به من الافعال ويحسن، وما لا يليق ويقبح، وسوف يتشـــخص ــ حينـــئذ ــ المصداق الحقيقي للسعادة والكمال المنشودين لعامّة البشر، من المصاديق المزيّفة المتناثرة هنا وهناك. ولسوف يسلك دروب هذه الحياة، بطمأنينة وبصيرة، ونورٍ يمشي به في الناس **﴿ومن لم يجعل الله نوراً فما له نور﴾** النور / ٤٠.

ومـــا بين يديك عزيزي القارئ مشعل يضئ للانسانيّة التائهة طريقها، ويهـــدي الانســـان إلى نفسه الضائعة، مبدداً ظلام الاوهام والخيالات الواهية لإناس ضلوا في ظلمات فوقها ظلمات.

سترى في هذا الكتاب أن لا منجى للانسان الا بالرجوع الى ربه، فهو

---

(١) ((هزار ويك كلمة)) كلمة رقم ٢٢.

بحاجة دائمة إلى يد سماوية، هادية وحانية.

ولنختتم الكلام بذكر لمحة عن جهاد المؤلف الشهيد في مضمار بيان الوجه الناصع للفكر الاسلامي الاصيل اداءً لبعض حقّه علينا. وايجازاً نقول:

لقد برز الشهيد المطهري (ره) في الحقبة المتأخرة، فيلسوفاً ومنظّراً، ومظهراً الوجه المشرق للفكر الإسلامي، في شتى الجوانب وعلى مختلف الأصعدة. وقام بدور فاعل ومتميّز، في إيصال النظريّة القرآنيّة واضحةً للأجيال المعاصرة، ناذراً فكره الجبار وقلمه السيّال، لمحاربة «التغريب» فكراً وسلوكاً.

يقول في كتابه (العدل الإلهي) «فالدين الإسلامي الحنيف دين مجهول، انقلبت حقائقه في نظر الناس تدريجياً..».

إلى أن يقول «لهذا السبب وجد شخصي العاجز من واجبه اداءَ واجبه في هذا الميدان، بحدود قدرته» [1]. ولقد أدرك الشهيد لابديّة إظهار النظام الفكري الفلسفي الأصيل؛ ليقف سدّاً منيعاً أمام الفكر الغربي الهدّام، فالفلسفة الموجدة، هي المارد الذي يستطيع سحق الفلسفات، بل الأوهام الإلحاديّة، شرقيّها وغربيّها. ولهذا الغرض استعرض الشهيد، في عموم كتاباته ومحاضراته أغلب ــ إن لم يكن كافّة ــ المقولات والمذاهب، القديمة والحديثة، وغربلها غربلةً علميّةً رصينةً على ضوء العقل السليم، وتوصيات رسل السماء [2].

---

(١) العدل الالهي: ٨ ــ ٩.

(٢) مَن يرغب في الإطلاع مفصلاً على مناقشة الشهيد لتلك المذاهب والمدارس فعليه بكتاب (تفكر فلسفي از منظر شهيد مطهري) لمؤلفه (علي دزكام).

لقد دعا المطهري الى الرجوع الى الذات، ونبذ المحاكاة العمياء المهلكة، لأنَّ المحاكاة الثقافيّة والإستعارة الفكريّة المحضة، استرقاقٌ للعقول، واستعبادٌ مقيت للألباب. يقول في كتابه (إحراق الكتب في ايران ومصر):

«القضيَّة الرئيسية هي قضية الإستعمار، فالإستعمار السياسي والإقتصادي، لا ينجح إلاّ بعد الإستعمار الثقافي، والشرط الرئيسي لهذا النّجاح، يتمثّل في سلب اعتقاد الناس ثقافتهم وتاريخهم»، فجزى الله الشهيد عنّا خير الجزاء.

وفي الختام اوجّه خالص شكري وإمتناني للإستاذين الكريمين الحاج عبّاس الاسدي والسيد طاهر الموسوي، لملاحظتهما هذه الترجمة.

كما اقدم خالص شكري وتقديري لمؤسسة ام القرى بإدارة الاخ السيد علي باقر الموسوي سلفاً، وبادارة الاخ سماحة الشيخ احمد الحرز خلفاً، لتكفلها بنشر المعارف الإسلامية واحياء التراث الديني لعلمائنا الافذاذ، سائلاً المولى القدير دوام التوفيق في هذا الطريق.

والحمد له تعالى اولاً وآخراً.

وجيه محمد المسبّح

٣٠ / ٨ / ١٤٢١ هـ

# الباب الأول

## مفهوم الأخلاق

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## ما هي الأخلاق ؟

مـا معـنى (أخلاقيّـة) فعـلٍ مـا ؟ وكيـف يتصف عمل الإنسان بـ (الأخلاقية)؟

قـد يـبدو هـذا السؤال ساذجاً إلى حدٍ كبير ، وان الجواب عنه سهل يسير، لكن بالتعمق والتدقيق فيه ، سوف نرى ان الجواب عنه ــ فضلا عن كونه ليس سهلاً كما يبدو ــ من اصعب مسائل الفلسفة البشريّة وأكثرها إثارة للإشكال.

منذ آلاف السنين وإلى اليوم ، لم تتفق نظريات فلاسفة العالم على رأي واحد بالنسبة لهذا الموضوع.

ونحن قبل ان نبين ملاك (الأخلاقيّة) ومناطها في المدارس والمذاهب المتعـددة ، وقبل ذكـر ما قاله (أفلاطـون) [١] و(ارسطو) [٢] (وابيقور) [٣]

---

(١) افلاطـون: فيلسـوف يونـاني ، يعد اعظم فيلسوف في العصور القديمة وربما في الازمـنة قاطبة. ولد بُعيد وفاة «بريكليس» نحو عام (٤٢٧ ق.م) ، وهو تلميذ «سقراط»، من آثاره «الجمهورية» «القوانين» «السياسي».

(٢) ارسـطو: مـن اعـاظم الفلاسفة ، ولد في «اسطاغيرا» «ستافروا» اليوم. وهي مدينة صـغيرة في شبه الجزيرة «الخلقيدية» وكان مولده عام (٣٨٤) ق.م، وتوفي في خلقيس سنة (٣٢٢).

(٣) ابيقـور: فيلسوف يوناني ، ولد في (ساموس) سنة (٣٤١ ق.م) وتوفي في أثينا سنة ٢٧١ أو ٢٧٠، وهو من ابرز مفكري العصور القديمة. تتلمذ برهة من الزمن على أبيه ثم ارتحل إلى بلدة «نايوس» ليدرس عند «فوزيفانس» تلميذ «ديموقريطس».

و(الغزالي)[١] وفلاسفة أوربا في العصر الحديث ، نذكر أمثلة واضحة وجليّة للافعـــال (الأخلاقية) ، ثم نعطف عنان القلم نحو الشرح والتفسير، لأنه ليس صـــواباً شرح آراء الفلاسفة ونظرياتهم قبل إتضاح موارد الفعل الأخلاقي، وقـــبل عـــرض هـــذه الامثـــلة لابـــد من التعرض لما يوضح لنا اهمية هذا الموضوع.

## ما هو الفرق بين الافعال الأخلاقية وغيرها ؟

هناك نوع من أفعال الإنسان يُطلق عليها (الافعال الأخلاقية أو السلوك الأخلاقـــي)، ويقابـــلها الافعال العادية والطبيعية.والفرق بين الفعل الأخلاقي وغيره أن الفعل الأخلاقي جدير بالثناء والشكر ، والبشر ينظرون إليه بعين الرضـــا والإعجـــاب ، والقيمة التي يمنحها البشر لهذا الفعل ليست من نوع القيمـــة التي تعطى للعامل إزاء عمله ، لأن العامل يوجد لعمله قيمةً مادية ، وبالـــتالي يكون مستحقاً لمبلغ من المال أو لعين مقابل ذلك العمل. أما الفعل الأخلاقي فله (قيمة) تفوق هذه (القيم) فهو أعلى من أن يُقيم بالمال أو الاشياء المادية ، مثلا:

عندما يجعل الجندي روحه فداءً للآخرين ، فإن لعمله هذا قيمة، لكنها

---

(١) أبـــو حامد بن محمد ، يُلقب بحجة الاسلام. وهو علم في الفقه والحكمة وسائر العلوم الاخـــرى. ولـــد فـــي «طوس» بخراسان سنة (١٠٥٩) م (٤٥٠) هـــ. ومات بها سنة (١١١١م) (٥٠١) هـــ. درس في مدينة «نيسابور» وأخذ عن المتكلم والفقيه المشهور «الجويني» الملقب بإمام الحرمين. من آثاره: «المنقذ من الضلال»، «إحياء علوم الدين» ، «تهافت الفلاسفة».

ليست من نوع (القيم) الماديّة. نحن ــ أيضاً ــ نقول: عمل ذلك العامل يعادل (٢٥) تومانــاً. وعمــل ذلك البنّاء يعادل (٨٠) تومناً ، وعمل ذلك المهندس يساوي (١٠٠) تومان، أوالعمل الكذائي يساوي (٥٠٠) تومان أو(١٠٠٠).

هــذه بالنســبة للاعمال العادية. اما الافعال الأخلاقية فهي تملك قيمة أغــلى ولها اهمية اكبر ، قيمة لا يدركها الذهن البشري ، ولأن أنواع (القيم) مــتفاوتة؛ فــنحن حتى لو أخذنا بأعلى المقاييس فلن نتمكن من قياس القيمة الأخلاقيــة بالمقاييس المادية؛ فالاعمال العظيمة التي قام بها عليّ (ع) غير قابلة لان تثمن بكذا مليون او مليار من الدولارات، ان لها قيمة اخرى تختلف كلياً عن القيمة الماديّة.

بعد ثبوت التفاوت بين القيم ، يطرح هذا السؤال نفسه وهو: كيف نحلل هذه القيم ونفسرها؟ وبأي معيارٍ يتم تفسير واستجلاء حقيقة هذه القيم المعنوية لســلوك البشر الأخلاقي ؟. وهل جميع المدارس والفلسفات قادرة على ذلك؟ أو انها كلها عاجزة عن ذلك؟

ولســت الان بصدد بسط الكلام في هذه الجنبة، وانما قصدت اعدادكم ذهــنياً لمــا نحن بصدده؛ لتكون لديكم صورة اجمالية عن طبيعة الموضوع المطروق.

جمــلة من المدارس الفلسفية غير قادرة على طرح مثل هذا التفسير. وقسم منها يصرح بالانكار ويقول:

الاخــلاق كلمة لا معنى لها ولا رصيد، والفعل الاخلاقي مسبب عن سذاجة الإنسان، والإنسان العاقل لا يسعى لذلك ولا يطلبه حثيثاً. بل

يحث الخطى وراء الملذات والشهوات. ذلك انه لا يوجد في هذا العالم سوى اللذة والمنفعة. من حسن الحظ ان يعترف هؤلاء ويقولوا: إن هذا هو معتقد مدرستنا وحقيقة مذهبنا، و إلا فإن بعض اصحاب المدارس ــ رغم أن فكرها وفلسفتها يوصلان إلى هذه النتيجة نفسها ــ لا يعترفون بها، بل يقولون بالعكس، يقولون: نحن نعتقد بالقيم الأخلاقية، ونعترف ونقول بقيمة «الإنسانية».

على كل حال ، سوف نشير إلى هذا المعنى في البحوث المقبلة.

## نماذج من الافعال الأخلاقية

### ١ ــ العفو والتجاوز

الخطأ أو الجنحة التي يرتكبها الشخص، نوعان:

أ ــ خطأ مرتبط بذلك الشخص فحسب، مثل: الغيبة والتهمة، حيث تصدران من المغتاب والمُتهِم، إذ ليس لذلك ارتباط بحق المجتمع العام.

ب ــ خطأ يرتبط جانب منه بذلك الشخص، ويرتبط جانبه الآخر بالمجتمع، فله جنبتان، فردية وإجتماعية، وذلك كالقاتل يقتل إنسانا، إذ له جنبتان:

جنبة مرتبطة بالمجتمع ، وجنبة مرتبطة بالفرد.

وفي الحالتين يستطيع صاحب الحق المجني عليه التجاوز عن حقه والاغماض عنه. يعني: إذا طلب القاتل العفو، ومنحه اصحاب الحق (أب وأم أو ابن المقتول) عفوهم، او يتجاوز ويعفو المكذوب عليه والمتهم بهتاناً عن ظلمه، فهذا عمل أخلاقي، ويعد من الأعمال الشجاعة، إذا إنه يفوق العمل العادي.

قال الرسول الاكرم (ص) في حديث شريف:

((يـــا عـــلي ثلاث من مكارم الأخلاق ، تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك)) [١].

**٢ ــ عرفان الاحسان والوفاء.**

ردّة فعـــل الإنســـان المحسن إليه بالنسبة للمحسِن يمكن أن تكون أحد نوعيـــن، فـــبعض هـــؤلاء الأشـــخاص نراهم لا يعتنون بمن أحسن اليهم، وينســـونهم بمجرد أن يستوفوا غرضهم من الاخرين ويدركوا عدم احتياجهم لمن أسدى لهم يد الاحسان.

وبعـــض آخر يعرفون حقّ من أحسن اليهم ومدّ يد المعروف نحوهم، ويعمـــلون بمقتضاه إلى آخر العمر، ولا ينسون ذلك الجميل أبداً، وحتى إذا انقضت سنون عديدة واتفق ان احتاج ذلك المحسن لشيء ما، نراهم يبادرون لمجازاتـــه عـــرفاناً لـــلجميل عمـــلاً بقولـــه تعالى ﴿**هل جزاء الاحسان الا الاحسان**﴾ [٢].

**٣ ــ الرحمة بالحيوانات:**

الـــرأفة بالحيوانـــات، حتى الحيوانات النجسة والمستقذرة منها، مظهر اخلاقـــي ، فالكلب مثلاً ــ وان كان حاملاً للمكيروبات الضارّة في جسمه او لعابـــه، الا ان هذا لا يتنافى مع الشفقة عليه ــ وقد ورد ان رجلا كان يسير

---

(١) خصال الصدوق، ص١٢٥، ١٢١.

(٢) سورة الرحمن، آية ٦٠.

في الصحراء، فرأى كلبا قد اجهده العطش، فكان لشدّة عطشه يلطع مرطوب الـــتراب، وكانت بالقرب بئر ماء، فرقّ قلب الرجل له فاخرج له مقداراً من الماء بخفه وسقاه فانقذه من الهلاك، بعد ذلك نزل الوحي السماوي على النبي بان (شكر الله له وادخله الجنّة).

ولنعم ما قال سعدي في ذلك:

١ ــ في الصحراء كلب نال منه العطش..
ما زال به رمق من الحياة

٢ ــ ادلى بقبعته صاحب الدين الحسن..
جعل ذلك كالحبل وربطه بيده ..

٣ ــ ولأجل خدمة الكلب شد وسطه ومدّ يده
ثم سقى الكلب المسكين قليلا من الماء بكفيه

٤ ــ اخبر الرسول عن حال ذلك الرجل ..
وأن الاله الحاكم غفر له ذنبه ..

٥ ــ ان كنت ظالما ففكر وتأمل ..
وكن ذا وفاء وكرم

٦ ــ إذا قابل الله الاحسان للكلب بالثواب ولم يضيعه ..
فكيف يضيع عنده تعالى الاحسان للرجل الصالح ؟

٧ ــ فعليك بالاحسان ما استطعت اليه سبيلا
فإن الاله لا يغلق باب الخير في وجه أحدٍ

٨ ــ وان انت لم تحفر بئراً في الصحراء
فضع في المعبد سراجاً منيراً يستضاء به

**(سـري السقطي)** [١]: يقول سري السقطي وهو احد العرفاء: (ثلاثون عامـاً وأنا استغفر لأني شكرت الله مرة واحدة !. قيل له: كيف ذلك ؟ قال: كـان لـي دكـان في سوق بغداد ، وقد أخبروني بأن حريقاً نشب في ذلك السوق، فذهبت مسرعاً لأرى هل احترق دكاني أولا، أخبرني أحدهم بأنه لم يحترق وان الحريق بعيد عن دكاني، فقلت: (الحمد لله).

فيما بعد حدثت نفسي وقلت: أنت لم تكن وحدك في الدنيا. وقد احترق عدد من الدكاكين! فإذا لم يحترق دكانك، فلا ريب أن دكان غيرك قد احترق، فمعـنى قولـك: الحمد لله، هو: الحمد لله ان لم يحترق دكاني واحترق دكان غيـري! يعـني: قد رضيت بهذه النتيجة. فقلت في نفسي: سري! أولا تهتمُ بالمسـلمين ؟ (اشـارة لحديث الرسول (ص): مـن اصبح ولم يهتم بأمور المسـلمين فـليس بمسلم) [٢]. وقد مضت الآن ثلاثون سنة وأنا استغفر من قولي: (الحمد لله).

## دعاء مكارم الأخلاق

(الصـحيفة السـجادية) مجموعـة من الادعية المعتبرة جداً مضموناً وسنداً. وهي من بركات زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام).

---

(١) أبو الحسن سرى بن مغلس السقطى ، من مشاهير صوفية بغداد وعرفائها ومن كبار رجال الطريقة ، وهو تلميذ بشر الحافي وصاحبه ومرشد ابن الجنيد البغدادي ، وخاله أيضـا. تنسب اليه الكثير من الاقوال العرفانية والحكمية. توفي عام ٢٤٥ أو ٢٥٠ أو ٢٥١ أو٢٥٣ أو٢٥٧ هجري.

(٢) أصول الكافي: ج٣ ، ص٢٣٩، ب ٢٥٨ ح٥.

وقد اهتم علماء الشيعة ــ وما زالوا ــ منذ ذلك الوقت إلى الآن بهذه الصحيفة، وهي وحدها التي وصلت بأيدينا بصورة كتاب ــ بعد القرآن ــ من أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني.

(نهج البلاغة) أيضا كتاب، إلا ان خطب علي (عليه السلام) وحكمه كانت متفرقة بين الناس، ثم قام السيد (الرضي) في القرن الرابع بجمعها، واخرجها في صورة كتاب، وقد كانت توجد مجموعة من الكتب اقدم عهداً من كتاب «الكافي» لكنها لم تصل الينا ، مثل مصحف فاطمة «عليها السلام»، وكتاب علي «عليه السلام» وقد ذكر بعض الائمة «عليهم السلام» ذلك.

بإستثناء هذه الكتب تعتبر الصحيفة السجادية أقدم كتاب شيعي وصل الينا بصورته ككتاب، وقد كانت عند زيد بن علي بن الحسين عندما كان يحارب بني أمية ، حيث استشهد أثر ذلك. وقد أودعها آنذاك رجلاً. (وهذا مذكور في أول الصحيفة السجادية). وكيف كان ، فدعاء «مكارم الأخلاق» أحد أدعيتها، وقد ورد هذا التعبير في رواية نبوية رواها أهل السنة وهي قوله (ص) (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق..)[1]. والتعبير الوارد في رواية الشيعة هو (عليكم بمكارم الأخلاق ، فإن ربي بعثني بها ..). ويحتمل ان يكون كلا التعبيرين صدرا من لسان الرسول الاكرم (ص) في مقامين مختلفين، وعلى كل حال فالمضمون واحد. ويحتمل ان يكون الوجه في اطلاق اسم (مكارم الأخلاق) على هذا الدعاء هو ما ورد في احدى فقراته وهي فقرة

---

(١) نهج الفصاحة: ص١٩١.

(وهب لي معالي الأخلاق). ويعد مكارم الأخلاق من أفضل وأحسن النماذج التي تعرّف بمدرسة الإسلام الأخلاقية، وقد كانت أحدى امنياتي منذ سنين ان أوفــق لشرح هذا الدعاء وترجمته الى الفارسية ، وان اشرح كل ما ورد فيه من نكات فلسفية ، واقدم ذلك خدمة للناطقين باللغة الفارسية، آمل منه تعالى ان يلحظـــني بعنايـــته ببركة الوجود المقدس لعلي بن الحسين (ع) ويوفقني لذلك. ولكن من المناسب هنا ان اشير إلى فقراتٍ من هذا الدعاء ترشدنا إلى ما ينبغي ان يكون عليه الإنسان في الإسلام. وبلا شك ان الامام السجاد (ع) نفسه مستجمع لتلك الفضائل الانسانيّة، لكنّه يريد منّا ان نكون كما يحب وان نرقى اليه.

**«اللهم صل على محمد وال محمد ، وسدّدني لان اعارض من غشني بالنصح، واجزي من هجرني بالبر ، وأثيب من حرمني بالبذل ، وأكافئ من قاطعـــني بالصلة وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر ، وان اشكر الحسنة وأغض عن السيئة»** (١).

اليست هذه أفكاراً جديرة باعلى مراتب التقدير ؟

اليس لها قيمة؟ وما نوع قيمتها؟

هل الانسان الذي يحمل هذه الروح السامية ــ بنظرنا ــ صاحب قلب كـــبير طاهـــر؛ ســـواء كنا راغبين فيما سأل ام لا، وسواء كنا عاملين بهذه الخصال ام لا؟

اين يكمن سرّ هذه الاخلاقية والرغبات والافكار؟

---

(١) الصحيفة السجادية: ص٦٩.

يقول خواجه عبدالله الانصاري[1]: وقوله ينبئ عن مكانته:

(مقابلة الاساءة بمثلها شأن الكلب، ومقابلة الاحسان بمثله شأن الحمار).

فاذا اساء انسان لاخر، فمقابلته بمثلها ديدن الكلاب. لانها يعض بعضها بعضا، كما انه ليس فضلاً ان يقابل الرجل احسان الاخرين بمثله، لانه حتى الحمير تفعل ذلك، ولا ادري ان كنتم رأيتم ذلك او لا، لكن كل قروى مثلى يرى ذلك، فاذا ما لامس حمارٌ وجه آخر، بادر الاخر الى ذلك.

نعم، مقابلة الاساءة بالاحسان شأن عبدالله الانصاري. وفي هذا الافق نقرأ شعراً للامام علي (ع) في الديوان المنسوب اليه:

وذي سفه يواجهني بجهل ... وأكره ان اكون له مجيباً
يزيد سفاهةً وأزيد حلماً ... كعود زاده الإحراق طيباً

نعم، انه علي بن ابي طالب (ع) صاحب الصدر الرحب والخلق الرفيع، ثم انه ليس المراد بالسفيه «المجنون» فانه لا لوم عليه، بل يراد به مَن يفتقد الرشد الفكري، والا لو كان ذا رشد لكان لعمله السيء جنبة اجتماعية، فلا مجال للعفو والصفح.

---

(١) شيخ الاسلام ابو اسماعيل بن محمد الهروي، عالم وعارف مشهور، عاش في الفترة ٣٩٦ ــ ٤٨١ هـ وهو من اعقاب ابي ايوب الانصاري الصحابي المعروف. ولد في «هرات». كان قوي اللسان ذا ذوق جيد، وكان يجيد انشاد الشعر، كتبه: المناجاة، النصائح، الالهيات، عن (الثقافة الفارسية) ج٥ ص١١٥ للدكتور محمد معين.

### السوقي ومالك الاشتر

وتـــلمس هذا مجسداً في سيرة تلميذ علي (ع) مالك الاشتر، فقد ذكروا انه كان ذات يوم مجتازاً بسوق الكوفة وعليه قميص خام وعمامة منه، فرآه بعض الباعة فازرى بزيه ورماه ببندقة اهانةً له، فمضى مالك ولم يلتفت اليه، فقيـــل للبائع: ويلك! اتعرف مَن رميت؟ فقال: لا، فقيل له: هذا مالك صاحب امير المؤمنيـــن (عليه السلام). فارتعد الرجل وهرول ليعتذر إليه ، فرآه قد دخل مسجداً وهو قائم يصلي، فلما انفتل من صلاته، انكب الرجل على قدميه يقبـــلهما ، فقال مالك: ما الأمر؟ قال: اعتذر إليك مما صنعت. فقال: لا بأس عليك، فـــوالله ما دخلت المسجد الا لاستغفر لك[١].

### الامام الحسين (ع) والشامي

الائمة الاطهار (ع) كانوا قمة شامخة في الخُلق. والكتب مشحونة بما يـــدل عـــلى ذلـــك. ومـــنها حكايـــة رجل من أهل الشام يُدعى (عصام بن المصـــطلق) ورد المدينة فرأى رجلاً ذا جلال وهيبة[٢] فلفت نظـــره. فسأل عنه، فقيل: هو الحسين بن علي بن أبي طالب، يقول عصام: فأثار من الحسد

---

(١) سفينة البحار: ج٤، ص٣٨٢.

(٢) وانـــا إذ أقول هذا واصفه (ع) بالهيبة والجلال ، فلا اقول هذا جرياً على عادتنا في وصف الائمة (ع) فحسب، بل لإن التاريخ هكذا يقول. فقد كان معاوية إذا اراد ايصال بريد إلى الحسين (ع) يقول للرسول: إذا دخلت مسجد رسول الله (ص) ورأيت رجلاً تحوطـــه الجلالـــة والبهاء وقد تحلق حوله جماعة قد اخذتهم هيبته ووقاره ، فأعلم أنه الحسين بن علي.

مـــا كان يخفيه صدري لأبيه من البغض[١]. فقلت له: أنت ابن أبي تراب ؟ فقال: نعم. قال: فبالغت في شتمه وشتم أبيه. فنظر الي نظرة عاطف رؤوف. فقـــال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿خذ العفو وأمـــر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين . واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم . ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾**[٢].

ثـــم قال: خفض عليك، استغفر الله لي ولك. انك لو استعنتنا لاعناك، ولـــو استرفدتنا لرفدناك، ولو استرشدتنا لأرشدناك. قال عاصم: فتوسم مني الندم على ما فرط مني. فقال: **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الـــراحمين**[٣]. أمـــن أهـــل الشام أنت ؟ قلت: نعم. فقال: شِنشِنَةٌ اعرفها من اخـــزم[٤] حيانا الله واياك. انبسط الينا في حوائجك وما يعرض عليك، تجدني

---

(١) إن هـــذا الشـــامي وقـــع ضحية التضليل الاموي الذي تزعمه معاوية لتشويه السيرة العطرة لأهل البيت (عليهم السلام)، ففي وقت هذه الحادثة يكون قد مضت ثلاثون سنة عـــلى ممارســـة هـــذا التضليل القذر الذي جعل من علي (عليه السلام) أخطر عدو للاسلام! لدرجة ان الشاميين كانوا يعتبرونه انه لم يشم رائحة الاسلام! يدلك على هذا ما جرى بين كوفي وشامي، اذ كانا يتحادثان في بعض مسائل الصلاة. فاحتج الكوفي بانه رأى علياً يصلي هكذا. فقال الشامي متعجباً: اوهل كان علي يصلي؟.

(٢) الاعراف: ١٩٩ ــ ٢٠٢. (٣) يوسف آية: ٩٢.

(٤) الشنشـــنة : العادة. والمثل لأبي اخزم الطائي. وكان له ابن يقال له اخزم، وكان عاقاً به، فمات وترك بنين . فوثبوا يوما على جدهم ابي أخزم فآذوه فقال:

ان بني ضرجوني بالـــدم شنشنة أعـــرفها من اخـــزم

يعني ان هؤلاء اشبهوا اباهم في العقوق.

عند افضل ظنك إن شاء الله.

قال عصام: فضاقت علي الارض بما رحبت، ووددت لو ساخت بي. ثم سللت منه لواذاً وما على الارض أحب اليّ منه ومن أبيه[١].

يزيد سفاهة وأزيد حلماً  كعودٍ زاده الإحراق طيباً

**حلية المتقين**

بعد الفقرة السابقة ، يصلي الامام على الرسول وآله مرتين. ثم يتابع الدعاء:

«**وحلّني بحلية الصالحين وألبسني زينة المتقين**». فما هي هذه (الحلية) التي يطلب (عليه السلام) التحلي بها ؟ وما هو اللباس الجميل الذي يود (عليه السلام) التزين به ؟ في الفقرات التالية يوضح الامام ذلك ، يقول: «**في بسط العدل وكظم الغيظ وإطفاء النائرة وضمّ أهل الفُرقة وإصلاح ذات البين وإفشاء العارفة وستر العائبة ولين العريكة وخفظ الجناح**» إذاً زينة الصالحين وجميل لباس المتقين هو هذه الخصال المرضية. من نشر العدل وكظم الغيظ، بمعنى: ضبط (النفس) ولجمها ومنعها من (الانتقام والتشفي) ، والغيظ هو شدة (الغضب وهيجانه). وهو عقدة نفسية يجب علاجها كما تعالج الغدة السرطانية بتسليط الاشعة عليها حتى تتلاشى.

ومن ذلك إطفاء النائرة.. فإذا تأججت النار والتهبت شعلة الخلاف بين المؤمنين فإن عهدة اخماد هذه النار تقع على عاتق الصالحين.

ومن ذلك اصلاح ذات البين، بمعنى احلال السلام وايجاد التوافق

---

(١) منتهى الامال: ج١، ص٥٣٢. نقلاً عن (نفس المهموم) ص٦١٤.

والوئام بين المؤمنين والمسلمين.

ومـن ذلـك: إفشاء العارفة. أي: إذاعة المحاسن ونشر الفضائل التي تحـلى بهـا الآخـرون والإشادة بجهودهم الخيّرة وسيرتهم الصالحة. وستر المعـايب والغض عن المساوئ وسترها. وهذه جميعاً داخلة ضمن المسائل الاخلاقية، نعم المسائل ذات البعد الاجتماعي والاثر العام ليس مقصودة هنا، بل لها تعاليم واحكام اخرى تعرض لها الدعاء في فقرات مستقلة.

وكيف كان، فينبغي للمؤمن ان يسعى لتجميل سيرة الاخرين وخلق جوٍّ مـن حسن الظن المتبادل بين الاخوة المؤمنين، وهذا انما يكون عن طريق الاشـادة هـنا وهناك بالخصال الممدوحة والسيرة المحمودة، والتستر على المساوئ واغضاء البصر عنها، وهذا الامر في نفسه وظيفة اسلامية. فضلاً عـن انـه عـامل مساعد في تقليل مساوئ الاخرين، لان مَن لديه مساوئ ومحاسـن، اذا رأى المجـتمع ينظر الى محاسنه ويتجاهل مساوءه، فسيسعى بـدوره الى ازالتها وتقليلها، وخلاف ذلك من المجتمع يؤدي الى خلاف ذلك من الفرد، بمعنى انه سيصاب بخيبة امل في محاسنه، مما يؤدي الى طغيان المساوئ عليها.

**نهى القرآن عن اشاعة الفاحشة:**

ولهذا يقرع القرآن اسماعنا بنهيه الشديد عن اشاعة الفاحشة والمساوئ حـتى الواقعية.. يقول تعالى ﴿**إن الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمـنوا لهـم عذاب اليم**﴾[1]. ومورد الاية المساوئ الواقعية للمؤمنين، والا

(١) النور، آية: ١٩.

فبهتانهم والتقول عليهم فعذابه اشد، وفي الحديث «اذا اتهم احدكم اخاه المؤمن ذاب ايمانـــه كما يذوب الملح في الماء». ولعين هذا السبب حرمت «الغيبة»، فانهـــا تخلق في المجتمع الايماني حالةُمن اساءة الظن والنظر بعين الريبة، علماً بان «الغيبة» عبارة عن افشاء المساوئ الواقعية للفرد للاخرين.

**موارد مستثناة للغيبة:**

نعم، توجد موارد مستثناة من التحريم، وهي جميعها ذات بعد اجتماعي صـــرف، مـــن باب المثال: الاستيضاح وطلب المشورة، كما لو اراد رجل مشـــاركة آخر، فيستنصح ويستشير مَن لديه معرفة وإطلاع على اخلاقيات «الشـــريك» وسلوكه، ليرى مدى صلاحيته للشركة. وكذا الحال في التزويج للبـــنت او الابـــن، وغير ذلك. وفي مثل هذه المواطن يجب على المستشار اظهـــار الحقيقـــة واخـــلاص النصيحة واعطاء المستنصح حقه. ومن المواد المســـتثناة: اظهار المظلوميّة، فمَن اغتصب ماله لـــه كامل الحق في فضح الغاصـــب امام الملأ، لان امره يدور بين امرين: اما السكوت على مضض، وبالـــتالي يذهـــب حقه هدراً، واما اعلام المجتمع بظلامته، فهذه غيبة لكنها جائزة، لقوله تعالى: **﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الاّ من ظلم﴾**[1].

وانا اذا بيّن هذا فلكي نحذر من الافراط والتفريط، لان عيب المجتمع الاســـلامي، كمـــا يعكســـه الـــتاريخ، لا ســـيما نحن الايرانيين، هو انعدام «الوســـطيّة». بمعنى: اما ان نفرّط واما ان نفرط، اما ان نملأ افواهنا بالغيبة ونلوك الاخرين بالسنتنا، واما ان نصل الى درجة نحرم فيها غيبة «الحجّاج»

---

(١) النساء، آية ١٤٨.

ونعدها ذنباً يجب الاستغفار منه، كما هو راي ابن سيرين.

**إشتباه ابن سيرين والغزالي**

يروي لنا التاريخ ان «ابن سيرين» ــ احد العلماء الايرانيين في القرن الثاني الهجري ــ كان يتحرج من ذكر «الحجاج» بسوء، فحدث ان احدهم ذكره بسوء ووقع فيه، فقال له المقدّس ابن سيرين زاجراً: مه، لا تغتبه! فان ذنب اغتيابك اعظم من ذنب الحجاج نفسه. فهل سمعت بهذا الهراء؟ والعجيب ان «الغزالي» مع عظمة مقامه ينقل هذا ويؤيده! ان «الغزالي» رغم تفوقه العلمي وعمق افكاره، وقع هنا في اشتباه كبير، والرجال الكبار عندهم اخطاء كبيرة ايضاً. وكما يذكر ابن الجوزي فان من اخطاء «الغزالي» هو اضفاء الصبغة الصوفية على الاحكام الشرعية في كثير من الموارد، ممّا تسبب في مزالق فقهية، كما في مسألتنا هذه. وليت شعري، اذا حرمت علينا غيبة «الحجّاج» فمن يجوز لنا اغتيابه وفضحه؟! فبحسب ما يراه هؤلاء، لا تجوز غيبة يزيد بن معاوية! هذا الذي نفضحه فوق المنابر ليلاًونهاراً! ونذكر للملأ مظالمه وبوائقه. وعلى هذا فالله تعالى قد اغتاب فرعون ونمرود وقارون وبلعم بن باعورا ومئات الافراد، بل واقواماً باكملها، كبني اسرائيل!

وعوداً على بدء نقول:

ان هذه الفقرات القليلة من هذا الدعاء، لهي مرآة جليّة تعكس لنا السمو الروحي والرقي الأخلاقي لصاحبه، وكل أناء بما فيه ينضح، وإنسان كهذا لهو المستحق للتقديس حقاً، لأن فكره تجاوز ذاته، وهذه هي الملكات الفاضلة والسجايا الخالدة، ويجب علينا ان نعرف سر عظمتها ومكمن جلالها كي نسعى مثابرين لتحصيلها.

وتوجـــد مدارس مختلفة أدلت بدلائها في تحديد البنية التحتية والركيزة الفلســـفية للأخـــلاق، وبيان الاطر والدوافع التي تميز السلوك الأخلاقي من غيـــره، وسوف نتعرض لهذه المدارس والنظريات المطروحة، لنعرف الجيد مـــن الرديء والغث من السمين، كما سنبين الرؤية الإسلامية الاصيلة على ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة.

واليك الان بعضاً من النظريات الأخلاقية.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# الباب الثاني

# النظريات الأخلاقية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## نظرية العاطفة

(العاطفية) من أقدم النظريات الموجهة للسلوك الأخلاقي. فهناك فريق يؤمن بأن مناط (أخلاقية) المواقف والافعال هو العواطف الإنسانية. ويقسمون الافعال البشرية إلى قسمين:

أ ــ أفعال عادية. وهي تنشأ من أنانية الإنسان والميل الطبيعي الموجود فيه. والهدف منها هو جلب المنفعة واللذة، ومثل هذا العمل ــ منشأ وهدفاً ــ لا يمت للأخلاق بصلة. وذلك كأغلب الافعال الصادرة من الإنسان. فالعامل انما يكدح ويجهد نفسه طلباً للاجرة والعوض المادي كي يؤمن معيشته، وكذلك الموظف الإداري العامل في شركة ما، أو التاجر الباحث عن التجارة والربح، إلى غير ذلك من (المساعي) و(الخطوات) المرتبطة بذات الشخص وحياته الخاصة والنابعة من ميوله ورغباته الشخصية، والتي هدفها جلب اللذة ودفع الضرر، كمن يراجع الطبيب لرفع السم عنه أو لدفع خطرٍ محدق به، فهذه كلها أعمال طبيعية ولا تمت للأخلاقية بصلة.

ب ــ أفعال أخلاقية، منشأها (العاطفة) التي هي فوق الميول الفردية وأعلى منها، وأصحاب هذه (العاطفة) لا يحبون (ذواتهم) فقط بل يحملون في قلوبهم همّ مصير الآخرين ويهتمون به، تماماً كما يهتمون بهمومهم ومصائرهم. وإذا سعد الاخرون وأربعوا ابتهجت نفوسهم أيضاً كما لو انهم هم المنتفعون انفسهم، وهذه المرتبة والدرجة حاصلة عند البعض ، بل تصل (العاطفة) ــ والتي هي غير الحب ــ أحياناً عند البعض إلى مرتبة أعلى،

وتبلغ أوجها، وهي مرتبة (الايثار) أولئك هم الذين تكون سعادتهم وسرورهم بإيصـــالهم الخير للآخرين وإدخال الفرحة عليهم أكبر من سرورهم بوصول ذلك إليهم! يعني: أن يكسوا الآخرين أحبّ اليهم من أن يكسوا أنفسهم ، وأن يطعموا الآخرين أهنأ والذ لهم من أن يأكلوا، وأن يريحوا الاخرين أطيب لهم من جلب ذلك لأنفسهم.

## المبدأ والهدف لفعل الانسان

والحاصـــل ان القائلين بهذه النظرية يؤكدون على أن لكل فعل إنساني مـــبدأ وهدفـــاً، ومبدأ كل فعل إنساني هو الأحساس والعاطفة المحركان نحو الفعـــل. ولـــولا المبدأ لاستحال صدور فعل من الإنسان، فكل فعل له هدف منظور، والإنسان عبر فعله يروم الوصول لهدفه.

والفعل الأخلاقي هو ما ينشأ من مبدأ وميل لا ربط له بشخص الفاعل، بل هـــو مرتبط بالاخرين، (وهذا «الميل» هو ما يصطلح عليه «بالعاطفة»)، كما ان الهدف ليس وصول «الخير» للذات، بل وصوله للأخرين والاغيار، فعلى هذه النظرية يكون الفعل الطبيعي ــ محاطاً ــ بدائرة «الأنا وإطار والذات» وغير خارج عنها ، والإنسان المربوط ميله «بالأنا» همه إيصال الخير والنفع لذاته وحدها ، تماماً كما هي طبيعة (الحيوانات).

أمـــا الفعل الأخلاقي فهو ــ مبدأ وهدفاً ــ خارج من دائرة (الأنا) لأن الميـــل للفعل سببه الآخرون، كما ان الهدف هو تجاوز الذات والخروج من دائـــرة «الانا»، والإنسان الأخلاقي هو الذي يخترق دائرة ــ الانا ــ ويطأها بقدمـــه كـــي يصـــل إلى الآخـــرين، والأخلاق في هذا المسلك تنشر المحبة والمودة، بل الأخلاق في هذا المسلك هـــي الحب والمحبة، ومعلم الأخـــلاق

القائمة أخلاقه على هذه الدعامة يرى نفسه رسول المحبة والصفاء.

* * *

لابد من القول: ان هذه النظرية ــ إجمالاً وإلى حد ما ــ نظرية مشتركة بين كافة الاديان، وأغلب مدارس العالم الفلسفية تتشبث بمبدأ (المحبة) ، ولا يوجد في دنيا الاديان دين لم يوصِ بالمحبة خيراً، وفي أخبارنا وأحاديثنا ما يدل على ذلك، نحو: «احبب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره لغيرك ما تكره لها» نهج البلاغة خطبة ٣، وبهذا المضمون هناك روايات كثيرة وهذه التوصية وردت في كافة الاديان الكبرى في عالمنا، وبعض المسالك أوالاديان أفضل ما فيها هو أن (المحبّة) تشكل محور الأخلاق فيها، وفي بعض الاديان الاخرى تعتبر (المحبّة) احد عناصر الاخلاق الدخيلة في تركيبة الاخلاق.

## الاخلاق الهندية:

الاخلاق الهندية اخلاق عاطفيّة، بمعنى ان محورها وعمادها هو «العاطفة»، كما هو حال الاخلاقية المسيحيّة.

يقول: «غاندي» في كتابه «هذا هو مذهبي» المطبوع فعلاً:

من قراءتي في «اپانيشادها» (وهي مجموعة كتب دينية هندية متوارثة من الاف السنين، وتعد من الكتب المهمّة في الدنيا)[1] توصلت الى اصول

---

(١) كان استاذنا الكبير العلامة الطباطبائي (سلمه الله تعالى) قد قرأ هذا الكتاب قبل سنوات. وقد أعجبه جداً ، كان يقول: يوجد فيه معانٍ راقية وعميقة.
والمعاهد الأوربية تعتبره كتاباً عظيماً وذا قيمة كبرى إلى الان. (المؤلف رحمه الله)

ثلاثة، وهي:

١ ــ انه توجد في هذا العالم (معرفة) واحدة، الا وهي معرفة النفس.

(فـــي الفلســـفة والثقافة الهندية تعد معرفة النفس اساس المعرفة ولبها، والرياضيات العملية تمارس لاجل هذا).

٢ ــ ان كل مَن عرف نفسه عرف ربّه وعرف حقيقة العالم.

وهـــذان الاصلان صحيحان، وقد اكدّ عليهما الاسلام، وظهرا جليّاً في احاديث الرسول الاكرم (ص) ووصيّه (ع)، يقول علي (ع):

(معرفة النفس أنفع المعارف)[1].

٣ ــ فـــي هـــذا العـــالم، هناك (قدرة) واحدة، وهي قدرة التسلط على «الـــنفس»، والتمكن من تطويقها، وبتعبير غاندي «كل من يسيطر على نفسه وذاته، يسيطر على العالم أيضاً، في هذا العالم يوجد شيء جميـــل، وهو حب الآخرين كحب الذات». وهذه الفقرة هي مقصودنا من نقل كلام غاندي حيث نثبت بها اعتماد الأخلاقية الهندية على حب الآخرين والإندكاك في الاغيار.

وأمـــا المبشـــرون والمبلغون المسيحيون فإنهم يقولون أيضاً ــ ولو ادعـــاءً ــ : نحن رسل المحبة ، والمسيح أيضاً كان رسول محبة ، حتى انه كـــان يقول (إذا صفعك أحد على خدّك الايمن ، فأدر له خدّك الايسر). هذا، علماً بان الهنود ــ بحكم شرقيتهم ــ اقل نفاقاً وكذباً، بخلاف المسيحيين، فهم ــ بحكم غربيتهم ــ يقولون ما لا يفعلون ــ لذا قلنا ــ ولو ادعاءً.

---

(١) غرر الحكم، ج٢، ص٧٦٩.

## نقد نظرية العاطفة

وكيـف كان، فهذه النظرية نصفها ــ القائل بأن الأخلاق تعني المحبة وفعـل الجميـل ــ صحيح، والنصف الأخر خطأ. يتضح ذلك عند ملاحظة الإيرادات التالية:

١ ــ لا يمكـن اعتـبار كـل (محبة) (أخلاقاً) وان كانت تلك المحبة ممدوحـة ومحمودة، وليس كل فعل ممنوع أو مذموم يعد (أخلاقياً) أو (غير أخلاقـي)، فالفـارس القوي، يمدح على قوته وبسالته، لكن لا يعد ذلك أمراً (أخلاقياً) بطبيعة الحال، لأن (الأخلاقية) تتضمن عنصر الاختيار والاكتساب لمـلكات غيـر غريزية، فإذا كان الشيء الجميل الحسن فطرياً وغريزياً في الإنسـان، بحيث لم يكتسبه اختياراً، فهو وان كان رائعاً ومحموداً الا انه لا يدخل تحت عنوان (الأخلاق)، مثلا: حب الوالدين للابن شيء مقدس و عظيم، لكـن لا يقال بأن هذه الاحساسات الرقيقة والعاطفة الحارة اخلاق، دليل ان هـذه الام لا تشعر تجاه ابن جارتها بما تشعر به تجاه فلذة كبدها، و لا يعنيها أمره، فهذه الاحاسيس لم تكتسبها اكتساباً، بل القانون الحكيم هو الذي وهبها اياها لكي تنتظم الامور والشؤون الاجتماعية للبشر، ولولا ذلك لما أرضعت أم ابـنها ولمـا حدبـت عليه. وعلى هذا فأحاسيس «الام» ليست كأحاسيس الصداقة، لأن أحاسيس الامومة ناشئة من (العاطفة) وهي خارجة عن إختيار (الام)؛ لأن احساسـها تجاه ابنها ليس منطلقاً من الحب العام للخلق، بل هو ناشئ من حيثية الامومة الغريزية، وهي وان كانت تعبر عن تجاوز «الذات»، الا انـه لا تعد سلوكاً اخلاقياً. وهذا هو أيضاً شأن أحاسيس الاب والارحام والمشاعر الوطنية.

٢ ــ الايراد الثاني هو أن دائرة الأخلاق، أوسع من محبّة الآخرين، إذ توجد سلسلة من الافعال والسلوكيات النبيلة والراقية يمارسها الإنسان من غير أن تكون ناشئة من حبّه للآخرين، والمرء لا يملك الا ان يقدس تلك المعاني كما يقدس ما يرتبط بمحبّة الاخرين كالايثار والاحسان، ومن ذلك ما يسمّيه العرب «ابداء الضيم». ونحن نعاين رجالاً في التاريخ يضحون بأرواحهم ويبذلون مهجهم فيما إذا خيروا بين عزتهم وكرامتهم وبين أن يخنعوا أذلاء صاغرين.

هذه التضحية وهذا الاباء والشموخ قمة الأخلاق، ولا ربط له بمحبّة الاخرين. ولا يمت لها بصلة ، بل هو احساس نبيل، تجد هذا في كلمة الحسين بن علي (عليه السلام) إذ يقول: (القتل أولى من ركوب العار)[١]. وفي كلمة علي (عليه السلام) في المروءة (قد استطعموكم القتال فأقروا على مذلة وتأخير محلة، أو روّوا السيوف من الدماء تروووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين)[٢].

فانقول إذا بعدم وجود شيء جميل وحسن في هذا العالم سوى (المحبة) قول غير صائب، بل توجد أمور أخرى جميلة غير محبّة الاخرين.

٣ ــ الايراد الثالث هو ان مفهوم (الإنسانية) بحاجة إلى تفسير، فمثلاً: هل عطف الإنسان على الحيوان ــ كما في قصة الرجل الذي سقى الكلب الظامئ ــ لا يعد من الأخلاق لكون (الكلب) ليس (إنساناً)!

---

(١) بحار الانوار، ج٤٥، ص٥٠.

(٢) النهج: ص٨٨، خطبة ٥١.

وهـــل انه لا يليق بنا نحن البشر محبة الحيوانات ؟ ام انه ينبغي ذلك (لكونها مخلوقات له تعالى ومن مظاهر قدرته ورحمته) كما يقول «سعدي»:

* مبتهج أنا بهذا العالم، لأن هذا العالم البهيج منه تعالى
* وانا عاشق لكل العوالم لانها كلها منه تعالى
* فيا ايها الرفيق عليك بنسيم السحر
* كي تحيي هذا القلب الميت لأن هذا النسيم نَفَسه تعالى
* حقّاً لا يملك (الملك ولا الفلك) مثل ما في قلب
* الانسان المفاض منه تعالى. (يريد بذلك الروح)
* اني اشرب السم الزعاف بلذة ونشوة ، لأن الساقي هو الشاهد
* وبإرادتي اقتل نفسي، لأن المحيي هو تعالى.

## ما هي ( الإنسانية ) ؟

«الإنسانية» شعار يردده الكثير ، وهو بحاجة إلى فهم وتفسير دقيق لئلا يختـــلط الحابل بالنابل وتحل (اللاإنسانية) محل «الإنسانية»، هل الإنسان هو هذا الحيوان ذو الرأس والأذنين ؟ بحيث إننا كلما رأينا حيواناً برأس وأذنين نقول: هذا هو «الإنسان»! وانه من ذرية آدم أبي البشر ويحب ذريته كافّة؟ أم أنـــه ليـــس المـــراد كـــل (إنســـان) وان كـــان ضـــداً (للإنسان) بل المراد بـــــ (الإنسان): الإنسانية الاصيلة. يعني: محبة البشر والشفقة عليهم والرأفة بهم. و «الإنسانية» تعني تقديس المثل والقيم الإنسانية النبيلة. فالإنسان إنسان وجديـــر بالحب بقدر ما يحمل من تلك المثل الإنسانية. وساقط عن الاعتبار بقدر تخليه عن (الإنسانية) وخلعه ثوبها وان كان مثل الآخرين في الظاهر.

وإلا فجنكيز إنسان، يزيد بن معاوية أيضاً إنسان، الحجاج بن يوسف إنسان! إن الشيء الذي يفتقده أولئك هو المثل الإنسانية ، فهم في الحقيقة أناس ضد (الإنسان)، إذاً: فالإنسانية بحاجة إلى تحديد لمفهومها وتفسير لمعناها. وإذا رأينا إنساناً كاملاً يعطف ويشفق على إنسان عارٍ عن القيم الإنسانية، فذلك من حيث انه يريد الأخذ بيده والبلوغ به إلى مستوى (الإنسانية)، وبهذا اللحاظ يكون الرسول الاعظم (ص) (رحمة للعالمين)، ورحمة للبشر كافّة، كافرهم ومؤمنهم.

والحاصل: ان المعيار الذي تحدثوا عنه وسموه المحبة والعاطفة يمثل جزءاً وجانباً من الحقيقة لا كل الحقيقة ، لأن الأخلاق أعم من (العاطفة والمحبّة) واشمل، هذا.

وقد اضاف البعض قيداً هنا لتصحيح هذه النظرية، فقال: الفعل الاخلاقي هو ما تكون الغاية منه «الاخرون» لكن بشرط ان يكون صدوره بالاكتساب لا بالغريزة، لتخريج عاطفة الامومة والابوة عن دائرة الاخلاق، فاضاف عنصر «الاختيار». ولكن يبقى اشكال اخر، اذ توجد اخلاقيات مسلّم بها بدون ان يكون الاخرون هم الغاية منها، بل هي صفات وسجايا كمالية للذات، كالصبر والاستقامة، كما توجد رذائل اكتسابيّة، كالحسد، فانه مرض روحي، وليس هو لخير «الاخرين» بطبيعة الحال، وعلى اساس هذا النظرية يخرج هذان عن الاخلاق. فلا بدّ من تعميم التعريف والضابطة لتشمل الاخلاق الصفات المحمودة والمذمومة، ثم يضبط الفعل الاخلاقي على انه ما يكون الغاية منه «الاخرون» احساناً كانت او اساءةً. وحتى هذا ايضاً غير دقيق. اذ قد يظلم الانسان غيره عرضاً، بمعنى ان غايته ليست الاضرار

بالاخرين، بل جلب النفع له.

## نظرية الفلاسفة المسلمين:

مفـاد هـذه الـنظرية ان الاخلاق ملاكها العقل، لكن العقل الامير لا الاسـير، فالانسـان فـي راي فلاسـفة المسلمين هو القوّة العاقلة المدركة. فجوهـره عقلـه. وسعادته هي سعادة عقله. وسعادة العقل تكون بالمعارف والحقـائق الالهيّـة. لذا تراهم يقولون ان غاية الحكمة (لا موضوعها) هو «صيرورة الانسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني». وهذا المعنى لا يدركه ذهن الانسان العادي. انما يدركه الواصلون والعرفاء الراسخون.

ومـرادهم مـن ذلك هو ان يكون العقل هو الحاكم المطلق على قوى الانسـان والمسـيّر لها. فالعقل هو الذي يعطي كلّ قوّة حقها بلا افراط ولا تفـريط، لـئلا يفقد العقل حريته ويقع اسيراً بيد الغرائز الطبيعيةمن غضب وشهوة وغيرهما. فاذا وازن العقل بين هذه القوى ضمن صاحبها عدم تعديها وعدم مضايقة البدن للروح. وهذا بالتالي يرجع الى ما ينفرد به الانسان اعني «الارادة». اذ انـه كـلما وجد العقل وجدت الارادة، وعدم العقل يعني عدم الارادة. وهذا بخلاف الحيوانات الاخرى، فانها تملك ميلاً وشوقاً، لكنها تفتقد مفـتاح السـعادة الذهـبي الا وهـو «الارادة». وقولهم «كل حيوان متحرك بـالارادة» اشتباه بيّن. اجل، قد يلغى الانسان ارادته ويتحرك بالشوق والميل فقط. وهذا نقصان حظ لا سلب ارادة.

وهـذه الـنظرية مردّها الى القول بالتوازن والتعادل. لكن ليس لحفظ الجمال، كما هو رأي افلاطون، بل لحفظ حريّة العقل وتثبيت حاكميته.

## الفرق بين الميل والارادة

(الميـــل) جـــاذب داخلي في الانسان، فهو يجذب الانسان ويشدّه نحو الاشياء الخارجية، فالجائع يشعر داخلياً بالميل والرغبة في الطعام، فهذا الميل قوّة جاذبة، تجذب الانسان للطعام، أو قل: ان في (الغذاء) قوّةً تجذب الانسان اليه، وبتعبير اوضح يمكن القول:

ان الميل هو الرابط بين الانسان والعالم الخارجي.

عـــندما يجوع الإنسان أو الحيوان، فإنه يميل تلقائياً للأطعمة، وعندما يعطش يميل للمشروبات. بالنسبة للغريزة الجنسية أيضاً يميل للجنس الآخر، وعـــندما يتعب يرغب في الراحة. فهذه الميول كلها تحرك الإنسان لتحصيل شـــيء مـــا، حتّى عاطفة الامومة والعواطف الإنسانية، أيضاً هي ميول، لذا نـــرى الإنسان إذا صادف ورأى فقيراً، يميل لمدّ يد المساعدة والنجدة إليه ، هذا ما يرجع إلى الميل.

أمـــا الإرادة فهي تتعلق بذات (المريد) وباطنه، ولا تمثل علاقة جذب بيـــنه وبيـــن العـــالم الخارجي، فالإنسان عندما يفكر في موضوع ما ويضع حســـاباته حوله وينظر بعيداً لرؤية العواقب المترتبة على خطواته، ومن ثمّ يقـــارن بواســـطة عقله بين المصالح والمفاسد ويقايس بينها، يستطيع عندئذٍ تشـــخيص الخطوة الاصلح والافضل، ثم يعمل ويأتمر بما يمليه عليه العقل، ولا يتمكن الميل من جذبه وجره إليه.

ونحـــن نرى في كثير من الأوقات، أن إرادة الإنسان تتعلق بما يدرك العقـــل مصـــلحته، وبالتالي ينجزه استناداً إلى فتواه وإن كان ذلك ضد الميل

النفسي الموجود لديه ، فمن يتبع نظاماً غذائياً خاصاً ــ مثلاً ــ تدعوه شهوته لتناول الاطعمة اللذيذة والاطباق الشهية الموضوعة أمامه على المائدة، وبما أن هذا الإقدام يضره، فإننا نرى العقل يردعه ويقول له: إن أكلت هذا الطعام فستنتابك عوارض مؤلمة وستقع فريسة سهلة للمرض، فإن كان عاقلاً ترك ميله واتبع عقله.

ومثل ذلك أيضاً ما يحدث للمريض، إذ ان طبعه ينفر من الدواء، فهو ليس فقط لا ميل لديه نحوه، بل إنه يشعر بالتقزز منه . لكنه عندما يفكر ويرجع إلى عقله يجده يقول له: سلامتك وعافيتك توجبان عليك ان تتناول الدواء وان كان مراً، وبناءً على حكم العقل هذا يصمم المريض على تناول الدواء وان خالف ذلك ميله النفسي. الخوف خلاف الميل، فانه يعني النفور والفرار، لكن الارادة تقاوم هذا الخوف وتنفخ في القلب روح الشجاعة.

إلى هنا اتضح أن معنى الإرادة هو وضع الميول النفسية المرغوب فيها وعنها تحت نظام مراقبة صارم بحيث تكون في خدمة (المصلحة) وما يحكم به العقل.

وعلى هذا يكون مؤدى هذه النظرية أن (الأخلاق) تعني انبثاق الفعل من المصلحة والإرادة، وليس من أحد الميول المتسلطة.

العاطفة الإنسانية أيضاً كذلك، أي أن حدودها يجب أن تكون ضمن حدود العقل وبيده تعيينها، لا أن تترك بلا رقيب. في كثير من الموارد تصدر (العاطفة) حكماً معيناً، والعقل يصدر حكماً مغايراً، العاطفة تعني رقة القلب والاحساس بالرأفة، لكن لا ينبغي الانسياق وراءها، بل يجب جعل العقل والإرادة حاكماً عليها، وقد صرح القرآن الكريم بهذا في الآية المتعلقة

بالـــزاني، قال تعالى: **﴿والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تـــأخذكم بهمـــا رأفـــة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾**[١].

القـــرآن فـــي هـــذه الآيـــة يريد لفت نظر المخاطب لقضية، وهي أن المؤمنين عندما يريدون معاقبة أحد الجناة ، ترقّ قلوب كثير من الافراد رأفة بـــه وحـــنواً عليه، ويقولون: حبّذا لو عُفي عنه وصرف النظر عن معاقبته، وهـــذا إحساس آني، الا أن صاحب هذا الاحساس يغيب عن نظره أمر آخر، وهـــو انه إذا كان الغرض العفو عن كل جانٍ ومجرم، فإن هذا سيؤدي الى حـــدوث جناية تلو الاخرى، وستأخذ الجرائم بيد بعضها حتى تطوق المجتمع وتخـــنقه، إن العاطفـــة تقول: لا تعاقب. والعقل والمصلحة يقولان: عاقب، فالعاطفـــة في مثل هذه الموارد لا تعد محبّة، بل هي في ذاتها ليست كذلك، لكن لبعدها عن المنطق والفكر السليم تمسك يد الإنسان وتقول له: لا تقم بهذا العمـــل. أما العقل والمصلحة فيجيزان له الاستعانة بالعنف ويقولان للعاطفة: أنـــت قصـــيرة الـــنظر ولا ترين المستقبل البعيد إذ تصدرين حكمك بالكف. وعليه: فإذا رأيتم العدالة الالهية تأخذ مجراها المقرر لأجل المصلحة البشرية العامة فلا تذهب أنفسكم حسرات ولا تأخذكم الرحمة والرأفة، يقول سعدي:

الرحمة بالنمر ظلم للأغنام

الـــرحمة والـــرأفة بالنمر، بلحاظ (العاطفة) وبغض النظر عن المنطق والمصلحة والعقل، عمل خاطئ، أجل! لأنه لو لم يوجد في الدنيا غير النمر

---

(١) سورة النور: آية ٢.

لكـــان ذلـــك عملاً صائباً. لكن الأمر ليس كذلك، فالإنسان عندما يفتح عينيه سوف يرى ان الدنيا أوسع أفقاً من مجرد «نمر»، وسيفهم ان الرأفة به تساوي القسوة على مئات (الاغنام) البريئة العزلاء. العاطفة ــ طبعاً ــ لا تدرك هذه المســـاواة، لكـــن العقـــل والمصلحة ــ إذ يقيسان الامور وينظران المصالح والمفاســـد ــ يريان من خلف العاطفة القسوة الكامنة في الشفقة على الحيوان المفترس، لذا يحولان دون العمل وفقها.

ومـــا يقولـــــه (العاطفيون) حول جلد الزاني يرد أيضاً على قطع يد الســـارق فيقـــال: قطـــع يـــد السارق قسوة ووحشية!. وعمل يندى له جبين الإنسانية!.

فهـــؤلاء لا يرون سوى مواطئ اقدامهم، ولا يدركون ان تنفيذ القانون وقطع يد السارق كفيل بإجتثاث السرقة من أصولها وتخليص المجتمع منها ، ونحن نرى الان ــ وبسبب السرقات ــ مدى الجنايات والمذابح التي ترتكب في العالم.

على هذا الاساس، ترى هذه النظرية أن معيار وملاك (الأخلاقية) هما العقـــل والإرادة دون العاطفـــة. وعـــلى هـــذه ان تأتمر بأوامرهما وتستنير بهديهما.

ولو أطلقنا سراح (العاطفة) وأوكلنا اليها القيادة لأنقلبت الاية، ولارتَدَت الاعمال (غير الأخلاقية) لباس (الاعمال الأخلاقية) وتسمت باسمها.

ومـــن المســـائل المُسلّمة والمعتمدة لدى علماء الإسلام وفلاسفته، هي مســـألة اعـــتماد الأخلاق واتكائها على قوّة العقل ووعي الإرادة، فالأخلاق الكاملة بنظرهم هي الأخلاق المستندة الى العقل ، بحيث تكون الميول الفردية

والنوعية منضوية تحت مظلة العقل والإرادة.

فالإنســـان ذو الخلق الكامل هو من يكون العقل والإرادة حاكمين على وجوده وسلوكه، ومهيمنين على نزعاته وميوله.

وتوجـــد طـــبعاً في أعماق الإنسان عواطف جياشة غير فردية، وهي بمثابة (منابع) دافئة تغمر وجود الإنسان. وبإرشادات العقل ومعونة الإرادة ، توظـــف هـــذه العواطف لما فيه المصلحة الحقيقية. مثل هذا الإنسان الكامل تكـــون ردود فعله غاية في الرقة والعطف والنبل، ولو قدّر لنا رؤية روحه، لوجدناهـــا أنعم من (خميلة) الورد والطف من نسيم السحر، الا ان هذه الرقة لا تمـــنعه من العنف والبأس إذ لزم الأمر، لديه من الشدة ما لا تبلغه الجبال الرواســـي، ويمتـــلك من قوة القلب ما تخوله لقطف مائة من الرؤوس دفعة واحـــدة كما لو أنها رؤوس أغنام أو ما هو أهون منها، دون ان يضطرب له قلب أو يقشعر له بدن أو تطرف له عين، هذا النمط نراه ــ برؤيته لمشهدٍ ما ــ تـــرتعد فرائصـــه وتأخذه رجفة تفقده السيطرة، ومن اظهر مصاديق هذا النمط من البشر هو: علي بن أبي طالب (عليه السلام).

والحاصـــل: ان العاطفـــة عمياء لا عيون لها، وبلهاء لا منطق لديها، والإنسان المنقاد لها الواضع نفسه في خدمتها، ستدله على بيت الخراب حتماً ودائماً، في الموارد الحسنة والقبيحة على حد سواء. وبخلاف ذلك من يضع عواطفـــه تحت تصرف عقله وارادته، إذ تكون روحه مظهراً للّطافة والرقة والعظمة فـــي حال، ومظهراً للقوة والبأس فـــي حال آخـــر، حسبما يقتضيه الموقـــف وتتطلـــبه الظروف. وهذا هو الإنسان الكامل في الإسلام .

ونحن إذ نقول: هذه نظرية فلاسفة المسلمين، لا يعني هذا أن نظرية الإسلام

هـي هـذه قطعـاً، لأن الفلاسفة المسلمين ليس بإستطاعتهم الإحاطة بواقع المسائل الإسلامية كلها، نعم هم كشفوا بعضاً من الحقيقة وجانباً منها.

## ٣ ـ نظرية الوجدان

هناك فريق يؤمن ويعتقد بأن الله تعالى قد أودع في الإنسان قوةً خلاَّقةً قـادرةً عـلى الهامه تكليفه وإفهامه وظيفته، والايماء له بما ينبغي فعله من أعمـال حميـدة وسـيرةٍ حسنة، هذه ((القوَّة)) ليست هي ((العاطفة)) كما يقول أخلاقيـو الهـند والمسـيحية، وليست هي ايضا "العقل والإرادة" كما يقول الفلاسـفة، بل هي عبارة عن الالهامات الوجدانية. فهناك اعتقاد لدى البعض بـان الله تعـالى غـرس هذه القوة في باطن الإنسان لتلهمه ــ في كثير من الحالات والاعمال التي ندعوها أخلاقية ــ فعل ما ينبغي فعله والابتعاد عما ينبغي تركه. ان هذه القوة الباطنية لا علاقة لها بالعقل النظري بل هي نابعة من الفطرة. كما ان هذه القوة لا علاقة لها بالانشطة والوظائف الطبيعية التي يمارسـها الإنسـان من قبيل الأكل والشرب ولمثال ذلك، لان هذه الأعمال مرتبطة بالطبيعة لا بالوجدان.

### نظرة القرآن للوجدان

وإذا تصـفحت القـرآن الكريم ستجد سورة ((الشمس)) المباركة وهي تتحدث عن تسليح الإنسان بجملة من الالهامات الفطرية من قِبل خالقه تعالى، يقول الحق تعالى:

**﴿والشـمس وضحيها والقمر إذا تليها * والنهار إذا جلّيها * والليل إذا يغشـيها * والسـماء وما بنيها * والارض وما طحيها * ونفس وما**

**ســوّيها * فالهمهــا فجورها وتقويها * قد افلح من زكّها * وقد خاب من دسّاها..﴾.**

نلاحظ هنا انه تعالى قدّم «اقساماً» عدّة ــ آخرها القسم بالنفس والروح واعتدالها ــ ليقرّر انه سبحانه قد الهم النفس البشرية الفجور والتقوى. فالقلب الإنساني إذا يمتاز عن قلوب بقية الحيوانات، وهو قادرٌ على التشخيص، وقد نقل انه حينما نزلت الآية الشريفة: **﴿تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾**[1] قصد الرسول الاكرم ــ صلى الله عليه وآله ــ رجل اســمه «وابصــة» وقــال: يا رسول الله لدي سؤال، وقبل ان يسأل قال له الرسول: انا اخبرك بسؤالك قبل ان تبوح به. قال وابصة: نعم يا رسول الله. فقــال ــ ص ــ : قدمتَ لتسأل: ما هو الــبر والتقوى والاثم والعدوان؟ قال وابصــة: أجل يا رسول الله. عند ذلك وضع الرسول ــ ص ــ اصبعه على صــدر الــرجل وقال له: يا وابصة «استفتِ قلبك» يعني: ان الله تعالى الهم معرفة ذلك قلبَ كل إنسان، وقد صاغ «مولوي» هذا الحديث شعراً فقال:

* قال الرسول: استفت قلبك.. وخُذ بفتواه وبما يلقيه عليك.

* استرشد قلبك، قال ذلك الرسول .. واحذر من فتوى غيره فإنه فضول.

* دع الآمــال جانبا كي تنال الرحمة، فإني بالتجربة علمت ان الأمر كذلك.

* «اخدمه» لحظةً بلحظة لانك دائما تحت عينه، وانت تسمع نداء الحق لكنك لا تراه..

---

(١) المائدة: آية ٢.

* إذا سددت عينيك بالاستار والحجب، فكيف ينفذ نور الشمس إلى قلبك؟

وللأستاذ العلامة «الطباطبائي» في تفسير «الميزان» النفاتةٌ لطيفة في تفسير قوله تعالى من سورة الانبياء **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات﴾**[١] قال: «لم يقل تعالى وأوحينا اليهم ان افعلوا الخيرات، لأن الآتيان بـ «أن» دون المصدر يدل على تشريع فعل الخيرات فقط، اما الاتيان بذات المصدر فهو يدل على ان الوحي تعلق بالفعل الصادر عنهم، أي: ان الفعل كان يصدر عنهم بوحي مقارن له ودلالة الهية باطنية»[٢].

## نظرية كانت

وعلى أية حال، فهناك عدد من الفلاسفة يؤمنون بمثل هذا الوجدان المستقل لدى البشر، ومن هؤلاء الفيلسوف الالماني كانت[٣] والذي يعد نظيراً وقريناً لأرسطو وأفلاطون في النبوغ والابداع، له كتاب في فلسفة (العقل النظري) وكتاب آخر في فلسفة (العقل العملي) وأهم حديثه يدور حول مسائل الحكمة والأخلاق العملية. وهو يرى ان الفعل الأخلاقي هو ما يأتي به الإنسان بعنوان انه تكليف يمليه عليه وجدانه، إنه الفعل الذي يأمر

---

(١) الانبياء: آية ٧٣.

(٢) تفسير الميزان، ج١٤ ص٣٠٦ طبعة بيروت الجديدة.

(٣) امنوئل كانت ١٧٢٤ ــ ١٨٠٤م فيلسوف الماني،امضى عمره في التعلم والتعليم والتأليف والتصنيف، له آثار عديدة، تقارب الثمانين بين رسالة وكتاب. اكثرها تدور حول النقد والفلسفة، من آثاره: النقد، العقل المطلق، مباني فلسفة الاخلاق، نقد العقل العملي. (الدكتور محمد معين، الحضارة الفارسية ج٦ ص١٥٤).

به الوجدان ، والإنسان ينجز ذلك الفعل دونما تردد إطاعةً للوجدان لا لشيء أو غرض آخر.

ولـ (كانت) كلام كثير يتعلق بالوجدان وضمير الإنسان، وقد شرحوا ذلـك وبيّنوه، وله جملة ذات مغزىً رفيع كتبت على قبره، أما بوصيـة منه أو حسب اقتراح بعضهم، قال:

((شـيئان يثيران إعجاب الإنسان دائماً. وكلما أمعن التفكير فيهما ازداد إعجابه ، وهما:

١ ـ السماء المملوءة نجوماً المرفوعة فوق رؤوسنا.

٢ ـ الوجدان المستقر في ضمائرنا)).

## الوجدان في نظر علماء النفس

فـي علم النفس، سطروا بحثاً طويلاً عن وجدانيات الإنسان، وبتعبير أنسب: عن (فطريات) الإنسان وما هو موجود فيها. وهذا البحث يعتمد على أمور أربعة:

١ ـ الوجـدان الـراجع إلى: (طلب الحقيقة والعلم) وهل أن الإنسان يحب العلم لذاته ؟ وأنه خُلق مفطوراً على طلب الحقيقة والتحري عنها أوليس الأمر كذلك ؟

٢ ـ مـا يعـبر عنه بـ (الوجدان الأخلاقي): وهل أن الإنسان خُلق مفطـوراً عـلى حب الخير ، وأنه منح وجـداناً يدعوه إلى فعـل الجميل وإسداء الإحسان، أولاً ؟

٣ ـ مـا يعبر عنه بـ ( الوجدان الجمالي)، وهل أن الإنسان بحسب فطرته ووجدانه يتذوق الجمال ويعشقه ويطلبه أولا؟.

٤ ــ ما يعبر عنه بـــ(وجدان الدين والعبادة) وانه هل كل إنسان تدعوه فطـــرته ووجدانـــه إلى اللجوء إلى العبادة والتوجه إلى إلهٍ ما؟ هل الوجدان الإنساني يقضي بوجود إله يستحق العبادة أم لا؟.

إعـــتمد (كـــانت) على مسألة (الوجدان الأخلاقي) وآمن بأن الأخلاق دساتير صريحة وقوانين بينة يمليها الوجدان على الإنسان ويلهمه إياها، وإذا مـــا ســـئل: لماذا يؤثر الإنسان غيره على نفسه؟ ولماذا يطلب الحق؟ ولماذا يرى الذلة والمسكنة أصعب عليه من الموت والتضحية بالدم والروح؟

لأجـــاب: كل ذلك علته وسببه (الوجدان) ولا يوجد شيء آخر سوى قانون (الوجدان) ومعطياته.

**هل المعلومات الذهنية مرهونة للتجارب فقط؟**

ونظـــرية (الوجدان) هذه مبتنية على نظرية أخرى يؤمن بها (كانت) نفسه وفلاسفة آخرون، وتذهب إلى: وجود حقائق غير متوقفة على التجربة.

هـــناك ســـؤال قـــد أثيـــر وهو: هل إن كل محتـــويات الذهن، و كل الـــثروات الفكـــرية والوجدانيـــة المكـــنوزة في الإنسان، مأخوذة من الحس والتجربة؟ وانه لا وجود لها في فطرة الإنسان واصل خلقته، وان الإنسان لا يمكنه اثباتها وتحصيلها الا عن طريق (الحس) فقط؟ ام ان الأمر خلاف ذلك وان هـــناك سلســـلة مـــن الأحكـــام والمعلومات مختمرة في الذهن البشري ومتأصلة في أعماقه ؟

فـــريق من الماضين والمعاصرين يعتقد بأن ذهن الإنسان خالٍ من كل (زاد) وخلو من كل شيء، وما هو موجود فيه إنما اكتسبه عن طريق الحس

وقـنواته، فـالذهن حسب تصور هؤلاء القوم كالمستودع الخلاء، وهو يملأ تدريجياً عن طريق (الحس) وتصب فيه المعلومات عن طريق (التجربة).

وفريق آخر يعتقد خلاف ذلك ، ويقسم المعلومات الذهنية إلى قسمين:

١ ــ قسم هو حصيلة الحس والتجربة والمشاهدة.

٢ ــ قسـم لـه حضـور سابق على الحس ، وهو مودع في أعماق الإنسان وفطرته.

والفيلسوف (كانت) من أعضاء هذا الفريق ويتبنى هذا الرأي.

## العقل العملي والعقل النظري

من المسائل المرتبطة بموضوعنا والمذكور كثيراً في كلمات الفلاسفة المسلمين ، مسألة انقسام أحكام العقل إلى قسمين:

١ ــ أحكام العقل النظري.

٢ ــ أحكام العقل العملي.

والمراد من هذا التقسيم ان للعقل نوعين من الادراك ، فهو تارةً يتعلق إدراكـه بمالـه حظ من الوجود ، أي: بما ينبغي ان يُعلم، وهو بهذا اللحاظ يسمى بالعقل النظري.

وتارةً أخرى يتعلق إدراكه بما ينبغي ويجب إنجازه والقيام به، كالعدل والصدق. وهو بهذا اللحاظ يُسمى بالعقل العملي.

ويلاحـظ هنا أن فلسفة (كانت) تصب في تحليل هذين العقلين ومقدار تأثيـرهما في حياة الإنسان وتصوراته، وقد أوصله التحقيق إلى هذه النتيجة وهـي: ليـس لـلعقل النظري دور يذكر في ذلك ، وان الأساس هو (العقل العملي) لإرتباطه بالوجدان وانتهائه إليه. يقول: إن الوجدان أو العقل العملي

مجموعـــة من الأسس والمبادئ المغروسة في فطرة الإنسان والمودعة فيه، وليســت مأخوذة من (الحس) ومقطوفة من حقل (التجارب). فالأمر بالصدق والـــنهي عـــن الكـــذب مثلاً موجود في فطرة الإنسان سلفاً، وهو يدرك ذلك وجدانـــاً قبل ان تكون له أي تجربة مسبقة عن الصدق والكذب. فلا ارتباط لذلك بالتجربة. وهذان (الأمر والنهي) مطلقان، بمعنى انهما غير مقيدين بما وراء الصدق والكذب ونتيجتهما. فنحن عندما نحث على الصدق في الحديث نذكـــر فوائـــده العائدة على الصادق، كاعتماد الاخرين عليه والاخذ بكلامه. وهـــذا مما يكسبه شخصيّة بارزة ومحترمة. وعندما ننهى عن الكذب، نذكر مضـــاره العائدة على الكاذب. أمّا «كانت» فهو يرى ان الوجدان الاخلاقي لا يلتفت للنتائج مطلقاً، ولا يعنيه امرها[1].

اما العقل، فهو دائماً ينشدُ المصلحة، ويدور حيثما دارت، وأحكامه أبداً مشروطةٌ بها، فلو زالت المصلحة وارتفعت رفع العقل اليد عن حكمه ايضاً، هذا قول كانت فهو ــ مثلاً ــ يأمر بالامانة والصدق ما داما يجلبان مصلحة.

---

(١) جـــاء في كتاب (قصة الفلسفة) عن عقيدة (كانت) في العقل العملي ما نصه:يجب أن نعـــتمد الاســـاس الأخلاقي من باطن النفس بإدراك وبصيرة مباشرة ، يجب أن نجد أخلاقاً عامة وضرورية ويقينية كالرياضيات، ويجب أن نظهر ان العقل الخالص يمكن أن يكون عملياً وأنه يمكنه بطبيعته أن يقود الارادة مستقلاً عن أي شيء تجريبي وأن الأخلاق فطرية فينا ولم تستمد من التجربة.. ص ٣٤٩.

وفـــي ص٣٥٠ يقول: وبموجب هذا القانون الأخلاقي المفطور في نفوسنا يكون العمل فاضلاً وصالحاً، لا بسبب ما ينتج عن هذا العمل من نتائج حسنة أوطيبة أوبما فيه من حكمه ، ولكن لأن هذا العمل قد أدّي وفقاً لهذه الشعور الداخلي بالواجب.

وينهي عنهما ما داما يجلبان ضرراً.

يقـول ــ كانت ــ في هذا الصدد: ان الاخلاقيين انما يعملون خلاف الاصـول الاخلاقيـة احياناً لانهم لا يستندون إلى الهام الوجدان وحكمه، بل يستفتون، "العقل" ويأخذون برأيه. لأن الذي يراعي المصلحة هو العقل دون الوجدان.

الوجدان يحث على الصدق ولو جلب الضرر على صاحبه، وينهى عن الكذب ولو جلب النفع الكثير لصاحبه. وكما يقول حافظ:

* لا أعرف من يتعب قلبي في أعماقي ... أنا صامت وهو في صياح وهتاف.

والله ــ عـند كـانت ــ هو الذي أودع الإنسان مثل هذه القوّة المقننة، وان البشـر مكلفون في حياتهم هذه بالتكاليف الأخلاقيّة، والقوة المتمركـزة فيهم تصدر قـراراتها فيمـا يتعلق بذلك بنحو دائم . وما من إنسان في هذه الدنيا يرتكب عملاً مـنافياً للأخـلاق الاّ وذاق مرارة الندم وقاسى تأنيب الضمير؛ وان لم يشعر بذلك حيـن العمـل لغيـاب العقل آنئذ. إن الذي يغتاب الآخرين ــ مثلاً ــ يكون لاهياً مسـتغرقاً فيما هو فيه، وكذا حال مَن يتشاجر مع غيره، تجده وقد غاب عن ذاته، بحيـث إنـه قد لا يشعر بما يُصاب به من جروح وآلام. ان المغتاب اللاهي يلتذ بفعله ويطرب وكأنه أحرز انتصاراً، وهو في ذلك كالجائع السغب إذ يأكل ما أمامه بـلذة وشراهة، وقد مثّل القرآن الكريم المغتاب بآكل الميتة[1] الذي ما إن ينتبه من سِـنة الغفلة ويثوب إلى رشده حتى يشعر بالاشمئزاز من «ذاته» ويود لو يفر منها ولا يعقـب. ولا يزال يلوم نفسه ويعنفها، وهذا هو عذاب الوجدان المحتوم الذي لا

(١) قال تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً. أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

ينجو منه إنسان، حتى اعتى المجرمين والجناة ــ ولو للحظات من أعمارهم ــ يشعرون بهذا العذاب ويتلوون تحت سياطه ويقاسون وخزَ الضمير، ان السرَّ في ادمان اغلب المجرمين على ممارسة جملة من السلوكيات اللاهية والمغيبة للذات ــ مثل تعاطي الترياك والهيروئين وما يسمى بالمشروبات الروحية وكذا القمار وما شابه ذلك ــ هو الرغبةُ الملحةُ في الفرار من «الذات»، انهم لا يريدون أن يعيشوا معها لانها تسبب لهم عذاباً، كما لو كان داخلهم مشحوناً بالثعابين والعقارب فهي تلدغهم وتعذّبهم بلسعاتها دوماً. ولا ريب أن هذا الادمان ليس الا كالمخدر الذي يحقن به المريض لتخفيف آلامه مؤقتاً دون أن تكون له القدرة على استئصال الداء الذي يعاني منه. وهذا ان دل على شئ فهو يدل على تعاسة هذا الإنسان الذي لا يستطيع بناء ذاته بحيث يسعه ان يخلو بها ويواجهها بدلاً من الهروب منها، فمسرحى لاهل الصلاح والتقوى والأخلاق، ولأولئك الذين يصغون لنداء الوجدان والمتحررين من قيد الادمان الهدّام، الفارّين من كلّ ما من شأنه تغييب ذواتهم والهاءهم عنها، فهم يريدون انفسهم لأنفسهم، لأن عالمهم الباطني اسلم من عالمهم الخارجي ولنقى، فهم فيه يعيشون الطمأنينة والرضى، بخلاف ذلك الإنسان الذي يجعل من باطنة مسبعةً تسرح فيها الوحوش، فأنه دائم الهرب من ذاته متوجساً خيفةً منها وملتمساً ملجئاً ما.

ولنعم ما قال الملا الرومي[1]:

---

(١) هو محمد بن محمد بن الحسين الخطيبي، يلقب بجلال الدين واشتهر ايضاً بلقب «مولانا» أو«مولوي» . ولد بمدينة «بلخ» في السادس من ربيع الأول عام ٦٠٤ هـ.ق وانما لُقب بالرومي لطول اقامته في مدينة « قونية » من بلاد الاناضول وكانت تعرف ببلاد الروم. وهو من اعظم الشخصيات الادبية عند الفرس. من اشهر كتبه «المثنوي» «الرباعيات».

* ابتعد زمناً عن الخلق والناس ، متى تكون ذلك الإنسان الذي يغتبط بنفسه ويُسر.

وخلاصـــة القـــول: ان مَن لا يقدر على الخلوة بنفسه، قد اضاع نفسه الواقعية.

وعطفـــاً على ما سبق، يقول «كانت»: لو لم تكن هذه السلطة الوجدانية في الإنسان لما ذاق مرارة الندم وألم العذاب ولرضي عن افعاله أو لما احس بالقلق على الأقل.

وخلاصـــة القول: ان «الوجدان» الإنساني أمر فطري مطلـــق وغير منوط بالتجربة، وأحكامه ثابتة وضرورية وغير قابلة للإخضاع والمساومة، قد يخضع الإنسان لجبّار ما، لكنه ابداً لا يستطيع اخضاع وجدانه لفعل قبيح واقـــناعه به وان كان الأعتى والأشد إجراماً، فالوجدان لا يحابي أحداً و لا يـــبارك جـــناية أحد، بل هو ثابت القدم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والـــتاريخ اصـــدق شاهد على ذلك، فكم من الجناة الذين جُنُّوا إثرَ ارتكابهم الجرائم المفجعة بحق الإنسانية.

## الوجدان والسعادة

من المسائل التي طُرحت هنا، مسألة العلاقة بين الكمال والسعادة، وانه هل الكمال غير السعادة أوهو عينها وذاتها؟ لهذا السؤال جوابان:

**الأول:** ما ذكره «كانت» من أنّ الكمال غير السعادة، وأن الوجدان إنما يدعو الإنسان للكمال لا للسعادة. وهو يدعي ان الشيء الجميل الوحيد في هذا

العـالم هـو ارادة الخيـر، وهي الارادة التي تنقاد انقياداً مطلقاً للوجدان، وهذا هو الكمـال المطـلوب، سـواء قـدَّم لنا هذا الكمال سعادةً أم ألماً، لان المهم ليس هو السـعادة، بـل هو الواجب، فالوجدان إذاً لا يسعى خلف السعادة ولا يعنيه أمرها، فـالأخلاق عـنده فوق السعادة. لأن السعادة تعني اللذّة. وان كان ليس كلّ لذة هي سـعادة، فاللذّة المعقّبةُ بالألم ليست سعادةً، بل السعادة الخالصة تلك التي لا يشوبها شيٌ من الألام الروحية والجسمية والدنيوية والاخروية، ويقابلها ((الشقاء)).

ومن هنا ينبغي ملاحظة مجموع اللذائذ ومجموع الآلام، فما كان منها اشـدّ تحقيقـاً للـذّة وخلوصاً من شوائب ألالام والشقاء، فهو السعادة، لان السـعادة تعني اللذة الخالصة. ولكن ــ يقول كانت ــ الوجدان لا يبحث عن هـذه السـعادة، بل هو يبحث عن الكمال وان جرَّ الماً وشقاءً. لأنه لا يمكن عبور دائرة الحيوانية والوصول إلى افق الملكوت الا بذلك. فهو يفكك بينهما، وهذا الرأي هو السائد بين مفكري الغرب الى الآن.

**الـثاني:** ما ذكره الفلاسفة والحكماء المسلمون في ابحاثهم الأخلاقية، مـنهم ((ابـن سينا))[١] في كتابه ((الاشارات)) والفارابي[٢] في كتابه "تحصيل

---

(١) هـو ابو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، الملقب بالشيخ الرئيس. ولد فـي قرية «أفشنة» على مقربة من «بخارى» عام ٣٧٠ هجرية ٩٨٠ ميلادية. وتوفي عـام ٤٢٧ أو٤٢٨ مـن مؤلفاته: الشفاء:النجاة، الاشارات والتنبيهات ، القانون في الطب. وللمزيد لاحظ الجزء الثاني من مختارات «عيون الانباء في طبقات الاطباء» ص١٣٢ . فله فيه ترجمة وافية.

(٢)هـو أبـو نصر محمد بن طرفان بن أوزنغ ٢٥٩/٣٣٩هـ المعروف بالمعلم الثاني . منسـوب إلى بلدة «فاراب» من بلاد تركستان. وهو من اشهر فلاسفة المسلمين وقد عـدّه ابـن سينا وابن رشد استاذا لهما. من آثاره: اراء اهل المدينة الفاضلة، تحصيل السعادة. وغير ذلك.

السعادة" وغيرهما، وحاصل ما ذكروه هو:

ان السعادة هي غاية كلّ إنسان، والساعي اليها يسعى إلى كمالٍ ما. لان كل سعادة هي كمال وخير. والكمال سعادة، خلافاً لما يعتقده «كانت» من تغايرهما وانفصالهما وان اعترف باشكالية ذلك من حيث صعوبة وعُسر تلك الأخلاق التي تضع الواجب فوق الجمال والكمال فوق السعادة.

اما الفلاسفة المسلمون فيرون مفهوم «السعادة» ركناً أخلاقياً لا يمكن اغفاله ورقماً مهماً لا يمكن اسقاطه من المعادلة، كما صرح بذلك المعلم الثاني «الفارابي» (في كتابه تحصيل السعادة) وكذلك صاحب كتاب «جامع السعادات» وصاحب كتاب «معراج السعادة»[1].

ونحن هنا نسأل «كانت» هل الإنسان الواصل إلى الملكوت بعد اجتيازه مرتبة الحيوانية، سعيدٌ أم شقيٌ؟ ، والجواب جزماً هو انه سعيدٌ. وهذا يدلّ على عدم انفكاك الكمال عن السعادة. والسعادة المنفكة عنه التي ذكرها «كانت» انما هي السعادة واللذّة المادية الدنيوية، والاّ فالسعادة الحقيقيّة المطلقة لا يمكن فصلها عن الكمال، وحتى «كانت» نفسه لم يستطع فصلها عنه، ونحن مهما فسرنا كلامه بشكلٍ ما فلا مناص من القول بان مراده من «السعادة» هو ما يُطلق عليه قدماء فلاسفتنا «السعادة الحسية» في قبال «السعادة الروحية غير الحسيّة»، لكن حيث ان «كانت» لا يقيم وزناً للعقل النظري، ولم يعتمد على ما نطلق عليه اسم «الفلسفة الالهية» فقد اتخذ من

---

(١) الأول لمؤلفه العلامة المولى مهدي بن ابي ذر النراقي الكاشاني. والثاني لمؤلفه العلامة الشيخ احمد بن المولى مهدي النراقي. وهو مأخوذ من كتاب والده « جامع السعادات ».

«الوجـــدان الأخلاقي» محوراً و منطلقاً لفلسفته، وهو يعتقد بأن مفاتيح كـــل المســـائل المغـــلقة بيد هذا الوجدان الأخلاقي، من قبيل مسألة الدين والحرية والاختيار وخلود النفس والمعاد واثبات وجود «الله» تعالى.

## الوجدان واختيار الانسان

لقـــد آمن «كانت» بأن العقل النظـــري أو ما نسميه «الفلسفة» لا يمكنه اثبات حرية الإنسان، بل هو «العقل» يصل إلى نتيجة معاكسة تماماً، وهي أن الإنسان مسلوب الاختيار والإرادة. ولكننا نستطيع عن طريق الحس الاخلاقي الفطـــري المرتكـــز في باطننا والمعلوم لدينا بالعلم الحضوري[1] والادراك المباشر، أن نكتشف أن الانسان حرّ ومختار، فالإنسان إذا وضع ارادته تحت سلطان الـــوجدان واستشعر الواجب، فسوف يشعر بالحرية شعوراً مباشـــراً إذا مـــا وقـــف موقفَ الاختيار بين سلوكين. ما ذكره «كانت» هنا سبقه اليه آخـــرون، إذ صرحوا بأن الاختيار دليله الحس الباطن دون العقل النظري. يقول «مولوي»:

* إن قولك : إفعل هذا أو ذاك
* هو دليل اختيارك لو كنت تعقل

## الوجدان وخلود النفس

مـــن جملة التساؤلات الملحة التي تواجهها البشرية في طلبها الحثيث لـــلحقيقة، ســـؤال وثيق الصلة بذات (الإنسان) بل إن جوابه يمثّل حقيقة هذا

---

(١) العلم الحضوري يعني إدراك الإنسان لباطنه بشكل مباشر ــ المترجم ــ .

الإنسان. والسؤال هو:

هـل النفس الإنسانية تفنى بموت الإنسان؟ أوهي تنعم بالخلود في عالم آخـر، تسـعد فيه أو تشقى؟. وهذا السؤال تسبب في انقسام فلاسفة الغرب الكبار إلى فئتين، اختارت إحداهما الشق الأول منه، وآمنت الاخرى بالثاني، واليها ينتمي (كانت)، وهو وان أصر على ان البراهين الفلسفية ومنطق العقل الـنظري لا قـدرة لها على إثبات خلود النفس، الا أنه يثبت ذلك عن طريق الوجدان الباطني للإنسان.

بيـان ذلك: أن وجداننا الأخلاقي يدعونا دوما للفضيلة وترك الرذيلة، يدعونا لأداء الواجب الأخلاقي كالصدق والامانة والعدل من جهة. ومن جهة أخـرى نحـن نعلم بأن هذه الأمور لا ثواب ولا عوض عنها في هذه الحياة الدنيا، فالمحسن لا يكافأ فيها على إحسانه، بل هذه الأمور قيود تمنع الإنسان من التمتع بالمنافع واللذائذ الدنيوية[1]، ولولاها لنالت يداه ما لذ منها وطاب، ولكـن عـلى الرغم من علمنا بكل هذا فإننا ما نزال نشعر وجداناً بأفضلية

(١)هـنا يذكـر الشـهيد ــ رحمـه الله ــ نموذجين من (الإنسان) مثّل احدهما الأخلاق والكمـال، ومثّل ثانيهما الدناءة والانحطاط، فعلي (ع) تراه عادلاً منصفاً كريماً يبغض الحيف والاجحاف ويرفض المكر والغش والكذب، وفي المقابل ترى (معاوية) متحرراً من كل ذلك مبيحاً لنفسه شتى الرذائل واقام سياسته على قانون (الغاية تبرر الوسيلة) فهمّه الوصول لأهدافه وان كان ذلك من طريق الظلم وسرقة الاقوات ونهب الاموال. ومـن هـذا ديدنه فهو جزماً المنتصر، اما الإنسان المتمسك باهداب الفضيلة وعرى التقوى، فنصيبه الهزيمة في هذه الدنيا.

ملاحظة: انما ذكرنا هذا في الهامش حفاظاً على تسلسل فكرة (كانت) ورعاية لسلاسة المبك ــ المترجم ــ .

الـتقوى وصـنع المعروف وان اصطدم ذلك بمنافعنا، وهذا الشعور ما كان ليـبقى ويصـمد لولا الإيمان القلبي العميق بان هذه الحياة ليست سوى وجه ظاهـري لحياة أخرى مستورة، يكافئ فيها المحسن ويعاقب المسيء، وتلك الحياة حياة خالدة، إذ لولا خلودها لما كان للجزاء معنى، وإذا وصلنا إلى هنا ــ يقـول كانت ــ فقد وصلنا إلى (الله)، لان الإيمان بالخلود يتضمن الإيمان بوجود (إله) بيده الجزاء والحساب. وخلاصة القول:

انـه من المحال الا يعلم الإنسان بالعاقبة الحميدة لأفعاله الخيّرة. وإن كـل إنسان يؤمن في اعماقه بوجود حياة أخرى للجزاء وان جحدها بلسانه، وهـذا معـلوم لديه بالعلم الحضوري كما عرفت، ولذا تراه لا يترك الصدق والعدل وان جوزي عنها بالاساءة والظلم.

مـن خـلال هذا العرض المختصر تبين لنا أن كانت لا يثق بالفلسفة والعقل النظري بالنسبة لما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)، وانه عوّل في إثبات (الماورائيات) على (الوجدان والعقل العملي) ، فهو واقع تحت سلطة الوجدان ومتأثر به إلى حد كبير ويعلق عليه آمالاً عريضة، وهذا الانفعال يعكسه قوله المـأثور عـنه: بأن في هذا العالم شيئين يثيران عجب الإنسان، وهما: قبة السـماء ذات الـنجوم المتلألئة، والوجدان الإنساني. وهو مغرم جداً بجملة «جـان جـاك روسو»[1] التي يقول فيها: ان شعور القلب فوق منطق العقل.

---

(١) جـان جـاك روسو ١٧١٢ – ١٧٧٨م فيلسوف ومفكر فرنسي دعا إلى تبني الحس الوجدانـي والاصـغاء لنداء الفطرة ورفض فكرة كون العقل هو المرجع النهائي في الحكم على الامور ومن كلامه (نثق في مشاعرنا في الازمات الكبيرة التي تواجهنا لأ

بمعنى أنه قد يدرك الإنسان بوجدانه ما لا يدركه بعقله، وذلك لأن للقلب أسباباً خاصةً به لا يفهمها العقل، كما يقول (باسكال) العالم الرياضي المشهور[١]، إذاً هناك طريق آخر غير (العقل النظري) يوصل إلى الله تعالى وهو طريق القلب والوجدان، ويشار هنا إلى استعمال كلمة (القلب) مكان (العقل) في لسان عرفائنا، ومرادهم منه هو (الوجدان) المطروح هنا. وهذا الوجدان نفسه هو المراد في حديث الإمام الصادق (عليه السلام) مع ذلك الرجل الذي قال له: يا إبن رسول الله، دلني على الله، ما هو؟ فقد أكثر المجادلون وحيروني. فقال (عليه السلام) له: يا عبد الله، هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم. قال: فهل كُسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك ؟ قال: نعم. قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الاشياء قادر على ان يخلصك من ورطتك ؟ قال: نعم. قال الصادق (عليه السلام): فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي وعلى الاغاثة حيث لا مغيث[٢].

---

في حياتنا وفي قضايا الايمان والسلوك ، اكثر من الثقة بعقولنا).

وذكروا أنه كان ذا خلق سام وسلوك رفيع. وهو من الذين حاربوا المادية وكافحوا الالحاد الذي جاء به عصر التنوير في أوربا وقد تأثر (كانت) به تأثراً بالغاً.

(١) رياضي وعالم طبيعة فرنسي ١٦٢٣- ١٦٦٢م وهو أحد مؤسسي نظرية (الاحتمال). ورغم اكتشافاته في العلوم الطبيعية الا انه ذو نزعة شكية موجهة ضد العلم والمعرفة العقلية.

تعد آراؤه المنطقية تكراراً لآراء (ديكارت) ، أهم مؤلفاته (الافكار) وقد طبع بعد وفاته ١٦٦٩م.

(٢) البحار: ج٣، كتاب التوحيد، ص٤١، ح١٦.

## نقد نظرية ( كانت )

لا شك في وجود نقاط مضيئة ومعانٍ عالية في هذه النظرية، ولكن فيها أيضاً نقاطاً قابلة للنقد ، نذكر منها موارد ثلاثة:

### تحقير الفلسفة

١ ــ ازراؤه بـــالعقل النظري أو ما يسميه هو بالعقل الخالص والتقليل من شأنه ودوره في استكشاف ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) ، فهو يؤكد بأننا لا نســتطيع اثــبات شيء من هذه المسائل عن طريق العقل النظري. وهذا اشتباه منه. فنحن ــ وبدون تجاهل لدور الوجدان والعقل العملي أو إنكاره ــ يمكننا إثبات اختيار الإنسان وبقاء النفس ووجود الباري تعالى بواسطة العقل الــنظري أيضاً ، كما أن الأخلاق التي يستلهمها من الوجدان، بإمكان العقل النظري إدراكها ولو من باب التأييد للوجدان.

### فصل الكمال عن السعادة

٢ ــ ما أشرنا اليه آنفاً من فصله الكمال عن السعادة، وهذا خطأ فادح، لمــا عرفت من عدم الانفكاك بينهما، وأن كل كمال هو في ذاته نوع سعادة، وأن الســعادة والبهجة غير منحصرة في اللذة الحسّية. ولو غضضنا النظر عــن هــذه النقطة، فإن سؤالاً يطرح نفسه هنا، وهو: كيف يشعر الإنسان بالمــرارة والندم حينما يتمرد على وجدانه ويخــرج عن طاعته، ولا يشعر بالطمأنينة واللذة حينما ينصاع ويدخل في طاعته؟

بناءً على رأي السيد (كانت) فالإحساس بالمرارة يلازم الإنسان حتى لو كان مطيعاً للوجدان! لأنه نفسه الذي قال بفصله عن السعادة، وهذه النتيجة

يشكل قبولها ويعسر هضمها، إذ كيف يداخلنا الإحساس بالندم وتأنيب الضمير سواء أطعنا الوجدان أم تمردنا عليه ؟ ان هذا لمحال، لان الإنسان إذ يشعر بالندم والحسرة أثر مخالفته لأوامر الوجدان، في قبال ذلك يشعر بالمسرة والبهجة أثر اطاعته له وامتثال أوامره وتلبية ندائه. ومثال ذلك، الشخص الذي يُؤْثِر غيره على نفسه، إذ تعتريه حالة من النشوة الروحية، ويفيض قلبه غبطة وحبوراً كالحديقة المملوءة زهوراً، لأنه يعتبر ما أصابه من كدح ومشقة في سبيل اسعاد الاخرين وهنائهم نوعاً من اللذة والمسرّة التي لا يشعر بها في اللذات الحسية.

وحسناً فعل (أبو علي سينا) في خاتمة (الإشارات) إذ عقد فصلاً خاصاً تحت عنوان (خطأ حصر اللذة في اللذة الحسية) ثم ذكر نماذج عدّة من اللذائذ المعنوية، بل ان علم النفس الحديث يثبت ــ أيضاً ــ عدم انحصار لذّة الإنسان في اللذة الحسية.

اللذة الحسية لذة عضوية مرتبطة بالمحرك الخارجي ، كلذة الطعام والغذاء الحاصلة من المأكول أو المشروب، وكاللذائذ الأخرى الحاصلة من الحاسة الشامة أو اللامسة أو السامعة. وهناك لذائذ غير مرتبطة بالجسم ، كاللذة الحاصلة من فضيلة (الشجاعة) بالنسبة للرجل الشجاع ، فالرجل الحائز على هذه الفضيلة والمتلبس بها، يشعر باللذة حينما يرى يده وقدرته فوق الاخرين، كما أن المحبوب من الناس يُسَرُّ بذلك، والعالم يداخله إحساس بالانتصار والنشوة اثر كشفه عن حقيقة علمية ما. فهذه المسرات لا يد للعوامل الحسية فيها.

مـــن هذا الباب ما يحكى عن الخواجه نصير الدين الطوسي[١] انه إذا استعصـــت عـــليه مسألة ما ثم وفق لحلها وكشف ابهامها، اعترته حالة من السرور والبهجة وقال: أين الملوك وأبناء الملوك من هذه اللذة. كما ينقل عن الســـيد محمـــد باقـــر، المعروف بحجة الاسلام[٢]، أنه ارتأى ليلة زفافه أن يشـــتغل بالمطالعة حتى يحين وقت الزفاف، الا ان استغراقه في البحث أنساه ذلك ، ولم ينتبه لما هو فيه حتى سمع أذان الفجر، واما عروسه المسكينة فقد ظنت انه راغب عنها زاهد فيها مما اضطره لأن يقسم لها بأنه لم يتعمد ذلك، وان الاستغراق في المطالعة هو المسؤول عن تأخره.

والحاصل:

انـــه لا يمكن التفكيك بين مسألة اللذة وبين هذه المسائل الوجدانية. وإذ يلـــتذ أحـــدٌ ما، فلانه نال ما يتمناه. وإذ يتألم ، فلانه لم يبلغ الكمال الواجب بلوغه. فما هو الرائج اليوم في الفلسفة الغربية من التفكيك بينهما، أمر مباين للصواب وغير صحيح إطلاقاً، لأن كل كمال يجلب ـــ قهراً ـــ نوعاً من اللذة للإنسان، ولو أنه عند طلبه للكمال غافل عنها.

**مطلقية احكام الوجدان**

ومـــن هـــنا لـــم يرتض ثلة من فلاسفة الغرب ومفكريه هذه النظرية، وقالوا: ان (الوجدان) ليست له أحكام مطلقة بالقدر المذكور في هذه النظرية.

---

(١) خواجـــه نصـــير الديـــن الطوسي ٥٩٧ – ٦٧٢هـــ أحد عظماء الفلاسفة والحكماء المسلمين، ويعد من مفاخر الشيعة. صنف ما يقارب الثمانين مصنفاً.

(٢) السيد محمد باقر محمد تقي الموسوي، من أبرز العلماء المتأخرين. عُرف بسعة العلم وشدة اهتمامه بأمور المسلمين. ترك آثاراً علمية عديدة.

بل توجد أحكام مطلقة وأخرى مقيدة، فمن الأولى: العدل والظلم. فإن العاقل يحكم بحسن الأول وقبح الثاني بنحو مطلق. ومن الثانية: الصدق. حيث ان الحكم بحسنه لا يتمتع بالإطلاق ، بل هو مقيد بالمبدأ التي تعتمد عليه (فلسفة) الصدق. وقد يحدث ان يفرّغ الصدق من هذا المبدأ فينقلب من حسن إلى قبيح ومن ممدوح إلى مذموم. فما ذكره (كانت) من ان الوجدان يأمر بالصدق مطلقاً بلا رعاية للمصلحة، رأيٌ تعوزه الدقة، والوجدان نفسه يشهد بذلك، فلو ان ظالماً يلاحق رجلاً ما كي يقتله ظلماً وعدواناً استخبر أحداً عنه وعن مكانه ، فبماذا يجيبه؟ ان قال: لا أعلم عنه شيئاً، فهو كذب لا يرتضيه الوجدان (وجدان كانت)، وان أخبره بمكان ذلك المسكين ، فسوف يقتله بغير وجه حق. فهل ترون ــ هنا ــ ان الوجدان يأمر بالصدق مطلقاً أياً كانت النتيجة ؟ لا ريب أن الأمر ليس كذلك. لأن الوجدان لا يرضى أبداً بالظلم وإهدار حق الآخرين ، وهذا حكم مطلق غير مقيد بعدم الكذب. ولذا أجاز الفقه الإسلامي مثل هذا الكذب الحكيم لحكم العقل العملي به، وهذا هو رأي أهل المعرفة والحكمة. وهذه المسألة قريبة الصلة بمسألة الحسن والقبح العقلي المطروحة من قبل المتكلمين والاصوليين. يقول سعدي: الكذب ذو المصلحة خير من صدق ذي فتنة.

هناك حكاية تقول: أدخل احد المتهمين على الملك، فأمر بقتله، وإذ آيس الرجل من الحياة، شرع في سبّ الملك وشتمه، لكن الملك لم يسمع جيداً، فسأل: ماذا يقول هذا الرجل ؟ فقال الوزير: انه يقول (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) [1]، وهنا تدخل أحد الأشخاص ممن كانوا يتحينون

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٣٤.

الفرصـــة للنيل من الوزير كي يتقلّد الوزارة بدلاً منه، فقال: لا ينبغي الكذب فـــي حضـــرة الملوك، ثم التفت إلى الوزير وقال: ان هذا الرجل حقّر الملك وأهانه وأنت تقول إنه قرأ آية من القرآن؟ وظن أنه أصاب الوزير في مقتل. لكـــن المـــلك قـــال له: إن كذبه احسن من صدقك[١]. وإنما نسج سعدي هذه الحكايـــة للتنـــبيه عـــلى هذه الحقيقة. ولا بد هنا من التفريق بين الكذب ذي المصلحة وبين الكذب الذي يجر نفعاً لقائله بغير استحقاق أو يدرأ عنه ضرراً هـــو مستحق له، إذ ان كثيراً من الناس اما انهم يتعمدون الخلط بينهما، واما أن يلتبس عليهم الأمر حقاً. والفرق بينهما هو: ان الكذب ذا المصلحة ، فاقد لروح وحقيقة (الكذب) وحالّة فيه روح (الصدق)، وبعبارة أخرى: هو الكذب الذي تنفذ به الحقيقة ويدفع به الظلم. أما الكذب ذو النفع المذموم فهو ما يراد بـــه النفع الشخصي ولو على حساب الحقيقة، وفرق بين المصلحة والمنفعة، المصـــلحة تدور مدار الحقيقة وترعاها، أما المنفعة فتدور مدار الذات، فهي المـــنظورة حال الكذب، كما هو ديدن ممارسي الكذب، اذ يكذبون سعياً وراء المـــنافع الذاتية ، وهم يدعون انه كذب حكيم جائز، والحال انه كذب مذموم كسائر الاكاذيب.

إلى هنا اتضح ان القبيح ليس هو مطلق (الكذب)، كما ان الحسن ليس هو مطلق (الصدق).

وقـــد اخطـــأ جماعة من (الزردشتية)[٢] اذ عابوا على (سعدي) قوله

---

(١) ما في (كلستان) يختلف عما ذكر المؤلف في بعض التفاصيل.

(٢) الزرادشتية ، ديانة منسوبة إلى الزرادشت أو «زراتشترا» وهو رجل فارسي عاش قبل المسيح بقرون ، وقد سن سنة أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الايرانية لله

السالف الذكر واعتبروه معلماً لمساوئ الأخلاق، وبهذا العذر منع المستعمرون الانجليز قراءة كتب سعدي وتداولها في المدارس الهندية التي اسسوها تحت اشرافهم كما ذكر ذلك احد فضلائنا، وكأن قلوب الانجليز تقطر دماً على الشعب الهندي وتعليمه، بحيث لا يريدون ان يكذبوا وان كان في ذلك مصلحة! لكن اهل النظر سرعان ما أدركوا سرّ هذا المنع، وهو ان سعدي كتب في مقدمة (كلستان) بيتين من الشعر لا يعجبان الانكليز، قال:

* ايها الرب الكريم ! انت ترزق من خزانة الغيب اليهود والنصارى

* فكيف تحرم محبيك من فيضك وانت تشفق حتى على أعدائك ؟

وهما يتضمنان ان المجوس والنصارى أعداء لله تعالى ، وهذا لا يعجب الانكليز بطبيعة الحال.

والخلاصة: ان الحكيم المجرب يدرك ان الصدق قد يفقد في بعض الموارد الحسن ويُفرغ من المصلحة، وان الكذب قد يكتسب في بعض الحالات سمة الحسن وتنعدم مفسدته، واما الحكم بشيء بدون تجربة مسبقة كما يفعله البعض، فلا يؤدي الى مطابقة الواقع، فمن لم يجرب «الصدق» في حياته وجبل على الكذب لو سألناه: هل تكذب اذا اقتضت المصلحة ذلك؟ لاجاب بدون تردد: كلا، لا يجوز الكذب مطلقاً. فهو لانه لم يجرب

---

❖ وما والاها اكثر من الف عام قبل الاسلام. وأتباع هذه الديانة يُسمون في اللغة العربية بإسم (المجوس) وهو معرب كلمة (مكوسيا) وهي لفظة بهلوية. وتُعرف في الفارسية الحديثة باسم (مغ) وهو لقب كان يُلقب به رجال الدين في ايران قبل زرداشت وقد تسرب كثير من عقائدهم الى الديانة الزرادشتية. وكتاب زرادشت الديني يسمى "افشتا" وهو في معظمه أشعار باستثناء الاحكام والنسك الدينية فأنها بالنثر.

«الصـــدق» اصـــلاً، لا يخطر بباله انه قد يكون ذا مفسدة. بخلاف الممارس للصـــدق، فهو يدرك روح الصدق، وانه انما يصدق للمصلحة، فاذا اقتضت المصلحة ان لا يصدق، اخذ بها، ولذا أجاز الفقه الاسلامي الغيبة والكذب في موارد معينة رعايةً للمصلحة. (بينما أكد على حرمة الكذب في بقية الموارد لا ســيما ما أُريد منه القاء العداوة والبغضاء بين الناس. ولهذا حرص الدين الاسلامي على إبعاد المسلم من الكذب وممارسته، بل حتى عن مجرد التفكير فيـــه ، فعـــن امير المؤمنين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) [1].

فاستقامة اللسان امر ضروري لاستقامة القلب الذي هو محل الإيمان، وان احـــرجـــتك بعـــض المواقف فبالامكان استعمال ما يسمى بالتورية في الاصـــطلاح الفقهي، وهي ان يكون كلامك مطابقاً لما تصورته انت، لا لما افترضه الطرف الاخر، مثلا: لو سُئلت: هل رأيت فلاناً ؟ وكنت قد رأيته فعلاً، فبالامكان ان تقول في الجواب: لا، ولكن يكون قصدك شيئاً آخر غير (فلان) المسؤول عنه. وينبغي عدم ممارسة الكذب المذموم المحرّم بإسم التورية كما يصنع بعض الإفراد فإن ذلك استفادة غير مشروعة ويجب الاحتراز عنها.

## نظرية «الجمال» في الأخلاق

يوجـــد فريق من العلماء يعتبر الأخلاق من مقولة الجمال. وقـــد يظن البعض انه حتى لو علمنا بأن الأخلاق من أي مقولةٍ هي، فهذا العلم لا فائدة فيـــه مـــن الناحية العملية والتربوية الاجتماعية، بل المفيد هو التخلق العملي

(١) نهج البلاغة: خطبة ، ١٧٦.

والتحلي الفعلي بالأخلاق الفاضلة، اما التعرف على مقولة الأخلاق فهو بحث علمي صرف ليس غير، تماماً كالسؤال عن (القرمة)[١] وانها بالغين أوبالقاف؟ فأجاب المسؤول وقال: ليست باحدهما، بل تكون باللحم والسمن!

الا ان هذا الظن بمعزل عن الصواب، فإن معرفة كون الأخلاق من أي مقولة وأنها من مقولة واحدة أو من مقولات شتى، لها تأثير كبير في تكميل أخلاق المجتمع وتنميمها، كما ان ذلك يرشدنا إلى نقطة البداية الواجب الانطلاق منها، وذلك يختلف باختلاف الافكار. فمن يتبع الفكر الهندي والمسيحي مثلاً يرى أن إشاعة الأخلاق الفاضلة في المجتمع ونشرها يكون عن طريق تكثيف أحاسيس الحب وتنمية مشاعر العاطفة، وإزالة عوامل العداوة والتناحر والبغض. ومن يعتقد بأن الأخلاق من مقولة (العلم) مثل (سقراط) وأمثاله، يرى أنه يجب تعليم الفرد وتثقيف المجتمع الانساني وإخراجه من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم والمعرفة، فإذا صار المجتمع متعلماً ومتنوراً، فهذا العلم أخلاق، والتعليم هو التربية عيناً.

ومن يحذو حذو ارسطو فهو يقول: العلم وحده غير كاف ، بل لابد من تقوية الارادة أيضاً ، فهو يرى شيئاً آخر.

كما ان من يعتقد بإعتماد الأخلاق على الوجدان الفطري الإنساني يذهب إلى وجوب اسكات النداءات المخالفة لنداء الوجدان حتى يتسنى سماع ندائه والإصغاء له، ففي باطن كل إنسان منادٍ مقدس للأخلاق، يدعوه لعمل الصالحات واقتفاء الحسنات، وينهاه عن اجتراح السيئات وارتكاب قبائح الاعمال، ولكن ما دامت هناك ضوضاء ولغط فلن يتمكن الإنسان من

---

(١) (القرمة) ، كلمة تركية يراد بها اللحم المقطع قطعاً صغيرة.

الاستماع لنداء وجدانه، كما لو أن واعظاً ينطق بكلمات الله ويفسرها لنا، فما لم ينعم المكان بالهدوء والسكوت لن يُفهم ما يقوله ذلك الواعظ الفهم الصحيح. ومثل هذا يأتي في الابصار، فالرؤية الواضحة الجلية مشروطة بعدم وجود غبار وظلمة ونحو ذلك من الموانع والسواتر والا لن يتمكن من الابصار. يقول سعدي :

* إن الحقيقة تضيع إذا ثار غبار الهوى كما يضيع جمال المنزل اذا عمه الغبار.

* الا ترى أن العين لا تبصر شيئاً في المكان المغبر؟ فكيف اذا كان الإنسان أعمى !

* انت ما دمت تفتح فاك حرصاً وطمعاً فلن تسمع اذن قلبك سر الغيب.

واما من يعتبر الأخلاق من مقولة الجمال فيقول: لا بد من زرع الحس الجمالي في البشر، لأن البشر اذا احسوا بجمالية الأخلاق الكريمة العالية فإنهم سيقلعون عن الكذب ويرتدعون عن الخيانة، فالعلة في كذب البعض هي عدم ادراكهم لجمال الحقيقة والصدق، كما أن سبب الخيانة هو عدم إدراك جمال الامانة وحسنها، وعليه: يجب خلق الذوق الجمالي وتنميته في الفرد كي يدرك الجمال العقلي والمعنوي كما يدرك جمال المحسوس.

والحاصل: ان لهذا البحث أثراً عملياً، يُضاف الى ذلك انه ما لم نشرح ذلك بنحو دقيق ونطلع عليه فلن نستطيع التعرف على نظرية الاسلام في (الأخلاق).

## ما هو الجمال ؟

كيــف يمكن تعريف الجمال؟ وحسب اصطلاح المناطقة ما هو جنسه وفصله؟ من أي مقولة هو؟ هل هو من مقولة (الكم)؟ أومن مقولة (الكيف)؟ أومــن مقولــة (الإضافة)؟ أومن مقولة الانفعال؟ هل هو جوهر أوعرض؟ وبنظر الكيميائي والمادي، من أي شيء يصنع ؟ فهل يمكن تحديد وتشخيص العناصــر المادية للجمال كما هو شأن الأمور المادية عندما تخضع للتحليل الكيميائي، أو لا يمكن ذلك؟

هــذه الاســئلة المتلاحقة لم تر إلى الان جواباً لها من احد ، بل يعتقد الــبعض ان لا جــواب لهــا أصلاً، بإعتبار ان أجلى حقائق العالم هي تلك الحقيقــة التي لا يصح السؤال عنها بكيف هي؟! فالجمال لا يمكن أن يعرّف وتبيّن ماهيته، وقد قال العلماء في مبحث الفصاحة والبلاغة وهي من مقولة (الجمال) قالوا: لا يمكن تعريف الفصاحة تعريفاً حقيقياً لأنها (مما يدرك ولا يوصف).

فــنحن عــندنا أشياء كثيرة في هذه الدنيا يمكن ادراكها ولكن لا يمكن تعــريفــها، ومــن تلك الاشياء (الجمال)، هذا وقــد ذكــر (افــلاطون) ان الاخلاق من مقولة الجمال. وقد ذكر تعريفاً للجمال، مفاده:

«انــه تناســب الاجزاء مع الكل»، فكما انه اذا اتسقت اعضاء الجسم الانســاني وتوافقت قسماته صار جميلاً ومليحاً، كذلك «الروح الانسانيّة» اذا هُذبت ورُبيت بحيث تتوازن قواها وقابلياتها ويعطى كلّ جنبة من جنباتها حقه بدون زيادة ولا نقصان، فستصبح ايضاً جميلة وعظيمة.

فالجمـــال الـــروحي عـــنده هو تعادل الاخلاق والقوى. وهذا امره بيد الانسان نفسه، فجمال او قبح صورته الظاهريّة ليس باختياره، بل هو يصور كمـــا يشاء الله تعالى في بطن الام. فيخرج الى هذه الدنيا وقد قُضى القضاء بالنسبة لجسمه من تفاصيل وطول ولون.. ولكنه خلاف ذلك بالنسبة لصورته الباطـــنية وروحه،فان هذه الدنيا هي مكان بناء الروح وتصويرها بالصورة الـــتي يخـــتارها صاحبها. وكما يقول الملا صدرا: الدنيا للروح كبطن الام للجنين. فالانسان بيده جمال روحه وقبحها.

## نقد تعريف افلاطون للجمال

وكيـــف كان، فما ذكره افلاطون من وجود قوى متعددة في الانسان لا غـــبار عـــليه. ولكن يعاب على تعريفه للجمال بان «التناسب» في نفسه امر نســـبي يختـــلف من شيء لاخر. ولا يمكن ضبط هذه النسبيّة لتطرد في كل شيء. فليست هي كنسبة الاوكسجين والهيدروجين اللازمتين للماء.

ومن هنا فالجمال عاص على التعريف، فهو كالقوّة الكهربائية، لا يمكن تعريفه وان لم يُشك في وجوده.

## هل الجمال مطلق او نسبي؟

هذا هو السؤال المطروح هنا، وبصيغة اخرى:

هـــل الجمـــال ــ واقعاً ــ حقيقة واحدة لا يختلف باختلاف الانظار، فـــالجميل جميل في نفسه وان لم يدرك احد جماله؟ فيكون من قبيل «وجود» الموجـــودات، فـــان قمّة جبل «دماوند» مثلاً موجودة وتظل برأسها على مَن حولها، سواء ادرك احد وجودها ام لا.

او ان الجمـــال رابط خفي بين المدرِك والشيء المدرَك؟ وهذا الرابط

يختـلف من شخص لاخر، فرب انسان يرى معشوقه باهر الحسن والجمال، بينما لا يراه الاخرون كذلك، كما هو حال مجنون ليلى، فقد اطارت لبّه عشقاً وهيامـاً وصـار قلبه بحبها متيماً وبدونها ميتماً، فلا تكاد تقرأ شعراً له الا ورأيـت ليـلى فيـه، حـتى ان حاكم زمانه وقع في خَلده انها تحفة زمانها وحوريّـة ارضها، لكن عندما اتوا بها من البادية وجدها امرأة سوداء البشرة ولا فتنة فيها، ولكن.. الحب يعمي ويصم، يقول الشاعر:

* قال أحدهم يوماً لمجنون ليلى، إبحث عن جمال أجمل من جمال ليلى.
* فرغم انها في عينيك حورية إلا ان كل شيء عندها فيه عيب.
* اضـطرب المجـنون مـن كلامـه إلا أنه ضحك وقال له: إنك ترى خصـلات شـعرها وانا ارى تموجاته وانك ترى طرفها وانا ارى سحر اشاراته. واذا قعدت في عيني لن ترى غير جمال ليلى.

والشـاعر في هذه المقطوعة يقرر نسبية الجمال، وهو كأنه يقول: ان العشـق هو خالق الجمال في المعشوق، لا ان الجمال سبب العشق كما يعتقد الـبعض. فالعاشـق إذا عشـق شيئاً ما، رآه جميلاً بديعاً. وان لم يكن كذلك واقعاً. وهذا إفراط، إذ لا يمكن انكار وجود جمال في الخارج بنحو كلي، فهو حقيقـة ثابتة سواء كان هناك عشق أم لم يكن، فهو ليس مخلوقاً للعشق. ولا نـرى ضـرورة تدعو للتحقيق في ان الجمال امر مطلق أو نسبي بعد ثبوت وجـود شيء خارجاً إسمه (الجمال) سواء أدركه الإنسان أم لم يدركه، شأنه في هذا شأن الموجودات الخارجية فقمة (دماوند) مثلاً لها وجود سواء أدركه مدرك أم لا.

## جاذبية الجمال

النقطة الثالثة اللازم ذكرها كمقدمة لبحثنا هي ان الجمال توأم للجاذبية والعشـــق والمـــدح، فأينما وجد الجمال وجدت معه قوة جاذبة وروح عاشقة وطالـــبة له، فالجمال علّة الطلب والحركة، وحتى الفلاسفة الالهيون يعتقدون بـــان كافة حركات هذا العالم بما فيها الحركة الجوهرية التي تجعل من قافلة عـــالم الطـــبيعة موجـــوداً واحداً ذا حركة وليد العشق، وعلى حد تعبيرهم: كتحريك المعشوق للعاشق وتحريك المعلل للمتعلل. فالميل والانجذاب موجود فـــي تمـــام ذرات العالم ، ويطلق الفلاسفة عليه (العشق) وفي هذا الموضوع توجد بحوث كثيرة في محلها.

## جمال العالم

يخـــطئ مـــن يعتقد بإنحصار الجمال في الوجه الحسن لإنسان ما، إذ فضلاً عن اختلاف الانظار حتى في هذا النوع من الجمال من شخص لآخر، فـــإن عالم الطبيعة مليء بآلاف الانواع من الجمال، فعيوننا يسحرها جمال الاشجار الباسقة والجبال الشاهقة والسموات المرفوعة بنجومها فوق رؤوسنا، وعيوننا يأسرها بهاء الفجر واشراق الشمس وخلابة الغروب والشفق، وكذلك نشـــمه عطـــراً فـــي الزهور الجميلة ، نعم ربما يدرك البعض رائحته فقط فيولونـــه من الاهمية بقدر ما يدركون منه. وأما أولئك الذين يبصرون جماله ورونقـــه، فهم يشعرون بما هو أكثر وبالتالي يولونه من الاهمية قدراً أكبر، لأن لكـــل حاسة جمالاً خاصاً بها تدركه، وما تستعذبه حاسة ما فهو جميلها ومعشـــوقها. وهـــذا الجمال المحسوس مدرك من قبل الاكثرية الساحقة من

الافـراد. فـلا يـتوهم متوهم بأن الجمال مقصور على (الجنس) والوجوه النضرة، فليس الجمال حكراً على ذلك أبداً كما يعتقد ذوو الادراك المحدود ، الذيـن مـا ان يسمعوا كلمة (جمال) أو(جميل) حتى تقفز اذهانهم إلى جمال المرأة وما يرتبط بحسنها.

## الجمال المعنوي

لا ريب في ان غالب الافراد يدركون محسوس الجمال وظاهره، ولكن هل يوجد جمال آخر غير محسوس لنا بالحس المادي؟

نعم، يوجد جمال معنوي هو أرقى من الحسي. وهذا الجمال تجده ماثلاً فـي الصـور الخياليـة التي يرسمها الذهن البشري، فإن لها جمالاً يدركه متخيـلها، وتجده أيضاً في الكلام الفصيح البليغ، فإن للفصاحة والبلاغة جذباً لا يقاوم وجمالاً لا ينكر ، فهذا (سعدي) رغم مرور سبعمائة سنة على وفاته. الا ان اشـعاره وحكمه ما زالت حية في القلوب والوجدان، تكررها الالسن وتشنف بها الاذان.

وسـر ذلـك ليس هو جمال اللفظ فقط، بل روح تلك الالفاظ ومعانيها العالية الأسرة. وهذا ينطبق أيضاً على شعري (حافظ ومولوي) اللذين يطفح شـعرهما بالجمال المعنوي الخيالي الرفيع الساحر، بحيث انه قد يذهل المرء عـن نفسـه نشوةً وانجذاباً ، كما حدث للاديب النيسابوري[1]. ـ وهو من

---

(١)هـو عـبد الجـواد بـن المـلا عـباس ١٢٤٢ – ١٣٠٥ هـ . ش يعرف بالاديب النيسـابوري، صرف همته في دراسة الادب لا سيما الادب العربي، تتلمذ عليه جملة من الادباء المعاصرين. نظم الشعر باللغتين الفارسية والعربية.

الادبـــاء المبرزين وانا لم أره، لكني رأيت صورته، وهو حوزوي قديم عليه ســيماء العلماء، كان أديباً فذاً قليل النظير كما كان شاعراً ــ فقد قرأت عنه فـــي أحـــد الكـــتب انه قال: هناك شعر سحرني وافقدني شعوري مرتين في حياتي، وهو شعر غزلي لحافظ يقول فيه:

* اني شاكر لذلك الرفيق المحبوب وان كنت عاتباً
* واذا انت من اهل العشق فاصغ لهذه الحكاية..
* كل ما عملته كان بلا اجر ولا منة مني
* ولكن ارجو من الرب العلي الا يبخس المخدوم خادمه.
* ان العـــارفين بـــالله العطاشى لا يسقيهم احد ماءً لأن غير الواصل العارف لا يدرك حاجة العارف.
* والمرشد العرفاني الذي يملك ماء المعرفة ليس موجوداً وكأنه غادر هذا البلد.
* فـــي هـــذا الليل الا ليل ضاع طريق المقصود فابرز من مكمنك يا كوكب هدايتي لتدلني على طريقي الضائع.
* اني في هذه الظلمة كلما سلكت طريقاً ازددت وحشة
* فيا ويلي من هذه الصحراء وهذه الطريق التي لا نهاية لها.
* ترى متى اصل النهاية وارى المحبوب
* وانا ارى في البداية مئة الف عقبة وعقبة،
* لا يعلقن قلبك المتيم بالظفائر فانها كالحبال
* الا ترى العاشقين قطعت رؤسسهم بلا جرم ولا جناية ؟.
* لقد سفكت نظرات عينيك دمي وقد رضيتَ بذلك.

* يا روحي ليس من العدل حماية سافك الدماء.
* يا شمس الصالحين ان قلبي يحترق شوقاً .
* فهب لي ساعة اكون في ظلك كي استمتع ببرد حبك.
* انت وان أرقت ماء وجهي ، الا اني لن ابرح بابك.
* لان جور الحبيب لذيذ لمن يدعي العشق والهيام.
* لقد أضناني حبك.
* واذا كنت مثل (حافظ) امكنك ان تقرأ القران باربعة عشر طريقا.

اجـــل، لقد غرق هذا الاديب في هذا الجمال المعنوي الآسر ، وحلقت روحـــه عالياً مع تلك المعاني اللطيفة، ولكن لو أراد عارف ان يترنم بأشعار حـــافظ فهـــو لن ينتخب هذا الغزل حتماً، بل سينتخب له غزلاً عرفانياً كهذا الذي يقول فيه (حافظ):

* منذ اعوام والقلب يطلب منا كأس جمشيد، ويتمنى من الغرباء ما هو موجود لديه.
* انه يطلب الجوهرة التي لا توجد في صدف عالم الكون والمكان من الذين لا يدلون شاطئ البحر.
* حملت مشكلتي الى المرشد العارف كي يحل اللغز بالمدد الالهي.
* فرأيته جذلان باسماً وبيده قدح الخمرة وكان ينظر في مرآتها مئات التجليات.
* قـــال لي: ان ذلك الرفيق الذي عُلق رأسه في المشنقة، كان جرمه اذاعة الاسرار.

## فصاحة القرآن

ولماذا نوغل في الطلب ونأى؟ وهذا القرآن نصب اعيننا وبين ايدينا. ان مـــن أسرار اعجازه فصاحته ونغمة آياته وسلاسة الفاظه وجمال سبكه. أجل، ان القرآن الكريم صاغ معانيه المتفاعلة مع وجدان الإنسان والنافذة إلى اعمـــاق روحـــه في قوالب ذات رنين خاص، يتردد في عقل المستمع وقلبه وكأنـــه صادر من ضميره ومن أعماقه، وما القرآن الا مذكر فقط كما يعبر القـــرآن عـــن نفسه، ان النهج الآسر للقرآن هو الذي يستمطر الدموع رهبةً وخشوعاً، وهو الذي يجعل اصحاب القلوب النقية **﴿يخرون للاذقان سجداً ...﴾** بل **﴿ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾**[1] ان جمال الاسلوب وصدق المعنى القرآني وصفائه، يجعل المخاطَب الواعي ينقاد للحق طوعاً أو كرهاً **﴿واذا سمعوا ما أُنزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾**[2].

## جمال كلام علي (ع)

ان مـــن العوامـــل الظاهرية التي ساهمت في تخليد اسم علي ــ عليه الســـلام ــ وابقـــاء الافواه معطرة بذكره، هو ذلك الجمال الخلاّب لكلامـــه ــ عـــليه الســـلام ــ . فرغم ان بني امية اخذوا عليه اقطار الارض وافاق

---

(١) الاسراء آية: ١٠٩.

(٢) المائدة آية: ٨٣.

السماء على حدّ تعبير السيدة زينب ــ ع ــ[1] ورغم انهم لم يدخروا وسعاً في النيل من مقامه الشامخ والحطّ من شرفه الباذخ، الاّ انه ــ عليه السلام ــ ما ازداد الا تألقاً ورفعةً، وما زال كلامه درةً يتيمةً ومنبعاً ثرّاً للحكمة والبلاغة والجمال، وكتابه «نهج البلاغة» شاهد عدل على ذلك، وهو حقاً اسم على مسمى ولفظ وافق المعنى، يعترف بذلك المخالف قبل المؤالف. وكلُّ بليغ جاء بعده ــ عليه السلام ــ فمن عذب منهله ارتوى، حتى أولئك الذين لا يقيمون علاقات طيبةً معه ــ عليه السلام ــ عندما يُسألون: كيف تصبحتهم في المكان الرفيع من الفصاحة؟ يقولون: اننّا نستظهر مائةً من خطبه ــ عليه السلام ــ ، وبهذا نكتسب هذه المَلَكة، ومن هؤلاء «عبدالحميد» وهو احد الكتّاب الايرانيين المعروفين بالحذاقة والمهارة في فنّ الانشاء، حتى قيل: (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) وهو من حاشية آخر خلفاء بني امية المعروف بمروان الحمار. وهو ممن لا يميلون لعلي ــ عليه السلام ــ حسب الظاهر، والحاصل ان عبدالحميد هذا لما سألوه: كيف تعلمت فنّ الكتابة وامسكت زمامها؟ قال: علمني ذلك حفظ كلام الاصلع، اجل، حتى خصوم علي ــ عليه السلام ــ لا يملكون الا ان يستظهروا خطبه ويستعينوا بكلامه، لانه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

---

(١) هذا التعبير ورد في خطبتها في مجلس يزيد بالشام. قالت: اظننت يا يزيد حيث اخذتَ علينا اقطار الارض وافاق السماء فاصبحنا نُساق كما تُساق الاسارى، انّ بنا على الله هوانا وبك على الله كرامةٌ..» ولم اجد هذا التعبير في مورد آخر. ــ المترجم ــ .

## شبهة وردّ

لقد دأب شانئوا علي ــ عليه السلام ــ على سلب محاسنه واعارتها مجاناً لغيره، ولم يرق لهم ان يكون «نهج البلاغة» له، فادعوا أنه من آثار الشريف الرضي[١] وهذا كلام فارغ لا يسنده دليل. لأن المسعودي[٢] المؤرخ المعروف والمعتمد من قِبل الجميع، (وهو غير معلوم التشيع، وحتى لو قيل بتشيعه فليس ذلك بالمعنى المعروف للتشيع في عصرنا، بل بمعنى الميل والحب فقط أو حتى بمعنى عدم العداوة) ذكر في كتابه «مروج الذهب» المدون قبل عهد الشريف الرضي بمئة عام مقاطع من كلامه وشيئاً من قصار جمله تحت عنوان ( ذكر لمع من كلامه واخباره وزهده)، وذكر أيضا أنه توجد في عهده «٤٨٠» خطبة مستظهرة تتداولها الألسن، والحال أن مجموع الخطب الواردة في «النهج» هو«٢٣٩» خطبةً فقط، وهذا يعني ان السيد الرضي دوّن اقلّ من النصف![*]

---

(١) الحسن محمد بن احمد الطاهر ذي المنقبتين بن الحسين بن موسى بن ابراهيم المجاب بن الامام الهمام موسى الكاظم (ع). ولد في «بغداد» سنة ٣٥٩هـ وتوفي سنة ٣٩١هـ . من فطاحل الشعراء وفرسان الادب ومشاعل العلم. من آثاره: حقائق التأويل في متشابه التنزيل، المجازات النبوية، مجموعة رسائل، ديوان شعر وغيرها.

(٢) ابو الحسن علي بن حسين المسعودي، ت (٣٣٦). مؤرخ مشهور، اشهر مؤلفاته «مروج الذهب ومعادن الجوهر» لاحظ ج٢ ص ٤١٩. ــ المترجم ــ

(*) يقول الشريف الرضي في هذا الصدد: ( ولا أدعي ــ مع ذلك ــ أني أحيط بأقطار جميع كلامه ــ عليه السلام ــ حتى لا يشذّ منه شاذ و يندّ منه نادٌ، بل لا ابعد ان يكون القاصر عني فوق الواقع إليّ، والحاصل في رقبتي دون الخارج من يدي، وما عليّ الاّ بذل الجهد وبلاغ الوسع) النهج ص٩ تحقيق د/صبحي الصالح. ــ المترجم ــ

وعـــوداً عـــلى بـــدء نقول: ان مثل الشعر ، الفصاحة، البلاغة، النثر الـــراقي ، كل ذلك يتمتع بجمال معنوي خاص لا تصل اليه أدوات الاحساس المادية ، لأنه مرتبط بذهن الانسان، وعلينا أن نخطو خطوةً أكبر لنخرج من مضيق المحسوس إلى افق أرحب وجمال أرقى.

## جمال المعقول

بعد تجاوز الجمالين الحسّي والمعنوي، نصل الآن الى جمال آخر وهو جمـــال المعقـــول، وهـــو جمـــالٌ لا يدركه سوى العقل دون الحواس والقوّة المتخيـــلة، ويُسمى اصطلاحاً بالحسن العقلي ويقابله القبح العقلي، وهذا هو مـــورد المســـألة المعـــروفة عند متكلمي الشيعة والمعتزلة وفقهائهم بمسألة (الحسن والقبح العقليين) وحاصلها: أن أفعال الإنسان قسمان:

١ ــ أفعال ذاتية الحسن والجمال ، تبعث على الإكبار والاعجاب.

٢ ــ أفعـــال طبيعية يمارسها الإنسان في ادوار حياته ولا بريقَ لها. فمن الأولى الايثار والتضحية، فَمن الذي لا يُكبرُ مَن يتكبد المشاق في سبيل إسعاد الاخرين وهنائهم؟ انه تعالى اكبرَ ذلك في شخص رسوله الكريم، قال جـــل ذكـــره: **﴿لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**[1] فالآية الشريفة هنا في مقام المدح والثناء على هذا الموقف الأبوي.

وهـــذا الحسن الذاتي، هو مناط اخلاقية الفعل البشري وتميزه، ولـــذا ــ بناءً على نظرية الجمال المعنوي ــ ينبغي أولاً إيجاد الأرضية الملائمة

---

(١) التوبة، آية: ١٢٨.

كي يدرك الأفراد الجمال المعنوي للافعال، جمال التضحية والاستقامة والعدل والعفو والعلم والصبر والجود... الخ، لأن ادراك هذا النوع من الجمال وتذوقه ، كفيل بجذب الافراد نحو السلوك السوي وتجذير الاخلاق الحميدة، وهذا يعني نفورهم من اضدادها لإدراكهم قبحها وزيفها، فالكذب سيُرى شيئاً عفناً، والغيبة ستُرى جيفةً نتنةً، كما هو حال أولئك الثلة الذين هذّبوا نفوسهم وارتقوا باخلاقهم بحيث تنفُر بطبعها من الرذائل وتعشق الفضائل وإن كلّفهم ذلك غالياً. فعلينا اذن ان نجتاز سطح الحس والمحسوس لنصل الى عمق المعنى والمعقول، ولا ننسى انّ الفكرَ هو حقيقة الإنسان، فمتى ما استقام استقام، ومتى ما اعوّج اعوّج.

وقد تقول ما هو السبيل للإرتقاء بالذوق كي يدرك مثل هذا الجمال؟

ونقول لك: ليس هناك ما يعيق الإنسان عن هذا الهدف، ومستسهل الصعب يدرك المُنى، وسبيل ذلك هو التربية الموجهة والمجاهدة المتبصرة، ولقد رأينا في حياتنا جماعةً تزينت بجميل الخُلق وترفعت عن سفاسف الامور وهجرت محسوس اللذائذ طراً، وأنِست بذكر الباري تعالى والتذت بعبادته وهداية العباد إليه تعالى، يعبدونه حباً وعشقاً لذاته المقدسة لأنهم ادركوا جمال اهليته للعبادة، ولم يبتغوا من وراء ذلك نفعاً يجلبونه أو ضراً يدفعونه، فحتى لو آمنهم تعالى من عذابه إذ عصوه أو حرمهم ثوابه إذ اطاعوه، لما عصوه آمنين، ولما تركوا طاعته متذمرين. ولا ريب انّ مَن هذا حاله، فهو متخلقٌ باخلاق ذلك «الجمال» المطلق كالعدل والاحسان، ومتنزّهٌ عن اضدادها كالظلم والبغي، وصدق الله تعالى اذ يقول: **﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ويَنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي**

**يعظكم لعلّكم تذكّرون**﴾[١] وكيف كان ، فهذا شيءٌ مما ذكره متكلموا الاسلام وفقهاؤه في مبحث الحسن والقبح العقليين.

## نظرية افلاطون

يرى «افلاطون» ــ وخلافاً لما تقدم ــ أن الفعل في حدّ ذاته لا يتصف بالجمال، بل الجميل هو «الروح»، وهو يستمد جمالَه ورونقه منها كما يستمد القمرُ ضوءه من الشمس، وبهذا تكون الاخلاق المرضيةُ عبارةً عن انعكاسات للروح الراقية وإن كان الامر ــ بدواً ــ عكس ذلك. كما أنه يرى أن «العدالة» هي أسّ الاخلاق وعمودها، والعدالة تساوي الجمال.

رغم أنه ذكر ان البشر يدركون حقيقة الاركان الثلاثة ــ العدالة، الجمال، الحقيقة ــ الاّ أن أيّاً منها غير قابل للتعريف. لكنّه مع ذلك ذكر للعدالة تعريفاً ناقصاً ، فقد ذكر انها عبارة «عن تناسب الاجزاء مع الكل».

كما انه عرّف «العدالة الاجتماعية» فقال: العدالة الاجتماعية هي أن يعمل كلُّ فردٍ ويؤدي وظيفته بقدر طاقته، وبمقدار ما يعمل وينجز يأخذ مقابله، وينبغي ان يكون ذلك حال افراد المجتمع كافّةً، حتى تحصل المساواة وتتحقق العدالة فيما بينهم، فلا يبذل فردٌ اكثر من طاقته، وآخرُ اقلّ من طاقته، أو تُعطى ثمرة العامل للخامل، وإلاّ اصبح المجتمع غير عادل، والمجتمع غير العادل مجتمع غير راقٍ وغير سامٍ، ومجتمع هذا حاله غير مؤهلٍ للبقاء. ويتابع «افلاطون» حديثه عن «العدالة» فيقول:

الاخلاق هي حفظ التوازن بين الميول والرغبات والمعقولات الموجودة

---

(١) النحل، آية: ٩٠.

عـند الانسـان، وكذلـك الحفاظ على سلامة الجهاز «الروحي» لأن الجهاز الـروحي للإنسـان تماماً كالمركبة التي يجب مراعاة التناسب بين اجزائها كـي تسـير سيراً معتدلاً. وأنت إذا رأيتَ أناساً يستحقون من الاخرين بليغ الثناء ومنتهى الاطراء، فأعلم انهم انما استحقوا ذلك لايجادهم كامل التوازن والمـرونة بيـن العناصـر الروحية في شخصياتهم حتى ارتفعت ارواحهم وصاروا اناساً كاملين، واذا ارتقى الانسان بروحه وصارت جميلةً ألقةً، فلا بـد أن تكون ذات جاذبية وقدرة على التأثير في الآخرين. ولا بد ان يرافقها أيضـاً عشق لها وطلب، وتستجلب الإستحسان والثناء. وترى هذا متجلياً في عـلي ــ عـليه السـلام ــ إذ إنَّ مـن خصوصيات وجوده المقدس العدل والـتوازن الكامل المتجذر في روحه الملكوتية، ولاجل ذلك عُرف بأنه كامل الصفات وجامع ألاضداد، يقول فيه صفي الدين الحلي[1]:

جُمعت في صفاتك الاضدادُ ولهـذا عزَّت لك الانـداد

ويقـول عنه السيد الرضي: كلام عليٍّ متعدد الاقطار والجوانب، وهو

---

(١) صفي الدين عبد العزيز بن سرابا الحلّي الطائي ٦٧٧ ــ ٧٥٢هـ. من كبار شعراء عصـره بل اشعرهم، وقد أثنى عليه كل من ترجم له. ذكره العلامة الاميني في كتابه «الغديـر» في عداد شعراء القرن الثامن الهجري، لاحظ الجزء ٦ ص٣٩ ــ ٥٤. كما ذكـر «غديريته». وتكملة الأبيات اعلاه ــ كما ذكر المرحوم العلامة القاضي نور الله الشوشتري ــ هي:

زاهدٌ حاكم حليم شجـاع فاتك ناسك فقير جـواد

شيم ما خُلقن في بشرٍ قط ولا حاز مثلهن العبـاد

(مجالس المؤمنين ج٢ ص٥٧٦) ــ المترجم ــ

عـــالٍ في كل ذلك[1] نعم، لقد طرق في كلامه جميع الابواب وضـــرب كل الأوتار ببلاغـــة وروعـــة لا تُبارى. وان دل هذا على شيء، فهو يدل على سعة روحه وشموليتـــها ، وبالتعبيـــر الدارج ، يـــدل ذلك على أنّ لروحـــه ابعاداً عـــدّة. وفضلاً عن ذلك فإنه يدل على وجود نوع من التوازن والتلاؤم بين تلك الابعاد المختلفة ذات العلاقة بروح الإنسان. وكل فرد يستطيع ادراك هذا من دون ان يستطيع وضع تعريف لجمال علي ــ عليه السلام ــ أو مسّ حقيقـتـه. لقـــد مضت حتى الآن أربعة عشر قرناً على عصر علي ــ عليه الســـلام ــ ولكـــن مـــا من قرنٍ خلا من مئات الآلاف بل ملايين المعجبين والمـــنجذبين نحـــوَه المتحلقين حوله. هل سألتَ نفسك يوماً، لماذا صار حبُّ عليّ ايماناً؟ أليس ذلك لأن حبّه يعني عشقَ الروح المتوازنة المتعادلة، عشقَ الكمال الإنساني؟ أليس لأنه عشقٌ لما دعا إليه الله تعالى ورسوله الكريم وحثّا عليه؟

ومحبُّ عليٍّ ليس فقط عاشقاً له ومندكاً في هواه، بل هو اكثر من ذلك. لأن مَن يعشق علياً ويحبه حقاً، يعلو بنفسه هو، ويرقى بروحه هو من حيث انـــه أدرك الجمـــال الخارق لعلي، واستشفَّ الروح الكبيرة التي يحملها بين جنـــبيه. واســـتوقفَه ذلـــك التعادل والتوازن الذي اتسمت به شخصية عليٍّ. وبالتالي وجدَ فيه ــ عليه السلام ــ المعنى الحق للإنسان الكامل.

---

(١) بعـــد ملاحظة مقدمة الشريف الرضي في «النهج» لم اعثر على ما حكاه عنه الشهيد هـــنا. ولعلـــه موجودٌ في مصدر آخر. واقرب جملة من حيث المعنى لما نقله المؤلف هـــي قـــول الشـــريف الرضي: فأمّا كلامه فهو البحر الذي لا يساجل والجم الذي لا يحاقل. ــ المترجم ــ

إن عـلّياً الـذي عاش مظلوماً مقصياً، ملأ الخافقين اسمه، وعلا في القرون المتمادية ذكرُه، ونفذ عبر التاريخ عطرُه، اجل، ان صدى مجده ينبثق مـن أعمـاق أربعةَ عشر قرناً من الزمن وتردده البشر جيلاً بعد جيل، ليس فقـط مـن قـبَل مَن يسمون بالشيعة، بل حتى من قِبَل من يطلق عليهم أهل السـنة، بل حتى من المسيحين واليهود، فكل هؤلاء تلهج السنتهم باسم علي، وكـلُّ مـن يمتلك ضميراً حياً لا بد ان يُسمع من لسانه تمجيدٌ لعليٍّ ــ عليه السلام ــ

لكن، لما كلُّ ذلك؟

كـل ذلـك لما لعليٍّ من جمال وما لوجوده المقدس من طهارة وألق، وحسـبك دليـلاً عـلى ذلك أنَّ «ابن شهر آشوب»[1] قال في كتابه المناقب: وإنـي اذ اكـتب هذا الكتاب أعرف ألفاً من الكتب المصنّفة في مناقب علي ــ عليه السلام ــ (ولا يعلم هل هذه الكتب الالف كانت بحوزته، أو أنه كانت لديه فهارسها فقط).

وهـذا الانطباع والاحساس تجاه هذا الرجل الفذّ هو ما تقتضيه فطرة البشر، فكما ان الفطرة البشرية تذعن للجمال الظاهري، كذلك تنجذب وتقف وقفـةَ اجلال مقابل الجمال المعنوي، والقرآن الكريم يقص علينا ــ وبمنتهى البلاغة والفصاحة ــ قصةَ جمال «يوسف» المُحيِّر المدهش، يقول القرآن:

**﴿فـلّما رأينه اكبرنه وقطّعن ايديَهُن، وقلن حاشَ لله ما هذا بشراً، ان**

---

(١) ابـو جعفر رشيد الدين، محمد بن علي شهراشوب السروي المازندراني المتوفى عام (٥٨٨هـ) كان من كبار علماء الشيعة في القرن السادس. له آثار وتآليف مهمة، منها كتاب "مناقب آل ابي طالب" ويُعد من افضل الكتب في موضوعه.

**هـذا الاّ مـلك كريم**﴾[1] والوجه المعنوي للإنسان الكامل ينجذب اليه البشر أيضـاً من أعماق فطرتهم، ومثال ذلك الوجه المعنوي للحسين بن علي عليه السلام الذي قال الرسول ــ صلى الله عليه وآله ــ في حقه:

((ان للحسين محبةً مكنونةً في قلوب المؤمنين))، وكلمة ((مكنونةً)) تحمل معنىً كبيراً ، والمعنى: ان هذه المحبَّة مستقرةٌ وموجودةٌ في قلوب المؤمنين، وقد يحدث ان لا يلتفت المؤمنون في الدنيا لذلك، ولكن حبُّ الحسين كامنٌ في قلوبهم متغلغل في ضمائرهم من حيث لا يشعرون.

ولا يقـع فـي نفسك ان الله تعالى أوجد محبته ــ عليه السلام ــ في القـلوب قهراً وأثبتها جبراً ، كلا، بل إن ذات الفطرة النقية للمؤمنين تقتضي تقديـس مـثل ((الحسـين)) ــ عـليه السـلام ــ وإكباره لأنها تُقدس ((المثل والاخـلاق)) الـتي جسدها الحسين. وحتى لو وجد رجل آخر قام بما قام به الحسـين ــ عليه السلام ــ لقدسته ايضاً القلوب الطاهرة وفاز بحبهم ولبكوه كما تبكي امٌّ وحيدها.

## نظرية العبادة

من النظريات المطروحة هنا كمرجع للافعال الجميلة والاخلاق الحميدة ــ بالاضافة إلى ما تقدم ــ ، ((نظرية العبادة)). بمعنى ان هذه السلوكيات تُعد مـن مقولة ((العبادة)) والمتحلي بتلك الأخلاق، عابدٌ حقيقة وان لم يشعر، بل وان لم يعترف بالالوهية في مرتبة ((الظاهر)).

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣١.

وقد تسألون: وهل يمكن ان يكون هناك عابدٌ لله من دون ان يشعر؟ والجواب: نعم، بل يوجد بيننا مَن يؤمن بالله دون ان يشعر بذلك، كل البشر يعرفونه تعالى في عمق فطرتهم، ويؤمنون به في لاشعورهم ولكن يتفاوتون في معرفته سبحانه في رتبة الشعور الظاهري. وإذا كانت هذه الفكرة غير قابلة للفهم في القرون السالفة فهي سهلة الفهم هذه الايام. إذ ثبت أنَّ للإنسان نوعين من الشعور:

١ ــ شعور ظاهري، وهو ما يكون للإنسان اطلاع مباشر عليه.

٢ ــ شعور باطني، وهو نوع من العلم أيضاً، الاَّ انه خارج عن سلطة الشعور الظاهري ولا إطلاع له عليه.

وعلماء النفس اليوم، يعتقدون بأن القسم الاكبر من الشعور الإنساني مغفول عنه، وما هو منظورٌ للإنسان هو القسم الاصغر منه. ونحن لو رجعنا الى بواطننا وفتشنا ضمائرنا لعثرنا على سلسلة من الأفكار والاحساسات والمعلومات والميول والبغض والحب وما شابهها، وقد نتصور ان لا شيء وراء ذلك. رغم ان هناك الكثير الكثير من المعلومات والمدركات والإحساسات والميول راسخة في اعماق ارواحنا ونحن عنها غافلون. وقسم منها خافٍ ومستتر عن ظاهر شعورنا، ويوضحون هذه الفكرة بقولهم: لو وضعنا بطيخة في حوض من الماء، فسوف يغطس منها ١٠/٩، وسيبقى مقدار قليل منها طافح على وجه الماء، وكذلك الحال لو ألقينا قطعة من الثلج. وتقدر نسبة الشعور الباطني الى الشعور الظاهري كنسبة الجزء الغاطس الى الجزء الطافح عيناً.

والعالم أيضاً على هذا المنوال، فنحن لا ندرك سوى عالم الطبيعة وهو

المسمى في القرآن بـ «عالم الشهادة» والحال ان هناك وجوداً لعالم آخر هو المسمى بعالم الغيب، ونسبة هذين العالمين الى بعضهما كنسبة جزئي تلك البطيخة الى بعضهما، فالجزء الغاطس منها يمثل عالم الغيب. إن عالم الطبيعة بمجراته ونجومه، وبذلك الفضاء الذي لا يعلم البشرُ الى اين ينتهي، ليس إلا كحلقةٍ ملقاةٍ في صحراء مترامية الاطراف.

والحاصل، ان ما نذكره هو عبادةٌ لاشعورية، وقد يدعو هذا للعجب، ولكن بما ذكرناه من وجود شعور باطني لا يبقى للعجب مجال.

وقد يعترض معترض بان الانسان ما دام حياً فهو ليس بحاجة لوكيل ووصي، فاذا كان هو نفسه يعلم ويدرك بانه لا يعبد، فلماذا نلبس فعله الأخلاقي ثوب العبادة اللاشعورية ومن ثم ننسب ذلك إليه؟

وجواب ذلك: اجل، الإنسان كثيراً ما ينجز أعمالاً هو نفسه لا يشعر بها. والاهم من هذا، هو انه لا يعرف نفسه! ولتوضيح ذلك، نقول:

اول سؤال يواجهنا هو: ما هي العبادة؟ ما هو تعريف العبادة؟ ما هو جنسها وفصلها واجزاؤها تحليلاً؟

إذا كان المقصود منها جملة الافعال والطقوس التي يقوم بها الإنسان بعنوان «العبادة والتعبد» ــ كالصلاة والصوم والحج والدعاء وصلة الارحام وما شابه ذلك ــ فايضاح هذه الأمور سهل يسير، فيقال: الصلاة عبارة عن سلسلة الاذكار والنية والركوع والسجود، والعبادة صوم وامساكٌ وهكذا.

واما إن كان المقصود من «العبادة» حقيقة ما، وما تلك الافعال والشعائر التي حمّلنا اياها الله تعالى، إلا انعكاسٌ وقالبٌ لتلك الحقيقة المتجلّية في فطرتنا، سواء التفتنا الى ذلك أم لا، ففي عمق فطرتنا تكمن حقيقة ما،

فـــإذا كان المراد من العبادة هذا المعنى- كما هو الحق - فلن يكون تعريفها ميسوراً، والفلاسفة عجزوا عن تعريفها كما عجزوا عن تعريف «العدالة» و «الجمـــال ـــ مع كونه غريزةً بشرية كما قالوا ـــ وكذا تعريف «العلم» ايضاً، فلو تصفحنا كتب الفلاسفة فسوف نرى تعاريف مختلفة له، فواحدٌ يقول: هو من مقولة «الكيف» وآخر يقول: هو من مقولة «الإضافة» وثالث يقول: هو لا ينتمي لأي مقولة أصلاً و... هكذا.

ولكن ما يجدر ذكره والفات النظر اليه، هو أننا اذا اردنا ادراك حقيقة مـــا، فـــلا ضـــرورة تدعـــو لأن نعلمها ونعرفها، بل اذا استطعنا تعريفها، عرفناها، وان لم نستطع ذلك لم نعرفها، كما هو الحال في عنصر «الجمال» فرغم اننا لا نستطيع تعريفه، إلا اننا نشخّص أموراً ذات مساس وعلاقةٍ به، وحتى بالنسبة لعنصر «العبادة» يوجد لدينا تشخيص على نحو معين لأننا في «العبادة» نقدس حقيقة ما، أما ما هي تلك الحقيقة؟

إنهـــا تلك التي اذا اردنا ابرازها في صورة خاصة وقولبتـــها.. ننطق بـــ «سبحان ربي العظيم وبحمده» وبـــ«سبحان ربي الاعلى وبحمده» و «الله اكبر». وبهذا نكون قد صغناها في قالبٍ لفظي أو عملي محدد، ولك ان تقول: ان العبادة هي تقديس الكمالات والاشادة بها، والترنم بذكرها، كالبلبل عندما يقـــف قـــبال زهرة جميلة، ثم تأخذه حالة من التغزل بها والمديح لها، فكذلك الإنسان أيضاً يمجد حقيقة المعبود من خلال عبادته.

العبادة تعني: الخروج من دائرة الذات المحدودة والضيقة، الخروج من محدودية الآمال والتمنيات، والإنطلاق والعروج الى الكمال المطلق، لأن في العـــبادة التجاءً وانقطاعاً واستغاثة واستقواءً واستنجاداً بالمعبود وتحرراً من

((الأنـــا)) وعبادة الذات والآمال، وهذا هو معنى ((التقرب)) الى المعبود تعالى، ونحن اذ نقول: نصلي ((قربة الى الله)) فليس ذلك لمجرد المجاملة والملاطفة، بـــل الإنســـان المصـــلي هو واقعاً في حالة عروج الى الحق المتعال. فهذه المعـــاني كـــلها حاصـــلة في العبادة، ولا ضرورة لأن نكلّف انفسنا تعريف ((العـــبادة)) أي تعـــريف ذلـــك التجلي الروحي الخاص للبشر الذي هو أعلى واشرف، ابهى واعظم حالات الإنسان على الإطلاق.

ومـــا ذكرناه في ((نظرية الجمال)) جارٍ هنا أيضاً، فقد قلنا إن ((الجمال)) ليس مقصوراً على الغريزة الجنسية الحيوانية، بل هو ذو مجال واسع ورقعة فســيحة جـــداً تشـــمل الطـــبيعة كلها، بل تشمل ما هو أكثر، اعني المعاني كالفصـــاحة والبلاغة، بل وندعي شمول سلطة الجمال للمعقولات أيضاً التي هـــي ارفع واسمى من الحس والخيال، ونحن نقرأ في دعاء ((السحر)) ((اللهم اني أسألك من جمالك بأجمله وكل جمالك جميل)).

فالجمـــال الحقيقـــي هو جمال الحق تعالى، جمال ما وراء المادة، وما الجمـــال الموجـــود هنا والمنظور لنا الا ظلال وانعكاس لذلك الجمال، ولذا نلاحـــظ أنّ ((العـــرفاء)) يطـــلقون عـــلى الصفات ((الثبوتية)) عنوان الصفات ((الجماليـــة)) وعلى الصفات ((السلبية)) عنوان الصفات ((الجلالية)) وهذا خلاف ما اصطلح عليه ((المتكلمون)). فانهم يسمونها ((الثبوتية)) و((السلبية)).

العبادة لله ــ أيضاً ــ غير منحصرة في الإنسان، بل هي حقيقة ثابتة مستبطنة في جميع موجودات هذا العالم، ولا يوجد في العالم والكون كائنٌ ما لا يعـــبد الله تعـــالى، كمـــا لا يوجـــد إنسان غير عابدٍ له سبحانه ولو بنحو لاشـــعوري كمـــا عرفت، فكل الاشياء والكائنات تحمده تعالى وتثني عليه،

يقول تعالى:

﴿سبَّح لله ما في السموات وما في الارض وهو العزيز الحكيم﴾[١].

﴿سبَّح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم﴾[٢].

﴿سبَّح لله ما في السموات والارض له الملك وله الحمد﴾[٣].

﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[٤].

اذاً، العبادة في منطق القرآن، ليست مقصورة على العبادة الشعورية الواعية للإنسان، بل قد يكون هناك كثير من الناس الاقل عبادة، اقل ما يفعلونه هو الوقوف تجاه القبلة لصلاة ركعتين وان كانت الروح تحلق بعيداً في مكان آخر.

كان الفارابي الذي عاش قبل ألف ومائة عام، يقول:

((صلوة السماء بدورانها، والارض برجحانها، والمطر بحفلانه، والماء بسيلانه))، ويدلي أهل الباطن والقلب بدلوهم أيضاً فيقولون: لو حاز الإنسان من المراتب الكمالية والمعنوية ما تنفتح معها اذن قلبه، لسمع تسبيح الموجودات وتحميدها:

* كل ذرات العالم في الخفاء ...
* تقول لك في الصباح والمساء...
* نحن نسمع ونرى، نحن أذكياء ...

---

(١) سورة الحشر، آية: ١.

(٢) سورة الحديد، آية: ١.

(٣) سورة التغابن، آية: ١.

(٤) سورة الاسراء، آية: ٤٤.

* لكن معكم انتم الغرباء، نحن صامتون...

* لأنكم وراء الجماد تذهبون...

* متى ــ أصدقاء روح الجمادات ــ تصبحون...؟

يعني: انتم معشر البشر، لماذا انتم منكوسون، متى تعرفون سرَّ الجمادات؟ نعم، ان الشعور ليس من مختصات الإنسان والحيوان، بل يوجد في النبات ايضاً، وحتى الجمادات لها مرتبة معينة منه، والعلم في يومنا هذا يؤكد ذلك، والخبراء يقولون: «كل ذرَّ من ذرات العالم ــ في حدها الخاص بها ــ تستفيد من درجة معينة من الشعور».

**الحس الاخلاقي موصول بالحس الباطني بـ «الاله»**

ان قلب الإنسان يعرف ربه ويدرك وجوده بحسب الفطرة والغريزة، وهذا معنى قولهم: إن الأخلاق من مقولة العبادة، ولكنها عبادة لاشعورية. والإنسان في ذلك كالطفل. يقول الشاعر:

* مثل ميل الاطفال نحو الامهات ..، ولكن لا يعرفون سرَّ ميل الشفاه.

ان الطفل حديث الولادة يبدأ منذ الأيام الاولى من حياته ــ وقبل أن يتمكن من فتح عينيه أو يدرك إدراكاً شعورياً وجود امّه وتكون في ذهنه صورة لها ــ يبدأ، بإجناء رأسه، ثمَّ يحرك شفتيه، وفجأة ترى شفتيه تبحثان عن ثدي الأمّ، ولو سأل احدٌ هذا الوليد، عن أي شيء تبحث؟ لما استطاع الإجابة والإيضاح، بل هو فاقد للذهن المفكر، وصفحة ذهنه خلاءٌ، لم تزين بالصور والنقوش بعدُ، كما انه لا يستطيع النطق كي يفصح عن هذا الأمر لكننا نراه يسعى بطريقة لاشعورية خلف شيء ما موجود، يعني: يطلب بنحو لاشعوري ثدي الام، وهذه الغريزة أقوى بكثير في الحيوانات خصوصاً

الحشرات منها.

اذاً: معنى كون الاخلاق من مقولة العبادة، هو ان المرء يقدس سلسلة من السلوكيات الاخلاقية ويمارسها في حياته وان خالفت هوى نفسه ومنافعه الشخصية، بل والعقل العملي الذي يدعو لمراعاة النفع الشخصي.

وذلك كالايثار والانصاف ونحوهما. فرغم ان المنطق الطبيعي لا يرتضى ذلك، الا ان المرء يفعل ذلك بشوق ورغبة ويعده نوعاً من الشرف والعظمة، ويرى انه بذلك قد ارتقى بذاته ذرى المجد، وما ذلك الا لتطابق هذه الصفات مع صفات المعبود الباطني، وملاءمتها لاخلاقه.

عندما يواجه «الإنسان» نفسه، فإن مسألة «الإنصاف» تبدو له مسألة صعبة، فعلى سبيل المثال لو كان هناك طبيبان يشرفان على علاج مريض، وكان أحدهما أكثر خبرة وشهرة، وكان الآخر شاباً حديث التخرج ما زال في أول الطريق، ثم اختلف نظرهما بشأن علاج ذلك المريض، فالآخرون لن يأخذوا دون شك بنظر الطبيب الشاب ويعرضوا عن قول الطبيب الأول المعروف صاحب الخبرة والتجربة، وهذا الأمر يقر به كلا الطبيبين. ولكن قد يتفق ان يكون نظر الطبيب الشاب هو الأصوب والأصح ويدرك الطبيب الأول ذلك، فيكون حينئذٍ على مفترق طريقين فهل يدوس على شخصيته وشهرته ويسحقها فيقول: إن هذا الطبيب الشاب أصوب مني نظراً وأحسن فهماً، وان التشخيص الذي اعطيته للحالة لم يكن دقيقاً، وان العلاج الصحيح هو الذي وصفه ذلك الطبيب؟ إن خطا هذه الخطوة وتصرف على هذا النحو فعمله هذا يعبر عنه بالإنصاف، وإن لم يفعل ذلك، بل تجاوز الإنصاف وقال للطبيب الشاب: أنت لا تعرف شيئاً ولا خبرة كافية لديك، والافضل أن تذهب

لشأنك.. وقد يستبدل العلاج الذي وصفه بآخر كي لا يموت المريض، ولكنه ليس مستعداً لأن يعترف بخطئه، بل يحاول تبرير عمله وتوجيهه. إن الإنسان لتعتمل فيه هاتان الحالتان، وكثيراً ما يوجد أناس في هذه الدنيا يميلون للإنصاف ويمارسونه بالفطرة وبنحو عفوي، وهذا نوع اسلام وقانون الهي، لأن لله تعالى نوعين من القانون:

نوع منها ثبته في فطرة الإنسان.

ونوع آخر لم يجعل كذلك، وانما يعرف فقط عن طريق انبياء الله ورسله. وهي منشعبة من الفطرة ايضاً.

من المفروغ منه ان الانبياء يدعمون ويؤيدون القوانين الفطرية، وان كانوا قد اتو إضافة لذلك بقوانين وتعاليم اخرى.

وكما يدرك الإنسان بروحه وفطرته وعن طريق حاسة باطنية لا شعورية وجود الله سبحانه، كذلك هو يدرك قانون الله ويعرف ما فيه رضاه، فهو بالفطرة يخطو نحو رضاه تعالى وان كان لا يعلم بأنه يسير في هذا الإتجاه، وقد يتفق هذا بالنسبة لعابد الوثن، مثل ما كان يفعله حاتم الطائي واشباهه، ولدينا احاديث كثيرة عن نبي الاسلام والائمة عليهم السلام تدور حول المشركين والكافرين الذين قاموا بمثل هذه الافعال، فقد كانوا يُسألون ــ عليهم السلام ــ أليس لهذه الاعمال اجر عند الله؟

فيجيبون ــ عليهم السلام ــ: إنها ليست بدون أجر[1].

---

(١) ينقل العلامة المجلسي(رحمه الله) عن ثواب الاعمال حديثاً للامام الكاظم (ع) جاء فيه: كان في بني اسرائيل رجل مؤمن، وكان له جار كافر، فكان يرفق بالمؤمن ويوليه المعروف في الدنيا، فلما ان مات الكافر بنى الله له بيتاً في النار من طين

صـــحيح أن المعـــتمد في الإثابة على الاعمال هو النية، ولكن عندما يستجيب «الإنسان» لحسه الأخلاقي، فإن هذا الحس غير منفصل عن معرفة الله ســبحانه خلافــاً لما يظنه البعض، فالحس الأخلاقي هو حس معرفة الله وادراك وجوده.

الإنسان يدرك بفطرته ان العفو موجب لرضا المعبود، يدرك ــ فطرةً ــ ان خدمة خلق الله والتضحية من أجلهم مورد رضا المعبود.

## التوجيه الصحيح للاخلاق

وبناء على هذا يكون قول القائل: الاخلاق ذات جذر وجداني، صحيحاً مــن جهــة وخاطئاً من جهة اخرى. هوَ صحيح بلحاظ أن قلب الإنسان يلهم الإنســان تلك الاخلاق، ومخطئ بلحاظ أن أولئك يتخيلون أن الوجدان حس مستقل عن حس معرفة الله، وأن وظيفته هي تشخيص تكليفنا فقط، من دون أن يكــون معرّفاً لمكلّفنا. إنهم يتصورون «الوجدان» هو المكلف وهو المعيّن لــنا تكليفــنا بشكل مستقل ويجب علينا معرفة ما كلفنا به، وهذا «الخطأ» هو العيــب الوحيد في بيان «كانت» حيث يريد تعريف «الوجدان الإنساني» بأنه حــس مســتقل مشــخص للتكليف لا غير، والحال ان الامر ليس كذلك، بل ضمير الإنسان كما يدرك التكليف فهو يدرك المكلّف كذلك ، وهذه الالهامات الوجدانيــة ناشــئة من معرفة الله سبحانه فطرةً وليست منفصلة عنها، يقول القــرآن الكريم **﴿ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها * قد افلح من**

---

﴿ فكــان يقيه حرها، ويأتيه الرزق من غيرها، وقال له: هذا بما كنت تدخل على جارك فــلان ابن فلان من الرفق وتوليه من المعروف في الدنيا /بحار الانوار ج٣ص٣٧٧ الطبعة القديمة. وبهذا المضمون روايات أخر ــ المترجم ــ .

**زكيها * وقد خاب من دسيها**﴾[١] فالخلاص والإنعتاق من الفجور حكم الهي، والتقوى هي اجتناب الحرام قربة الى الله تعالى.

إن لوجدان الإنسان اتصالاً بخالق عالم الوجود، وارتباطاً بتمام عالم الوجود وعمقه، وهو يتلقى تكليف الإنسان من مكان آخر ليبلغه له، وهذا الحس القلبي هو الذي يتعرف على الله وتكليفه، ويعبر عن هذه الالهامات القلبية بـ((الاسلام الفطري))، يقول القرآن:

﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلوات وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾[٢] فهو لم يقل: وأوحينا اليهم ان افعلوا الخيرات، كي يكون ذلك تكليفاً تشريعياً حسب الاصطلاح المعروف. (وهو ما ذكره الاستاذ الكبير العلامة ((الطباطبائي)) في تفسير ((الميزان)) بل قال تعالى: اننا الهمنا قلوب الناس، نفس فعل الخير واوحينا اليهم به. وفي منطق القرآن للوحي عموم ودائرة تشمل مسائل اخرى ايضاً من قبيل ((الجمال)) و ((العبادة))، ولا تنحصر بذلك الوحي الخاص النازل للانبياء العظام، وان كان هو اكمل درجات الوحي وارقاها. ولكن مع ذلك يقول تعالى: نحن أوحينا لكل انسان والهمناه، وليس له وحده، بل أوحينا حتى للنحل، يقول القرآن:

﴿**وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً**﴾[٣].

بل أوحينا حتى للحيوانات وللنباتات والجمادات ﴿**وأوحى في كل سماء**

---

(١) سورة الشمس آية: ٧ ــ ١٠.

(٢) سورة الانبياء آية: ٧٣.

(٣) سورة النحل آية: ٦٨.

امـــرها﴾[1] وهـــذه كـــلها اشكال عديدة لحقيقة واحدة، غاية الامر ان الوحي المرسل الى الإنسان الكامل لا يرسل الينا، ولكنه وحي على كل حال، ومثال ذلـــك: الشمعة المنيرة، والمصباح المنير، والشمس المشرقة على الدنيا، فهذه كـــلها ذوات نـــور، فالوحي النازل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مثل نور الشمس الذي يعم العالم، والإلهام الممنوح للإنسان كالمصباح مختلف الاعضاءة شدة وضعفاً.

وأما النظرية القائلة بأن الاخلاق من مقولة الجمال، فهي أيضاً تامة من جهة وغير تامة من جهة أخرى. هي غير تامة من حيث أن اصحابها تخيلوا أن «الجمال المعنوي» ينتهي الى هذا المطاف وأن روح الإنسان خلقت لتدرك سلسلة من الافعال بنحو الاستقلال، مثل: الجمال، الصدق، الامانة، الإيثار، العفـــة، الشـــجاعة، الاستقامة، الإنصاف، العلم، فهي تؤكد على قدرة النفس الانسانية على تذوق الجمال وادراكه.

ولكـــنها تقف به عند هذا الحد. وكان يجدر باصحاب هذه النظرية ان يطمحـــوا بانظـــارهم وراء ذلك، لان النفس الانسانية تدرك لا شعوراً اصل الجمـــال ومـــبدءه، وهو الله تعالى، ومن ثمّ ترى اراداته جميلة، فتسعى في رضاه بالفطرة الاصيلة، ورضاه تعالى هو سعادتنا. وبعبارة اخرى: ان جمال الاخـــلاق في الحقيقة من جمال مبدء كل جمال وخير، وهو الله تعالى، لكن الكـــثير مـــن البشـــر يدرك جمال الاخلاق بالشعور، ويدرك مبدءها لا عن شـــعور، والحق ان الحسن والقبح العقليين يرجعان واقعاً الى الحسن والقبح القلـــبي، لان الشعور بحسن الحسن وقبح القبيح من مقولة «الاحساس» لا من

---

(١) سورة فصلت آية: ١٢.

مقولة «الادراك» والاحساس ليس من وظائف العقل، فإن وظيفته الادراك، بل هـو يتدفق من القلب. فالانسان السوي يدرك بالفطرة ــ لا شعوراً ــ جمال وحسـن ما يرتضيه الرب الجميل، فهو يدرك ان هذا تكليف الهي، تماماً كما هو الحال من يؤمن بالله ايماناً واعياً، فانه يدرك جمال وحسن مراداته تعالى.

شعر: * مبتهج انا بكل العالم وعاشق له لأنه من الحبيب

وهـذا أيضـاً شأن النظريات الاخرى، فإن كلاً منها عكست جانباً من الحقـيقة دون جانـب، فمـن يؤمن بان اساس الاخلاق وعمادها هو المحبّة والعاطفة، عليه ان يخطو للامام اكثر ليخبرنا عن السبب الكامن في ان يحب انسان آخر وربما آثره على نفسه بلا رابط يربطه به من رحم او منفعة، اذ ان مـنطق «الانـا» يستنكر ذلك اشد انكار ويسميه «حمقا»، فلا بدّ ان يكون هـناك مـا يدعـو الانسان للمحبة الصادقة الخالصة ولان يتفانى في خدمة الاغيار وكأنه يخدم نفسه لا يريد جزاءً ولا شكوراً، وهذا المنطق هو منطق الشعور الباطني بالله تعالى. وهو اسلام فطري، فالانسان السوي يحس بشامّة قلـبه ان محبوبه الواقعي يحب منه ان يحب الاخرين من بني نوعه وجنسه، اعني البشر والحيوان، فهو يحب حبّاً لمحبوبه الحقيقي الذي يبعده عن «الانا» ويذيبه في الاخرين.

### الاخلاق من مقولة «العبادة»

ممّا تقدم يتضح بجلاء ان الحقيقة كاملةً تتلخص في اعتبار الاخلاق من مقولة العبادة، فالانسان يتبع سلسلةً من التعاليم الالهية بقدر ما يعبد الله تعالى بطـريق اللاشـعور، ووقتما تتحول عبادته اللاشعورية الى عبادة شعورية واعية ــ كما هو هدف الانبياء ــ فستصبح كل اعماله وسلوكياته ذات صبغة

اخلاقية بلا فرق بين عمل واخر، حتى اكله ونومه. وبعبارة أخرى:

اذا جعل الانسان من تكليف الحق تعالى ورضاه منطلقاً لنشاطه واساساً لبرنامج حياته وهدفاً يروم الوصول اليه، فسوف تكون كل حياته من البدو حتى الختام وبكل اشكالها شعاعاً اخلاقياً، وسيكون كل شيء لله وفي الله ﴿**ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين**﴾[١] هذا.

وهناك نظريات أخرى مطروحة هنا، لكنها لا تؤدي الا الى سلب اشرف ما لدى الانسان واقدس ما تملكه الانسانية، فاصحابها غير مقتنعين بوجود معان سامية تنطوي عليها النفس الانسانية، ولا يعتقدون بوجود سلسلة من الاخلاق الشريفة في هذا العالم، وأن هناك أناساً يقومون بتلك الاعمال من دون ان تكون لديهم منافع مادية ومصالح ذاتية، بل لمجرد شرفها وقداستها، ومنبسط نقدنا لهذه النظريات فيما بعد، ومنها نظرية «برتراندراسل»[٢] والذي يعتبر الاخلاق من باب المصلحة الفردية، وكذلك النظرية الماركسية ونظرية الاخلاق الوجودية[٣] وهذه النظريات، تهوي

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٢.

(٢) برتراندراسل ويليام راسل١٨٧٢-١٩٧٠م فيلسوف انكليزي من آثاره المعروفة كتاب «القدرة» «تاريخ فلسفة الغرب» ــ المترجم ــ .

(٣) «الوجودية» تيار لا عقلاني في الفلسفة الحديثة ظهر في الحرب العالمية الاولى في المانيا ثم في فرنسا.

و«الوجودية» مصطلح ادخله الفيلسوف الكانطي «ف هايتمان» عام١٩٢٩. وللوجودية شكلان: ١ ــ الوجودية الدينية المؤمنة. ويمثلها: مارسيل، ياسبرز، مارتن.

٢ ــ الوجودية الالحادية ، ويمثلها: سارتر، كامو، هيدكر . للمزيد لاحظ: الموسوعة الفلسفية ص٥٧٩ ــ المترجم ــ .

بـــالاخلاق مـــن قمـــتها وأوجهـــا الى الحضيض. ومع ذلك فهؤلاء يعتقدون بـــــ«الإنســـانية» وبشـــرف الإنســـان، وكل منكري جمال الاخلاق وشرفها الذاتـــي هـــم بالنـــتيجة مجبورون على الاعتقاد بالإنسانية وشرف الإنسان، فبرتراندراســـل مـــثلاً تراه يتحدث في بعض المواطن عن الإنسانية وشرف الإنسان، رغم ان فلسفته لا تستطيع بوجه دعم شرف الإنسان وتأييده.!

ان مســـألة «الاخـــلاق» وشـــرف الانسان وكرامته لا يمكن توجيهها وتفســـيرها وتأييدها الا في ظل نظرية «عبادة الله تعالى» فقط واما النظريات الاخرى فهي كلها عاجزة عن ذلك.

واساســـاً فـــإن الاخـــلاق تعتـــبر ممراً الى عالم المعنى ومعبراً الى المعـــنويات في حياة الانسان. انه منفذ يتعرف الإنسان من خلاله على عالم المعنويات، ويدخل منه الى عالم «الدين».

وهنا امر يجدر بنا ذكره، وهو ان جماعة ذكروا: ان «الدين» وشرف الاخـــلاق لا يجتمعان ولا يتلاءمان! لأن معنى «الدين» هو عبادة الله تعالى، وعـــبادته تعـــالى إما ان تكون خوفاً من جهنم، وإما طمعاً في الجنة، فترجع العـــبادة إلى المطـــامع المادية للإنسان، والحال ان العمل الاخلاقي المحض منزه عن ذلك ويتسم بالشرف والقداسة الخالصين.

والجواب على هذا هو:

ان العـــبادة ــ في نظر الدين الإسلامي المقدس ــ مراتب ومستويات، والعـــبادة الاعلى مرتبة، هي العبادة الخالية من كل المطامع والاغراض، أي تـــلك التي لا تكون طمعاً في الجنة او هلعاً من جهنم، وانما لاجل ذات الحق تعـــالى لأنـــه اهل للعبادة. أما العبادة طمعاً في الجنة او خوفاً من جهنم فهي مرتـــبة نازلـــة، وان كانت عبادة حقيقية ايضاً، وقد ذكر هذا الامر في نهج

البلاغة وفي احاديث كثيرة. يقول أمير المؤمنين علي ــ عليه السلام ــ : ((إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وان قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الاحرار)).

عبادة الناس على أقسام ثلاثة:

١ ــ بعض يعبد الله طمعاً بالثواب وهذه عبادة التجار. فهؤلاء يريدون المتاجرة مع الله تعالى، يبذلون شيئاً ويأخذون أكثر، فهم كالتاجر الذي يعرض اثناء معاملاته كل بضاعته حتى يكسب أكثر من رأس المال الذي دخل به الى السوق.

٢ ــ وبعض يعبد الله خوفاً، وهذه عبادة العبيد! لأنهم إذا كلفوا من قبل مواليهم بتكليف، فهم يمتثلونه وينجزونه حذراً من العقاب حال عدم الامتثال.

٣ ــ وآخرون يعبدونه تعالى من باب الشكر والحمد والحب والعشق له، وهذه العبادة منبثقة من عمق الفطرة والشعور الواعي. فهم يعبدون الله بالكيفية التي تقتضيها فطرتهم، فلأنهم يحبونه تعالى تراهم يعبدونه سبحانه. وهم مداومون على عبادته حتى لو لم يخلق الله الجنة والنار، وهذه أعلى مرتبة للعبادة، لانها غير نابعة من مطامع مادية، يقول علي ــ عليه السلام ــ : ((الهي.. ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك. بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك)).

إن جملة ((أهلاً لعبادة)) ذات معنى كبير، يعني: اعبدك الهي.. فقط لأنك أنت أنت .. وأنا أنا، وأنه لطبيعي جداً في هذا العالم ان تكون معبوداً وان أكون عابداً، ومن يقرأ دعاء ((كميل)) ويتأمله فسوف يرى أنه ــ من أوله إلى آخره ــ يدور حول عبادة العاشقين، وسوف يدرك أيضاً معنى الإنسلاخ من الذات والانعتاق منها، لأن علياً ــ عليه السلام ــ لا يوجد في كلامه مع

البشـــر أدنى حد للمبالغة، فكيف وهو يتكلم مع ربه ويناجيه!. في هذا الدعاء تطالعنا جملة مرتبطة بنار جهنم، وهي ذات مضمون لا يمكننا تصوره، وهي «وهـــذا ما لا تقوم له السموات والارض». ان نار جهنم ليست من نوع نار الدنيـــا، بل هي نار لا تقاومها كل السموات والارض. بعد هذه الجملة يقول ـــ عـــليه السـلام ـــ: «فهبني يا الهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابـــك فكيـــف اصبر على فراقك.. وهبني يا الهي صبرت على حر نارك فكيـــف اصـــبر عن النظر الى كرامتك». فهو عليه السلام لا يستطيع الصبر على فراق الحق تعالى وعن النظر الى كرامته، وهذه هي عبادة العاشقين.

ونحن نعشق علياً لذلك، كما يقول حافظ:

«لا يســـع ضميرنا وقلبنا الا لحب رجل نصب له العداوة كلا العالمين لكيلا نحبه».

اجـــل، مقام الانسان رفيع جداً، وليس هو منحصراً بعليّ (ع)، وهناك الكـــثير ممن بلغوا درجة عالية من الايمان الخالص لله وحده. وان لم يبلغوا ذراه (ع).

# الباب الثالث

# النفس الإنسانية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## سعة الروح

ان روح الإنسان عالم عجيب، أعجب العوالم عالم روح الإنسان ونفسه. روح الإنسان تشبه جهاز حفظ الصوت من حيثية واحدة، لكن ليس الجهاز الذي لا يتحمل سوى «شريط صوت واحد» بل الجهاز الذي يتحمل ويستوعب عشرات ومئات «الاشرطة الصوتية» كل واحد منها يحفظ صوتاً خاصاً ونغمة خاصة، بحيث اذا ضغط أي زر أو أدير أي مفتاح انبعث صوت خاص. بمجرد ان يوضع الاصبع على نقطة ما، ينبعث صوت قرآن، وإذا وُضع على نقطة اخرى انبعث صوت حديث ديني، أو وُضع على نقطة ثالثة سمع قارئ يقرأ،... وهكذا روح الإنسان في تنوع استعداداتها واختلاف قابلياتها، بمعنى ان الله تعالى اودع وجود الانسان استعدادات متنوعة ومختلفة، بحيث إن مربي البشرية وموجهيها يضع كل فريق منهم، اصبعه على احد هذه الاستعدادات، مثلاً قد نرى امة ما، يهتف كل افرادها بالحماسة السياسية والعصبية الوطنية، ولا يوجد لديهم شيء آخر، وهذا شريط صوتي موجود فيهم وهو الذي يصدر تلك الهتافات، وقد نرى امة اخرى يتحدث جميع افرادها عن فضيلة الزهد والرياضة الروحية،.. وقد نرى امة اخرى ينحو افرادها منحى آخر. كل مجتمع يرفع شعاراً ما ويهتف به، وفي كل فرد توجد جميع تلك الاستعدادات، ولكن الحي منها واحد أو اثنان فقط وهما ما ينبعث الصوت منهما، واما البقية فهي ميتة.

كذلك هو حال النظريات والمدارس الاخلاقية، فكل نظرية وضعت اصبعها على احد الاستعدادات البشرية لا كلها، وهنا يواجهنا سؤال في غاية

الاهمية، وهو: هل يوجد زر بإمكانه ادارة كل تلك «الاشرطة» المخزونة في ضمير الإنسان؟ ان المدرسة والنظرية التي تتمكن من تفعيل كافة استعدادات وقابليات «الإنسان» وفق آلية متوازنة لا يجور بعضها على بعض لهي التي تستحق ان توصف حقاً بأنها «المدرسة الجامعة الكاملة».

## «النفس» في القرآن

للوهلة الأولى قد يتصور قارئُ القرآن والنصوص الاسلامية الاخرى وجودَ تناقض في الموقف من «النفس» وكيفية التعامل معها. فمثلاً نجد القرآن تـارةً يحثّ على مواجهة «النفس» ومجاهدتها، كما في قوله تعالى **﴿واما من خـاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾**[١] **وَ﴿فأما مـن طـغى وآثر الحيوة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى﴾**[٢] **وَ﴿افرأيت من اتخـذ الهه هواه﴾**[٣] كما ينقل القرآن عن يوسف الصدّيق انه ــ ع ــ كان ينظر الى النفس بعين الريبة والحذر. يقول:

**﴿وما ابرّئ نفسي انّ النفس لأمارة بالسوء الاّ ما رحم ربي﴾**[٤] فمع انـه ــ ع ــ كـان متهماً في حادثة معروفة، وكان بريئاً مئةً بالمئة من تلك الـتهمة ولم يأت بأيّ ذنب أو تقصير، لكنه يقول: أنا لا أريد ان انزّه نفسي، فأنا ذاتاً لست كذلك، لأني اعلم ان «نفس» الإنسان تأمره بالسوء. إذاً ما يُسمى في القرآن بـ«النفس» شيءٌ يجب ان ينظر الانسان إليه بعين الريبة والحذر

---

(١) النازعات، آية: ٤١.

(٢) النازعات، آية: ٣٩.

(٣) الجاثية، آية: ٢٣.

(٤) يوسف، آية: ٥٣.

ويعتـــبره «عـــدواً» ولا يفسح له مجالاً للتسلط عليه، بل ينظر إليه على انه «كائنٌ» مطيع له، مسيطرٌ عليه، هذا من جهة.

من جهة أخرى نجد في القرآن أيضاً طائفةً من الآيات الممجدّة للنفس والرافعة من شأنها، مثل ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم﴾[١] ﴿قـل إنَّ الخاسـرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة﴾[٢] ايها الرسول قل لهم ان الفاشلين والخاسرين ليسوا فقط أولئك الذين فقدوا أموالهم وذهـبت ثـرواتهم، فإنَّ هذا خسران حقير، والخسران الكبير هو ان يخسر الإنسان نفسه وبإصطلاح «الوجودية» المعاصرة، هو ان يفقد ذاته وشخصيته. انَّ اعظـم ذخائـر الإنسان هي نفسه ذاتها، إذا خسر احدٌ ما نفسه فهو صفر اليديـن وان ملك ما ملك، ان تعبيراً من قبيل: النسيان، خسران النفس، بيع الـنفس، هـو في حدّ ذاته لومٌ وتوبيخ شديد اللهجة للنفس، فعلى الإنسان الأ ينسـى نفسه والاّ يخسرها، لكن ايُّ نفس هذه؟ ان كانت هي النفس المذكورة في الآيات الأولى الذامّة والمندّدة، فيا حبذا ان تكون منسيَّةً دائما وابداً، ولكن المستفاد من توبيخ الآيات هناك ان المراد بالنفس هنا معنى مقابلاً لما هناك، هذا كله من حيث نظر القرآن.

**النفس في السنة والروايات:**

امـا مـن حيـث نظر السُّنة والروايات فنجد النفس وهواها في نهج البلاغة، وقد مُزقت شر مُمزق وغدت كعصف مأكول ، لقـد تُعومل معهـا

---

(١) الحشر، آية: ١٩.

(٢) الزمر، آية: ١٥.

بشدة وعنف عجيبين، نقرأ فيه:

«إنَّ المؤمن لا يصبح ولا يمسي الاَّ ونفسه ظنونٌ عنده»[١].

فالمؤمن ينظر دائما الى نفسه ظاناً بها السوء، فهو كرجلٍ له جارٌ خائن، لا يطمئن اليه ودائماً يحذر خيانته. وفي الادب الاسلامي، سواءٌ العربي ام الفارسي، توجد اشعارٌ كثيرة في هذا المجال، يقول «سعدي» في «بوستان»:

* قال لي الشيخ الحكيم المرشد شهاب حكمتين على السفينة، الاولى لا تُسئ الظن في الناس، الثانية ان لا تحسن الظن بنفسك ولا تُعجب بها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر من نهج البلاغة نرى تقديراً وتكريماً عاليين للنفس، من ذلك ما نقرأه في وصيته ــ عليه السلام ــ للإمام الحسن المجتبى ــ عليه السلام ــ حيث كتب فيها:

«واكرم نفسك عن كل دنيّة وان ساقتك الى الرغائب، فأنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عِوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً، وما خيرُ خيرٍ لا ينال الاَّ بشرٍ؟ ويسرٍ لا يُنال الاَّ بعسر؟»[٢] ونظير هذا المعنى وردَ شعراً عن الامام الصادق ــ عليه السلام ــ المنقول في البحار(ج:٤٧ ــ ص:٢٥)، روى الاصمعي له عليه السلام:

أُثامنُ بالنفس النفيسةِ ربَّها ... وليس لها في الخلق كلهم ثمَنُ
بها يُشترى الجنّات، ان أنا بعتها ... بشئٍ سواها انّ ذلكم غبَنُ
إذا ذهبت نفسٌ بدنيا اصبتَها ... فقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثَمنُ

---

(١) نهج البلاغة، خطبة (١٧٦) تحقيق صبحي الصالح.

(٢) نهج البلاغة، ص٤٠١ قطعة ٣١. تحقيق صبحي الصالح.

وروي عن الامام السجاد عليه السلام قولُه حينما سألوه:

«من اعظم الناس خطراً؟ ، قال: مَن لن يَر الدنيا خطراً لنفسه»[١].

وإذا نــرجع الى نهج البلاغة مرةً اخرى نسمع امير المؤمنين عليــاً ــ عليه السلام ــ يقول:

«مَن كرمت عليه نفسُه، هانت عليه شهواته»[٢].

إنَّ كرامة النفس، عزة النفس، مخالفة النفس، احترام النفس.. تعبيرات وردت بكــثرةٍ في الروايات ، ويخطر ببالي الآن محاضرة ألقيتها في الثالث مــن شعبان ذكرى ولادة الامام الحسين بن علي (ع) قبل ثلاث عشرة سنة، وكانت بعنوان «مسألة النفس في الاخلاق»، ومنذ ذلك الوقت بَرزت لديَّ هذه الفكــرة وتلك النتيجة، وكلمَّا قرأتُ وطالعتُ اكثر ازداد اعتقادي ويقيني بها، والنتيجة المستخلَصَة هي أنَّ المحورَ الاساس في نظرية «الاخلاق الاسلامية» والــنقطةَ الــتي وضــع الإســلام اليد عليها من الإنسان، هي كرامة النفس الإنسانية وعزتها وعظمتها، وسأذكر الآن جانباً من تلك المذكرُة:

## عزة النفس

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنيــن**﴾[٣].

وقال الرسول الاكرم (ص): ﴿**اطلبوا الحوائج بعزة الانفس**﴾[٤].

---

(١) تحف العقول، ص٢٠٠.

(٢) نهج البلاغة، ص٥٥٥ حكمة رقم ٤٤٩ صبحي الصالح.

(٣) المنافقون، آية: ٨.

(٤) نهج الفصاحة ص٤٦، حديث ٣٢٥.

الإنســـان يحـــتاج الآخـــرين بلا شك ، ولكن السؤال هو: هل عرض الحاجة على الآخرين امرٌ حسنٌ اولا؟

فـــريق يقولـــون إنه أمر حسنٌ ولا ضيرَ فيه ، ومن هذا الفريق أُناسٌ كـــانوا يعيشون في «اليونان القديم» ويُعرفون بـــ«الكلبيين»، وكانوا يوصون بالدنـــاءة والذلـــة خيراً، وفي اعتقادهم أن مَن يذلّ نفسه ويظهر دناءته، فهو الاعـــلى اخلاقـــاً والاكثر تساميا، ولا غرابة في هذا، فإن الاخلاق الصوفية كـــانت منتشرةً آنذاك في اليونان. وحتى في «اخلاقيات» متصوفينا قد تُرى تعبيرات تضاد ما تقدم من تعبيرات اسلامية في هذا المجال ، فقد ظهر على المسرح فريقٌ من المتصوفة يُعرف بـــ«ملامتيان»[١] وكانوا يقولون:

كـــي نُذل النفسَ اشدَّ اذلال، يجب علينا ان نكسر انفسنا ونذلها امامها بكل استطاعتنا، وهذا هو منشأ اسم «خاكسار» الموجود الآن بين المتصوفة، فهؤلاء هكذا كانوا يعتقدون ويعملون كي لا تكون للنفس اهميةٌ عندَهم، وبهذا المعنى يقول «سعدي»:

---

(١) «الملامـــتيّة» طـــريقة ظهرت في منتصف القرن الثالث الهجري ومنظِّرها الاول هو «حمـــدون بن احمد عمارة» المتوفى سنة ٢٧١ هـــ وعمل على نشرها وترويجها ابو حفـــص عمـــر بن سلمة الحداد وتلامذته مثل ابي صالح حمدون القصار وابي عثمان مـــعيد الحيـــري المتوفى ٢٩٨هـــ وغيرهما. تقوم هذه الطريقة على فكرة خلاصتها: الهرب من الشهرة والانزواء عن الخلق، اذلال النفس بقدر الامكان حذراً من طغيانها وادعائها الكرامة. ولذا يخفون حالاتهم الصوفية ويعتبرون اذاعتها كشفاً للسر الموجود بيـــنهم وبيـــن الله تعالى، وهم لا يهتمون بالمبالغة في العبادات والطاعات، بل يكتفون بالفرائض والواجبات بشرط الصدق والاخلاص. ـــ المترجم ـــ .

* أنا افتخر بأني نملةٌ تُداس تحت اقدام الناس، ولست نحلةً يبكون من لسعتي..

ومقصـــود «ســـعدي» هو أنْ ايذاء الناس امرٌ سيئ في نظر الاسلام. ولكـــن: هـــل الامـــر دائرٌ فقط بين كون «المرء» نملةً او نحلةً حتى أقول: اشـــكرك يا الهي، فانا لا امتلك القوة والقدرة وبالتالي فأنا لا أظلم الناس؟ إن كون الإنسان فاقداً للقدرة وغير ظالم للناس ليس امراً ذا شأن، بل الشأن كله هو ان يكون مقتدرا مستطيعاً لكنَّه لا يؤذي احداً ولا يظلم، فلسان حال المسلم يجـــب ان يقـــول: اشكرك يا الهي حيث جعلتني امتلك القدرة ولكني لا اظلم الـــناس. فمـــا نظمه «سعدي» من شعر إفراط في «الاخلاق» وهو جانبٌ من مذهب المتصوفة «الملامتية» الذي لا يرتضيه الإسلام ابداً.

نقـــلوا عـــن ابـــراهيم بن أدهم وكان من «مشايخ الصوفية» أنه قال: ســـررتُ في اوقات ثلاثة سروراً اعظم من ايِّ وقت آخر، **الاول:** حين كنت فـــي «مســـجد بيت المقدس» وكنت آنذاك مريضاً جداً، ولم يكن برفقتي احد، فنمت في زاوية المسجد. بعدَ قليل جاء خادم المسجد وايقظ النائمين، ثم التفت الـــيَّ وقـــال: هيَّا استيقظ.. ولكني لم تكن لديَّ القدرة على النهوض، فأمسك برجـــلي وجـــرَّني إلى الخارج. وقد فرحـــت بهذا كثيراً لأني صرتُ امامه ذليلاً!

**الثاني:** كنت أنفش فروتي يوماً وأنظفها فوجدت قملاً كثيراً جداً بحيث انـــي لـــم اســـتطع أن أعرف هل أن صوف الفروة أكثر أم هذا القمل! وقد سرتني هذه الحالة أيضاً لأنها أشعرتني بدناءة نفسي وحقارتها.

**الثالث:** كنت يوماً راكباً زورقاً مع جماعة، وكان معنا رجلٌ سيئ، كان

يـــلهو ويمزح فتحلّق حوله الجماعة ، وكان مما قاله: خرجتُ لحرب الكفّار ففعلت كذا وكذا، ثم أسرتُ اسيراً وجررتُه من لحيته. ثم تطلع حوله فلم يجد احـــداً أضـــعفَ جانـــباً مني، فجاء اليَّ واخذ بشعر لحيتي ثم شرع يعيد تلك القصـــة ويقول: هكذا اخذت ذلك الاسير. اما أنا فقد سُعُدتُ جداً بهذا كعادتي لما أصابني من الذلة والانكسار!...

هـــذا هـــو الإفراط في الاخلاق المقابل للتفريط فيها. وفي قبال هذا الفـــريق فـــريق لا يعرضـــون حاجاتهم على احدٍ مهما ممتّت واشتدت، لكن الرسول ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول:

«إطلبوا الحوائج بعزةِ الانفُس».

فـــلا مانع في ان يعرض الإنسان حوائجه على اصدقائه وأصحابه ما دامـــت كرامته مصونة وشخصيته محترمة. ومن خطبة لأمير المؤمنين (ع) بصفين قال:

«فالموت في حياتكم مقهورين، والحيوة في موتكم قاهرين»[1] فالحياة هي النصر والعزّة ولو تحت الثرى، والموت هو الذل والهوان، يقول الحقّ تعالى **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين﴾**.

**عزّة «النفس» في كلام الامام الحسين (ع)**

رغم قلة المأثور عنه ــ عليه السلام ــ الاّ انه بالمقارنة مع كلام بقية الائمـــة ــ عليهم السلام ــ نجد انه ــ عليه السلام ــ اكثر حديثاً عن كرامة «النفس» وعزّتها، من ذلك قوله: «موتٌ في عزٍ خيرٌ من حيوة في ذل». وله

---

(١) النهج، خطبة رقم : ٥١.

ــ عليه السلام ــ جملةٌ مدوية، وهي شعار «هيهات منّا الذلة».

كما أن له جملة معروفة وهي عجيبةٌ حقاً، وستظل من العبارات الخالدة التي تشع نوراً وتفيض حرارةً الى يوم القيامة، يقول ــ عليه السلام ــ «الا وإن الدعي ابن الدعي، قد ركز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجوّر طابت وطهرت ، وأُنوف حميّة ونفوسٌ أبيّةٌ من ان نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام» (١).

كان ــ عليه السلام ــ في يوم عاشوراء يمتطي جواده ويخطب في جموع أعدائه رافعاً صوته بقوله «هيهات منّا الذلة» كان هذا شعاراً يشق عنان السماء ويزلزل الارض تحت اقدام الظالمين كأنه ــ عليه السلام ــ يقول: اين الذلة منّا ؟ بيننا وبينها بعد السماء عن الارض.

ومن أقواله أيضاً «والله لا اعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا افرُّ فرار العبيد» (٢).

ومن كلماتهم ــ عليهم السلام ــ في هذا المجال ــ وهي كثيرة ــ يُعلم الربط الوثيق بين «العزة» وبين كريم الاخلاق، وبين ــ الذلة ــ والاخلاق الرذيلة، يقول ابو عبد الله ــ عليه السلام ــ : «الصدق عزٌّ والكذب عجز» بمعنى ان الكذوب يجد الدناءةَ في نفسه والعجز عن مواجهة «الحقيقة» وتحمل تبعاتها، أما الشريف ذو العزّة فلا يكذب ابداً. ويقول عليٌّ ــ عليه السلام ــ

---

(١) مقتل الخورزمي، ج٢ ص٨ . وتحف العقول ص١٧١.

(٢) انساب الاشراف، ١٨٨/٣

«الغيبة جُهد العاجز»[١] لأن المغتاب الطاعن يجبن عن مواجهة المغتاب المطعون ، فيلجأ إلى طعنه في ظهره. أما صاحب المروءة والقدرة، فهو انبل من ذلك.

**عزة النفس في كلام امير المؤمنين والامام الصادق ــ عليهما السلام ــ**

في وسائل «الشيعة» عن علي ــ عليه السلام ــ : «ليجتمع في قلبك الافتقارُ الى الناس والاستغناء عنهم، يكون افتقارك اليهم في لين كلامك وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك»[٢] أي: ليكن لديك احساسان متضادان: احساسٌ بالافتقار الى الخلق، واحساس بالاستغناء. كن هشّاً بشّاً متوددا لخلق الله وكأنك تطلب عوناً وتروم حاجةً، وفي ذات الوقت كن عزيز النفس غير باذل ماء وجهك مترفعاً عما في ايدي الناس مستغنياً حتى عن الافلاك برمتها، يقول ــ عليه السلام ــ في نهجه: «ما احسن تواضع الاغنياء للفقراء طلباً لما عند الله، واحسن منه تيهُ الفقراء على الاغنياء، اتكالاً على الله»[٣] وفي هذا الاتجاه نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي:

«الحمد لله الذي وكَلني إليه فاكرمني، ولم يكلني إلى الناس فيهينوني»[٤].

وفي وصيته ــ عليه السلام ــ لابنه الحسن: «لا تكن عبد غيرك وقد

---

(١) النهج ، حكمة رقم : ٤٦١.

(٢) تحف العقول، ج٢١.

(٣) النهج ، حكمة رقم :٤٠٦.

(٤) مفاتيح الجنان، دعاء ابي حمزة الثمالي.

جعلك الله حراً»[١] هذه الجملة الذهبية جرت على لسانه قبل اكثر من ألف واربعمائة عام، وهي ذاتها التي أُفتتحت بها الوثيقة العالمية لحقوق الإنسان التي اعلنت عقيب الثورة الفرنسية، فقد جاء فيها «ان الله خلقَ الناس احراراً»[٢].

وفي «تحف العقول» عن الصادق ــ عليه السلام ــ «ولا تكن فظّاً غليظاً يكره الناس قُربك، ولا تكن واهناً يحقرك من عرفك»[٣] أي: كن دمث الاخلاق لين الجانب طلق الوجه، لا متكبراً مصعراً خدّك للناس لئلا يزهد الناس في قربك، وكن في ذات الوقت عزيز النفس مرهوب الجانب، ولا

---

(١) النهج ، رسالة :٣١.

(٢) ذكر الاستاذ الشهيد هنا اموراً لا ربط لها بأصل البحث، ولذا رأينا حذفها من المتن واثباتها في الهامش حفاظاً على نظم البحوث ورصانة العرض، وعذره في ذلك انه كان في مقام الخطابة لا الكتابة، والخطابة تسع ما لا تسعه الكتابة،١ واليك ما ذكره رحمه الله تعالى ، قال:وايضاً اذا قرأنا نهج البلاغة ، فسنرى جملةً يقول ــ عليه السلام ــ «قدر الرجل على قدر همته، وصدقه على قدر مروّته، وشجاعته على قدر أنفته، وعفته على قدر غيرته» «النهج حكمة :٣٠٥» فليست الشجاعة منوطةً بقوّة الابدان، بل بقوّة القلب وثبات الجنان مع تبصرٍ واحتياط. ثم انه ــ عليه السلام ــ ربط بين العفة والغيرة، وذكر ان الاولى فرع الثانية. فمن لا عفةَ لديهم ، لا غيرةَ عندهم ايضاً، وغير العفيف هو الذي لا يغار على عرض الآخرين لأنه لا غيرة لديه على عرضه وناموسه، والاّ لو كان ذا غيرة على ناموسه لتعفف عن اعراض الناس، وتأكيداً لهذا يقول ــ ع ــ ايضاً «ما زنى غيور قط» ، فمن يزني لا غيرة له وهو لا يبالي اذا ما زُني بأهله ، لانه امات حسَّ «الغيرة» في نفسه.

(٣) تحف العقول ص٣١٦.

تلبس ثوب الذل والمسكنة فيحتقرك الاخرون. لأن العزةَ لله ورسوله والمؤمنين[١].

## ثنائية النفس

عرفتَ فيما سلف من البحوث أن التوصيات الإسلامية تطالب ــ باعتبارٍ ــ بمبارزة «النفس» وإماتتها، وفي المأثور «موتوا قبل ان تموتوا» كما تطالب ــ باعتبار آخر ــ بتكريمها واعزازها وتحريرها، ولكن ما معنى ذلك ؟ هل معناه ان للإنسان «نفسين واقعيتين» ومستقلتين؟ ام ماذا ؟.

والجواب: أن معنى ذلك: أن هاتين النفسين، ليستا في عرض واحد، بل ــ إحداهما ــ «دخيلة»، والاّ ففي الحقيقة ليس للإنسان سوى «نفس» واحدة واقعية وهي «ذاته». وله «نفس» «أخرى» وهي واقعاً ليست «نفساً» له، ولكنه يتصور خطأً انها «نفسه»، فحينما يُقال: يجب مبارزة «النفس» فالمراد به «النفس السرابية» للإنسان ، فلست «انتَ» ما تتصوره انه «انت» فهذه «النفس اللانفس» يجب ابادتها حتى تظهر «النفس الواقعية الاصيلة» من خلف

---

(١) انت خبير عزيزي القارئ ــ بأنه ليس معنى ذلك جواز تحقير المؤمن والنظر اليه بعين الإزدراء لمجرد انه ضعيف الجانب خامل الذكر، فأن ذلك محرمٌ جزماً. لأن المؤمن اعزّ عند الله تعالى من الكعبة، واكرم كما جاء عنهم (ع). بل معنى ذلك: ان الناس جرت سيرتهم الخاطئة ــ لعوامل عدّة لا صلة لها بالدين والاخلاق الانسانية الاصيلة ــ على تكريم القوي بلا حساب، وتوهين الضعيف بلا حساب. فحفاظاً على شخصية المؤمن وكرامته، عليه تجنب ما يكون سبباً ــ في عرف الناس ــ للسخرية والمهانة. وهذا نظير قول الصادق ع: رحم الله من جنبُ الغيبة عن نفسه. بمعنى: تجنب مواضع التهمة والريبة، لا جواز الغيبة. (المترجم).

الحجب والاستار.

وهـذه «الثـنائية للنفس» هي ما توصل اليه البشر بعد جهود علمية وفلسفية قاموا بها في حقل «النفس» لكنهم ما عرفوا تفسيراً لذلك.

وهذه المسألة لم تُطرح الاّ حديثاً ، بينما افصح عنها و بينها ائمة الدين قـبل «١٤٠٠» عامـا. وقـد طرحت على يد «هيجل» والظاهر انه اول مَن طـرحها تحـت عنوان «الإنفصال عن النفس» وهو تعبير آخر عن «نسيان الـنفس» الـذي طرحه القرآن قبل «١٤٠٠» سنة. والقرآن الكريم يؤكد في طـرحه على وجوب إماتة «نفسٍ» وإحياء اخرى، على اكرام «نفسٍ» وإذلال اخرى لأن احداهما مظهر الرذائل والاخرى مظهر الخير والفضائل، وبإحياء «الـنفس» الواقعية تحيى الاخلاق المرضية. والصفات الكريمة، وتموت في مهدها اضدادها، وهذه النفس الشريفة هي المانعة من انزلاق صاحبها، لانها لا تجيـز لـه تـرك «الصـدق» مثلاً وممارسة «الكذب» او ترك «الامانة» وارتكـاب «الخيانـة» او التفريط في العزّة والرضا بالذلة، او التفريط بالعفة وممارسة «الغيبة» وامثال ذلك ولهذا يقول الإمام الهادي ــ عليه السلام ــ :

«من هانت عليه نفسُه، فلا تأمَن شرَّه»[1].

ويقـول اميـر المؤمنين علي ــ عليه السلام ــ ما معناه: اذا استشعر المـرء كرامة نفسه وشرفها نفر من إتباع الهوى، وسهل عليه تنكب طريق الشـهوات. وبـناءً عـلى ما تقدم تكون هذه المسألة ( ثنائية النفس) محلولةً ومفسـرةً بنظر الاسلام، ذلك انّ الانسان وان كان حيواناً الاّ انّ فيه في ذات الوقت ــ كمـا يعبر القرآن الكريم عنه ــ نفخة من الروح الالهية، والنـور

(١) تحف العقول، ص٣٥٨.

المـلكوتي، وهو يُشرق في وجود كل انسان، و «الانا» الواقعية للإنسان هي «الانـا» الملكوتية هذه، واما «الانا» الحيوانية في الانسان فهي «طفيليةٌ» ولا اصالةَ لها.

يقول الفلاسفة المسلمون في باب «المادَّة والصورة»:

ان الفعلية الاخيرة لكل موجود، هي حقيقة ذلك الموجود.

ولا شـئ غيـر «الفعلية» يُعتبر جزءً من حقيقته، كما لا تأثير له في «فعليـته». وعـلى هـذا، فما يوجد في ــ الحيوان ــ من ميول، انما تخلقه «الانـا» الواقعيـة لـذلك الحيوان، وهذه «الانا» تصبح «أنا» طفيليـةً فـي الإنسـان، فانا آكلُ واشرب وانام وامشي، كل ذلك مرتبط بي، ولكن ذلك في المرتـبة النازلة «للانا». وهي ذاتها التي تقول: انا افكر، انا اعرف الله، انا احـبُّ ان أؤثـر الاخرين عليّ، فكل ذلك مرتبط بـ «انا» واحدة، لكن لهذه ــ الانـا ــ درجـات، فـ «الانا» التي تتكلم كلاماً رفيعاً راقياً هي «الانا» الانسانية العالية. و«الانا» التي تتكلم كلاماً حيوانياً هابطاً هي «الانا» الانسانية السافلة.

## صراع داخلي

ان مـن خصوصـيات الانسان، وجود جدال ونزاع وامر ونهي بين نفْسـيه، أي: بين كلتى «الانا». ويُعبر عنه بالجدال بين «العقل والنفس»، او بيـن «الإرادة الاخلاقيـة وهوى النفس»، وهذه «التجربة» كثيراً ما تحصل للإنسان، فتراه يعزم على فعل شئ يضاد ميله الطبيعي، بحيث يكون «ميله» فـي جهـة، ومـا عزم عليه في جهة اخرى مضادة، ومثال ذلك: أن يضع الطبيب «نظاما غذائياً خاصاً» لمريضٍ ما، فيمنعه ــ مثلاً ــ من تناول بعض

الفواكه، او يسمحُ له بتناول كمٍ مُحدد، فهذا المريض يعزم بكل جد على اتباع توصيات الطبيب، ولكن «الميل» ما يزال موجوداً عنده، ولذا، تبدأ فعلية ذلك «الميـل» بمجـرد ان يجلس الى المائدة فيدعو الإنسانَ الى أكْل الممنوع من الطعـام وبتناولـه، لكن «الارادة والعزم» يقفان بالمرصاد مقابل هذا «الميل والهـوى»، فيكون عقلُه غالباً ونفسه مغلوبة، وتارة يعمل ضد «عقله» فتكون نفسه متفوقةً على عقله.

وقـد يُصـمم إنسان ما على ان يكون من اهل الاسحار، فإذا استيقظ سـحراً، واراد الـنهوض أتى اليـه «الميل» ليقول له في اذنيه: ابقَ في هذا الفـراش الـدافئ ولا تبرحه، أما الارادة الاخلاقية فتقول له: هيا إنهض ولا تـتوانَ، ففـي مثل هذا الموقف، قد ينصاع الإنسان للإرادة ويعمل ما يضاد «ميلـه» وطبيعـته، وقـد ينصاع «لميله» ويجاري طبيعته فيبقى في مرقده مـرتاحاً. وهذا النزاع والاختلاف لا وجودَ له في الحيوانات، بل هي تسير وفق طبائعها وميولها المغروسة فيها بيد بارئها تعالى.

اذاً ــ وكمـا يقول علماء النفس ــ : هذا الجدال الداخلي للإنسان هو بيـن نفسيه. وبعبارة اخرى: في باطن الإنسان قوتان متصارعتان، وهما في صـراع دائـم فواحـدة تقول: قم بهذا الفعل، والاخرى تخالف ذلك وتعلن معارضتها. فإذا ما انتصرت الميول الطبيعية الحيوانية على الارادة الاخلاقية أصـيب الإنسـان بالخجل والإنكسار والتقهقر، وهو في هذه الحال كالفارس الشـجاع المرسـل الى ساحة الوغى لمبارزة فارس آخر ومقارعته فيُصاب بالهزيمة ، فيشعر وقتها بالانكسار وتعلو وجهه حمرة الخجل.

وخـلاف ذلـك مـا إذا انتصرت «الارادة الاخلاقية» على «الميول»

الطـبيعية، فيقوم ذلك المريض من المائدة وقد نفّذ توصيات الطبيب، أو يقوم ذلـك الانسـان سحراً ويغادر فراشه الدافئ رغم امر طبيعته أياه بملازمته، فيعصي امرها ليشرع في برنامجه العبادي، فتراه وقد غمره احساسٌ بالنصر والمسرة.

وهذا الصراع قائم عند كل فرد، ولا أظـن أنَّ احـداً لم يمارس هذه التجربة في نفسه.

و«الارادة الاخلاقيـة» للإنسـان، هي تعبيرٌ آخر عن «نفسه» الواقعية الاصيلة، كما انّ الاحساس بالانكسار والضعف من مفرزات «نفسه» السرابية المزيفة، وهي «النفس» التي يجب عليه مقارعتها ولجمها وعدم تركها مطلقة العنان تجول في الميدان وتصول، والواقع انّ هذه الحرب الخفية الداخلية في الإنسـان تـدور رحاها بين «النفس واللانفس». فإن تغلب «الهوى والميول» الحيوانية وصارت بيدها الحكومة المطلقة، اختفت الارادة والفطرة الإنسانية وانزوى العقل. فالشهوة والفضيلة فارسا ميدان النفس وبطلا حلبتها.

انّ الإنسـان الذي لا تحكمه سوى المشتهيات الحيوانية، لا يخسر في الحقيقة سوى «نفسه» الواقعية:

**﴿قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة﴾**[1].

ترى فكره محكوماً بالمال والمأكولات والملبوسات، ويحسب ما ليست «نفسـاً» «نفسـاً» وهو لا يعلم انه نسي «نفسه» ومع ذلك إذ يتحدث، يتحدث دائمـا عن «النفس»، يقول القرآن: لقد نسيت نفسك! وهذه النفس التي تتعامل معها هي «النفس الطفيلية» ليس غير: **﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانسيهم**

---

(١) الزمر، آية: ١٥.

انفسهم﴾[١] القرآن يطرح «النفس المذمومة» والتي يجب نسيانها قبال «النفس اليقينية» الواقعية، وهذه «النفس» لا تنفك معرفتها عن معرفة الله تعالى وهما متلازمتان في نظر القرآن ولا ينفصلان، فمعرفة الله تعني معرفة النفس، وحقيقة العبادة هي العثور على تلك «النفس» الحقيقية الملكوتية والوصول اليها. يقول علي ــ عليه السلام ــ في مقولة عظيمة له: «عجبت لمن ينشد ضالته وقد اضل نفسه فلا يطلبها»[٢].

ولا ننسى هنا «مولوى» إذ يقول:

* انت، يا من قتل نفسه في المعركة، اذ لم تُميز «نفسك» من الاخرين..

* انت كلمّا وقفتَ قبال المرآة، قلت: هذا انا. انت لست مَا في المرآة.

وقد يقف المرء امام المرآة ويتصور انه يرى نفسه وينظر اليها، والحال ان تلك الصورة المرئية ليست «هو». اما «مولوي» فهو يقدم هنا اقتراحاً ويقول: اذا اردت ان تعرف هل أضعت نفسك اولاً؟ فبأمكانك معرفة هذا السرّ عن طريق الخلوة والوحدة .

بمعنى: أنك اذا انزويتَ عدّة ايام ولم تَر فيها أناساً آخرين، فسوف تحيط بك «الوحشة» وتعتريك السآمة، لماذا؟ لأنك قد ضعتَ فيهم، فأنت تبحث عن «ذاتك» فيهم. اللهم إلاّ إذا عثرتَ على «ذاتك» والتقيتها، فحينئذٍ لن تشعر بذرة من «الوحشة» او بلحظةٍ من ضيق القلب حتى لو بقيت في خلوتك مائة عام.

---

(١) الحشر، آية: ١٩.

(٢) غرر الحكم، ج٢، ص٤٥٩.

«نفس» البخيل

البخيل من «مصاديق» الذين اضاعوا انفسهم ، ولعليٌّ ــ عليه السلام ــ كلامٌ في هذا المعنى. البخيل إنسان اضاع نفسه، وصارت الاموال والثروة غايته ومنتهى طموحه والبسها ثوب الاصالة، وبتعبير علماء نفس اليوم، حكّم المال وثبته. فالنقود هي «الانا» في نظره ولا توجد «انا» اخرى غير المال والنقود. وهو يريد نفسه للمال دون العكس، ولأجله يغمض عينيه عن روحه وحياته ونجاحه وعمره كله، وليس مستعداً لأن يغمض عينيه عن المال لصالح سلامته وسعادته.

يقول عليه السلام في نهج البلاغة «عجبت للبخيل، يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب، فيعيش في الدنيا عيشَ الفقراء ويحاسب في الاخرة حساب الاغنياء»[1].

انه سيئ الحظ حقّاً ، فهو يستبدل «نفسه» بالنقود ولا يملك «نفسياً» ان يستبدل «النقود» بنفسه، فيلبس ما خُلق من اللباس ويأكل ما خشُن من الطعام حتى يدخر قليلاً من المال. فهو فقير، لأنَّ مَن لا ينتفع بطعامٍ ومسكنٍ ومركبٍ وملبوسٍ لائق وحسن فهو فقير، والبخيل وان كان غنياً، إلاَّ أنَّه يعيش مرارة الفقر وصعوبته، يقضي عمره في تناول الخبز والجبن اشفاقاً وحذراً من الفقر ، فيخسر بذلك «نفسه» الواقعية.

وفي هذا السياق تمثيل لطيف «لمولوي» حيث يقول:

* لا تبن بيتاً في ارض الاخرين، انجز عملك انت ولا تُنجز عمل

(١) نهج البلاغة، ص٣٩١، حكمة: ١٢٦.

الغريب

* الغريب مَن؟ هو بدنك الترابي، الذي هو علةُ غمك وبُؤسك.

* وما دمت تُعطي البدن المرَّ والحلو.. فلن تجعل جوهرةَ الروح تتألق أبداً.

* إذا طُليَ ذلك البدن بالمسك.. فسوف تفوح رائحته النتنة حين الموت.

* فــلا تطــلِ البدن بالمسك واطلِ به الروح، هل عرفتَ المسك؟ هو الإسم المقدس لذي الجلال.

افترضـــوا ان شخصاً أعدَّ ارضاً لبناء مسكن له،إلا أنه ولسبب ما، لم يكن يبني في النهار، بل كان يشتغل بالبناء ليلاً فقط، وقد أتعب نفسه وأجهدها وأنفــق امــوالاً حتى أتم المنزل. فلّما اراد الإنتقال إليه وإتخاذه سكناً، فوجئ بأنــه قــد شيّد المنزل المطلوب في ارض الاخرين!! وان ارضه المجاورة خاليــةً لا شيء بها حتى ولا لُبنةً واحدة! فماذا سيكون شعوره في مثل هذه الحال؟

هكــذا هي حال الإنسان عندما يرى ساحةَ القيامة، سوف يُعاين نَفسه وبراها صفرَ اليدين ومجردةً من كل شيء كارض صاحبنا المذكورة. سوف يــدرك ان الشيء الذي لم يقدم لــه شيئاً ولم يدخر له مؤنةً هو «نفسه»، وان الشــيء الاخــر الذي سعى من اجله وعمل له ، ليس ملكاً له، لأنه كان في ارض الاخرين.

## روح الانسان منبع الحس الاخلاقي

«الانــا» الواقعيــة لكل انسان في نظر الاسلام هي تلك النفحة الالهية الســارية فيه، والاحساسات الاخلاقية انما تنبع من هذه «الانا»، ولولا وجود

هـذه «الانـا» الواقعية في الانسان لانطفأت هذه الاحساسات وانعدمت لعدم ملاءمـتها للشهوات الحسية. والعجب ان الفكر «الغربي» ولاسباب ليس هنا محـل ذكـرها ـ (وللميول الشهوانية والاهواء النفسية دور فاعل في ذلك) يرفض الاعترافَ بوجود روحٍ ملكوتية عُلْوية للإنسان. (هذا بطبيعة الحال لا يعم الجميع، اذ يوجد فيهم «روحيون» كثُر يسلمون بذلك).

ولكـن رغم انكارهم لذلك الاّ انهم يدركون وجود اهتمامات انسانيّة لا تـتلاءم والطـبيعة المادّيـة الظاهرية للبشر. وهذا يعني بجلاء ان «الروح الانسـانية» طريق لاحب للمثل والمعنويات، يدركُ الإنسان من خلاله حقيقتَه الخالدة، وان روحه ستظل فاعلةً وخلاّقه حتى بعد الموت الظاهري.

وممن صرّح بوجود ابعادٍ واهتمامات لا تتفق والطبيعة المادية، «ويليام جيمز»[١] (وهو رجل الهي، واكثر آثاره المترجمة غاية في الجودة، لا سيما كـتاب «الدين والنفس»). وهو من الفلاسفة المرموقين، وقد مضت على وفاته ستون سنة لا اكثر) فقد صرح في كتابه المذكور بهذه الحقيقة. وذكر انه كما ان الغرائـز الماديـة تشدُنا للمادة وتربطنا بها وتُعتبر قنوات اتصال لا غنى عنها بين الإنسان والعالم المادي (وذلك كالشعور بالجوع، فأنه يُلجئ الانسان لطـلب المادة والغذاء)، كذلك توجد غرائز فطرية تشدنا نحو عالم آخر يباين تماماً عـالم المادّة، وبهذه الغرائز يتوصل الانسان لذلك العالم الخفي ويلبي رغباته وتطلعاته المعنوية.

ولكن الفلاسفة الماديين لا يرتضون هذا المنطق، ويسلكون في توجيه

---

(١) ويـليام جيمز ١٨٤٢ ـ ١٩١٠م عالم نفس وفيلسوف اجتماعي امريكي مشهور، من كتبه «ارادة الايمان»، «انواع من التجربة الدينية»، «معنى الحقيقة».

هذه الميول المعنوية طريقاً اخرى حاصلها:

ان الانسان يطلب شيئين ، هما: ١ ــ المنفعة ٢ ــ القيمة. فالمنفعة يطلقونها على النزعات المادية، والقيمة على النزعات المعنوية. وهم يحسبون أنهم بهذا الزخرف يقدرون على طمس الحقيقة والالتفاف عليها. ولئن سألتهم : ما هي هذه «القيمة»؟ فسيقولون: هي شيء ما لا نفع فيها للإنسان ولا تقضي له حاجة، كما انها لا تساير المنطق ولا تنسجم ومعطيات العقل، مثل «الإيثار» والتضحية في سبيل الآخرين، فإنه خلاف حكم العقل القاضي بلزوم جلب النفع للذات والضنّ به، ولكن مع هذا، فهذا «الشيء» او «القيمة» موجود لدى البشر ولا يمكن انكاره فالإنسان لديه ميل وانجذاب نحو التضحية والعدالة والحرية والحلم والصبر..، وهذه اكثرها لا تتلائم والنفع المادي، لذا فهي لا تُسمى «نفعاً» بل تدعى «قيمة».

وجوابنا عنه: انه محالٌ ان تكون لشيء ما قيمة واعتبار ولا يكون عقلياً ومنطقياً، والاّ فما هو مصدر هذه «القيمة» ومن هو الحاكم بها؟ يُضاف لذلك: ان «القيمة» في نفسها ليست شيئاً ذا بال. بل المهم هو «ذو» القيمة، وما دام «الشيء» غير مرتبط بحقيقة الإنسان، فلن يكون ذا قيمة في نظر «الانسان» و«ذو» القيمة ــ كما يقرر الاسلام ــ هو «الروح الملكوتية الموجودة بين جنوبنا» وهي «الشيء» النفيس الذي لا يباع لغير الله تعالى كما عبّر الصادق ــ عليه السلام ــ في بيت شعر سابق، ذلك ان «الروح» هي حقيقة الانسان ومنبع معنوياته. وهذه «المعنويات» هي خيرٌ كما ان «الماديات» كذلك، والفارق هو ان الطبيعة الحيوانية للإنسان لا تسعى وراء الخيرات المعنوية، بل الساعي اليها حثيثاً هي حقيقته الملكوتية. ومن هنا يكون الحس الاخلاقي طريقاً عريضةً توصل سالكها الى «نفسه الواقعية»

الخالصـــة ومـــن ثـــمَّ يصل الى عالم الغيب والملكوت، لأنه شعاعٌ من ذلك العالم[١] ولأن «الروح الإنسانية» نزلت من ذلك المحل الارفع «الملكوت» فهي عظيمة ومقدسة، لان الملكوت الالهي كذلك.

وعـــلى هـــذا: كلما كان الإنسان بنفسه اعرف وبروحه الصق، كانت سجاياه احمد واخلاقه اعرق، يقول عليٌّ ــ عليه السلام ــ «من كرمت عليه

---

(١) ذكـــر احـــد الحكماء ان لكل من «النفس والبدن» تأثيراً على الاخر، بمعنى ان افعال الجـــوارح ــ حســـنةً كانت او قبيحةً ــ تؤثر في النفس اثراً مسانخاً. فالسلوك السيء لـــلجوارح يعـــني تسافلَ الروح، والسلوك السوي يعني تعاليها. كما ان الهيئات العقلية والحـــالات النفسية يسري اثرُها للبدن ، يقول الشيخ الرئيس: «فهذا الجوهر ــ يريد: النفس ــ فيك واحد بل هو انت عند التحقيق، وله فروع وقوى منبثّة في اعضائك، فأذا احسســتَ بشئ من اعضائك شيئاً او تخيلت او اشتهيت او غضبت، القت العلاقةُ التي بينه وبين هذه الفروع، هيئةً فيك حتى تفعل بالتكرار اذعاناً ما بل عادةً وخلقاً يتمكنان من هذا الجوهر « النفس » المدبر تمكن الملكات، كما يقع بالعكس، فإنه كثيراً ما يبتدئ فـــتعرض فيـــه « في الجوهر » هيئةٌ ما عقلية، فتنتقل العلاقة من تلك الهيئة اثراً الى الفـــروع " ثـــم الى الاعضاء وهذا كله مستفاد من احاديث اهل بيت العصمة ــ ع ــ حيث دلت على ان ــ الروح ــ يوم العرض الاكبر تظهر مسانخةً لملكاتها وافاعيلها. حـــتى ان بعض « الناس » يُحشرون بصور هي اقبح من صور القردة والخنازير كما جاء في الخبر. وفي الخبر: المرء يُحشرمع مَن احب، ولو ان امرء احب حجراً حشر معه، أي: حُشر حجراً حقيقةً. ولكن هذه الصور الباطنية لا يراها في هذا العالم سوى مَـــن لهم عيون ذلك العالم الاخر، لانها من مراتب ذلك العالم. فصاحبها انسان ظاهراً لكـــن قلـــبه قلب حيوان. فيكون تحققه تحققاً حيوانياً. ومن هنا اكدّت النصوص على سلامة الاعتقاد والاخلاق وحسن العاقبة. وكتب الادعية طافحةٌ بذلك. نساله تعالى برد اليقين وحسن العاقبة. «المعرب».

نفســه، هــانت عليه شهواته، ولم يلوثها بحقير الاعمال)) ومثلُهُ الرجلُ يرى لوحــة فــنيةً رائعة كإحدى لوحات ((رافائيل))[١] ..مثــلاً فإنّه لا يخدشــها، لادراكــه جمــالهــا. ومن يدرك حقيقة ((نفســه)) الواقعية المفاضة عليه من الــنفخة الربانية، لا يمرغها في مســتنقع القاذورات من عجزٍ وهوانٍ وكبرٍ، لأنــه ((هــا مــن رجل تكبر او تجبر الاّ لذلةٍ وجدها في نفسه))[٢] فالمتكبر اضاع ((ذاته)) الكريمة فداخله شعورٌ بالذلةِ فيتكبر ستراً لها. وكذلك ((المتجبر)) فهــو يظــلم الاخــرين انتقاماً لعزّة نفسه الضائعة منه في مجاهل ((النفس)) المســرابية، ولــو أنه ادرك العمق الوجودي لذاته لما مشى في الارض مرحاً يحسب انه يخرق الارضَ او يبلغ الجبالَ طولاً! وانت اذ ترى النوع الإنساني محبّاً للعلم ولعاً به فلأنّ حقيقته متنزّلة من عالم ((العلم)) والنور، والشيء إلى جنسه اميل.

ومــن هنا تراه يرى ((الجود)) خيراً معنوياً ــ او ذا قيمةٍ بتعبيرهم ــ لان ((الجــود)) يسانخ عالم الرحمة والفيض غير المتناهي، وهو لديه احساسٌ بانــه مــن عــالم ملؤه الرحمة، ولازم ذلك الجود وإضافة الخير. وخلاصة القول:

ان الاطــروحة الاســلامية ترى ان الحسَّ الاخلاقي منبثق من العثور عــلى ((الــنفس)) الواقعية ودركها، وبدون ذلك يتعذر بناء حسّ اخلاقي يتسّم

---

(١) رافــائيل ١٤٨٣ ــ ١٥٢٠ ، مــن اعظم الفنانين الإيطاليين في الرسم والبناء، انتدبه الــبابا ((يوليــوس الثاني)) و((لاون العاشر)) لتزيين قصر الفاتيكان، من لوحاته الشهيرة ((مدرسة أثينا)) و ((العذراء))، يتسم رسمه بالتوازن في دقة الرسم وطلاوة الالوان.

(٢) اصول الكافي ، ج٣ ص٤٢٦ح١٧.

بالواقعية والشمولية فردياً واجتماعياً. ومَن يعتقد خلاف ذلك فقد وقع في هوّةٍ لا قرار لها ، لعدم امكان حصرَ «العمق الإنساني» في حدود «النفس» الظاهرية المسجلة في بطاقة الهويّة الشخصية. والى هذه القناعة توصلَ الماديون ايضاً، حيث لم يسعهم ابداً إنكار وجود «شخصية» باطنية والتملص من هذا «الواقع»، وهم ملزمون بتفسيرٍ معقولٍ لذلك.

## إطلالة على النظريات المادية في النفس

بعض المدارس الماديّة اجابت عن ذلك بقولها انّ في الإنسان «فوعيين» من «الانا»: ١ ــ فردية . ٢ ــ كليّة، والاولى يشعر بها صاحبها بالتشخيص والاستقلال عن الاغيار، والثانية عبارة عن «الإنسانية» السارية والمنبسطة في كافّة الافراد، ومن هذه الحيثية يكون كل انسان محباً لاخيه الإنسان. وهذه الفرضية تُنسب للفيلسوف المادّي الالماني «هايدك».

لكن هذا الكلام غير صحيح ولا يسعنا قبوله، لانهم لم يفهموا معنى «الكليّة» فهماً صحيحاً، اذ إنهم حسبوا أن «الانا» الشريفة، هي «الانا» الكليّة السارية في الكل، وهي داخلة ضمن حدود «الطبيعة» واما «الانا» المشعرة بالتشخص والجزئية فهي «الانا» الخبيثة الواجب نبذها، وبعبارة اخرى: «الانا» الكلية تشعر صاحبها بالإنسان الكلّي، لا بذاته هو، وهذه هي «الانا» المقدسة الشريفة.

والصواب: ان «الإنسان الكليّ» وان كان سارياً في الكلّ، الاّ انه ايضاً عين الفرد وغير منفكٍ عنه، لا انه شئٌ آخر. وهذه المسألة تناولها الفلاسفة بالبحث والتحليل، لا سيما المسلمين منهم، فإنّ لهم بحوثاً شيقة وتحقيقات رائقة في باب «الكلّي» لا يناسب المقام ذكرها.

### وقفة مع «سارتر» و«الماركسية»

يـــرى «سارتر»[١] أن للإنســـان «نفساً» حقيقيةً واخرى «مجازيةً» لكن الـــنفس الحقيقيـــة ليس لها تعيّن ولا طبيعة محدّدة . بل هي «وجود» صرف ومطلق، وهذا هو «جوهر» الإنسان ونفسه الحقيقية .فأذا ما حصّل «الانسان» لنفســـه تشخصـــاً وتعيناً ، يكون قد فقَدَ تلك النفس الحقيقية التي كانت له من قبل. وهذا الكلام وان لم يكن متيناً، الاّ انه قابل للتوضيح، وهذا ما سنفعله ان شاء الله تعالى.

### وقفة مع الماركسيّة

امـــا الماركســـيون ، فهم ايضاً لم يجدوا محيصاً الاّ ان يقّروا بوجود «نفسين» للإنسان، الاّ انهم نحوا منحىً اقتصادياً في تفسيرهم لذلك. فقد ادعوا بـــأن «الـــنفس» الخاصـــة الفردية هي ذاتها «النفس» الشرّيرة، امّا «النفس» الاشتراكية فهي «النفس» الخيّرة .

ويدعـــون ايضـــاً بـــأن البشر في العهود القديمة لم تدر على السنتهم الضمائر الفردية «انا وانت» لعدم وجود مفهوم «الملْكية» في اذهانهم، فكانت كلّ «الانفس» آنذاك «نفساً» واحدةً ، تماماً كأفراد العائلة الواحدة الذين يشكّلون

---

(١) «جان بول سارتر» ١٩٠٥ ــ ١٩٨٠ فيلسوف وكاتب وناقد فرنسي. وُلد بباريس. تأثر بظواهرية «هوسرل» و«هايدكر » ، وهو من وراء» الوجودية المتشائمة وابرز ممثليها، قـــال بأن الوجـــود متقدم على الماهية . عرض افكاره في قصص ومسرحيات مشهورة مـــثل: الوجـــود والعـــدم ..، «طـــرق الحـــريّة » «الجدار» رفض جائزة نوبل عام (١٩٦٤).

((نفســاً)) واحــدةً وهي ما نسميها ((النفس العائلية)). فالملكية الفردية هي التي فتتت النفس الواحدة الكبيرة وحولتها إلى ((انفس)) صغيرة متنافسة ومتطاحنة، والاّ فالبشــر قديمــاً كانوا كتلةً واحدةً كالماء في البحر، لكن التملك الفردي جعلهم قطرات متناثرة، يقول ((مولوي)) وهو يريد معنى عرفانياً:

* كنا جوهراً ذا حقيقة واحدة منبسطة، لا رأس لنا ولا قدم

* كنا جوهراً نورانياً كالشمس، وكنا في النقاء والصفاء كالماء الزلال.

وبناءً على هذه الدعوى، فلكي نقضي على فاسد الاخلاق لا بد اولاً من محاربة الملكية الفردية والغائها وإحلال الملكية العامة محلها، ومن ثمّ يرتفع التنافس والشرور ويعود البشر الى الطريقة المثلى.

**النقــد**

ان مــا ذكروه من الكلام هو بالشعر اشبه، اذ كيف يمكن القول بأن ما يفصــل ((النفوس)) عن بعضها البعض ويفتّتها هو ((الملكية الفردية)) فحسب؟ وهــل مواهب الإنسان مقصورة على تلك الناشئة من ((المال والثروة))؟ كلاّ، بل توجد مواهب اخرى معنوية. وحتى افراد العائلة الواحدة لن يتنازلوا عن حيــثياتهم الخاصــة وان كانوا ينهجون مبدأ الملكية العامة، لأنه توجد لديهم امور اخرى تهمهم ــ مثل : المكانة الاجتماعية والجاه واثبات الوجود ونحو ذلــك ــ ، تدعوهــم الى التمسك بالاستقلالية والتميز. ثم ان هذه الاشتراكية المدعاة، هل هي مطبقةٌ فعلاً بحيث تقسم الثروات بالقسط والعدل؟ كلاّ، وانهم يقولــون ما لا يفعلون. ولو سلمنا بما يقولون، فما هو حال المناصب والجاه والمكانة والسلطة؟ هل يشملها قانون ((الاشتراكية)) ؟ هل يمتلك عامل مصنع الصلب المسكين الــذي لا يُعطى من الخبز الاّ ما يسد رمقه ــ ذات القــدرة

والسلطة التي يتمتع بهما «بريجنيف» مثلاً؟ أو ليست القدرة أمراً يهم الانسان ويبذل بأزائها الاموال الطائلة؟ وكذا «المرأة»، فهل تكون ملكاً مشاعاً ؟ انهم يريدون ذلك، لكنهم رأوا عدم امكان تحققه عملياً. وهكذا الحال لإلاف المواهب والنزعات الاخرى التي تشغل بال الإنسان والتي أُغمض النظر عنها .وهذه «المواهب» والمزايا غير قابلة للاشتراك أو الشيوع، فالفداء والتضحية بالنفس في ساحات الوغى دفاعاً عن الآخرين، ومراعاة العدل والإنصاف في تعامل الإنسان ولو على نفسه، هي اخلاق فردية ولا يمكن اعتبارها قيماً عامةً للجميع.

وملخص القول: ان تحسس «النفس» لكرامتها وشرفها وقدرتها، هو الاصل الاصيل للقيم والمثل العليا، لان هذا «الاحساس» صورة حيّة «للنفس» الواقعية الربانية، كما قال تعالى **﴿نفختُ فيه من روحي﴾** [1]. وهذا الاحساس لا يكون جزافاً، بل هو نتاج معرفة النفس، ومن هنا صح أن يقال: كلّما عرف الإنسان نفسه اعمق كان من غيره اكمل.

## معرفة النفس

«معرفة النفس» واحدةٌ من اقدم توصيات حكماء العالم ، وقد اسهم الانبياء العظام وكبار الحكماء في ابلاغها للبشر، و«معرفة النفس» وصيّةٌ محتفظة بحيويتها وقيمتها دائماً، بل هي تزداد اهميةً ورسوخاً تدريجياً. «ايها الإنسان! إعرف نفسك» جملة معروفةٌ للانبياء والحكماء. ولقد بيّن المعصومون ــ عليهم السلام ــ هذه الحقيقة في الروايات بتعبيرات مختلفة

---

(١) الحجر، آية: ٢٩.

والفاظ متغايرة . يقول عليّ ــ عليه السلام ــ :

«مــن عــرف نفسه فقد عرف ربّه»[١] ويقول الامام الصادق ــ عليه السـلام ــ : «كــن طبيب نفسك.. فإنك قد جُعلت طبيب نفسك وعُرِّفت آية الصحة وبُين لك الداء ودُللتَ على الدواء»[٢].

واذا رجعــنا الى الماضــي السحيق فسنرى انه بقى من «سقراط» بعد مُضــي (٢٥٠٠) سنة على زمانه جملةٌ غاية في الاهمية، وهي قولــه: ايها الإنسان اعرف نفسك، والمقصود من هذه الجملة امران:

١ ــ ان اعــرف نفســك كــي تعرف ربك. يقول «غاندي» في هذا الصــدد: توصــلت من خلال مطالعة «آباني شادها» (اقدم كتب الهند الدينية العرفانية) الى ثلاثة اصول رئيسية وهي التي اعتمدتها منهاجاً في الحياة:

**الاول:** انَّ في العالم معرفة واحدة فقط وتلك هي معرفة «النفس».

**الثاني:** ان مَن عرف نفسه ، عرف الله ربَّه.

**الثالث:** ان في الدنيا كلها قوةً واحدةً، وهي قوة التسلط على «النفس».

فنحن نرى هنا سفر «آباني شادها» الموضوع قبل كذا الف من السنين يطرح هذه المسألة نفسها، فهي من اقدم المسائل والحكم التي ورثها البشر من أسلافهم. ومسألة «الإنسان» اليوم وخصوصاً القرن الأخير، تحتل مكاناً واسعاً وتُعُد من اهم المسائل البشرية المطروحة على بساط البحث والدراسة، وكيف لا تكون كذلك وهي تعني انّ مَن يعــرف نفسَه فسيعرف سرَّ اصل هذا العالم وهو الله تعالى.

---

(١) غرر الحكم، ج٢ ص٦٢٥.

(٢) تحف العقول، ص٢٢٤.

٢ ــ ان اعــرف نفسك كي تعرف ما يجب عليك فعلُه في هذا العالم، فأنت إن لم تعرف نفسك فلن تعرف ما وظيفتك في هذه الدنيا، لن تعرف ما ينــبغي ان تكون عليه اخلاقك وسيرتك وكيف يجب أن تعيش في هذه الدنيا وتحيــا، لأنّ الاخلاق ــ بإعتبارها سلسلةً من الملكات النفسيّة ــ ترجع الى كيفية الحياة ونمط الكينونة.

اذاً: فالــنفس البشــرية ذاتها هي منبع اهم مسألة في الاخلاق العملية ومحورها.

ونقــدم اليــك فيما يلي توضيحاً للأمر الاول من ذينك الامرين اعني: كيف انه اذا عرف الإنسان نفسه فقد عرف ربّه:

**معرفة النفس طريق معرفة الرب**

يحسب القرآن الكريم لمسألة «معرفة النفس» حساباً خاصاً وهي تحظى مــنه بعنايةٍ منفردة، بمعنى: ان القرآن المجيد يعتبر كل عالم الطبيعة وعالم الخــلق أيــةً ودرساً لمعرفة الله تعالى. وكل شئون ونواميس العالم واحداثه بسماواته وأرَضيه، آيات وعلامات ودلائل على الوجود المقدس للخالق:

**﴿إنّ في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الالباب﴾**[1].

وهذا النمط من الآيات كثيرٌ في القرآن المجيد ، لكن في الوقت الذي يعتــبر فيه القرآنُ العالمَ كتاباً مفتوحاً للحق تعالى يدل كلُّ سطرٍ مسطورٍ فيه عــلى المؤلف وعلمه وحكمته، فهو ــ كما ذكرنا ــ يفتح لــ«نفس» الانسان

---

(١) آل عمران، آية: ١٩٠.

حســاباً خاصاً، فالانسان يتضمن من الآيات والدلائل ما هو اعظم واجل مما للاشجار ــ مثلاً ــ ، وحق ما قال الشاعر:

* الورق الاخضر للاشجار في نظر البصير..
* كلُّ ورقة كتاب معرفة للخلاَّق القدير

الاَّ أنَّ «نفــس» الإنســان الــتي هي اقرب اليه من أى شيء، لها من الهداية والدلائل الالهية ما ليس لغيرها من الموجودات. فالإنسان له جنبتان، يشــترك فــي واحــدةٍ منهما مع بقية الموجودات الطبيعية، وهذه الجنبة هي جسمه المادّي، فوظائف الاعضاء «الفسيولوجيا» كلها تشترك في هذه الدلالة.

فكمــا أنّ ورق الاشــجار تــدل عــلى الصانع، كذلك اصابع الإنسان واظافــره بــل وكلُّ شعرةٍ فيه هي ذات دلالة، فهو إذاً من هذه الجنبة نظير ومثيل الموجودات الاخرى.

امّــا الجنبة الاخرى فهي من مختصات «النفس» الإنسانيّة.يقول تعالى: **﴿وفــي الارض آياتٌ للمؤمنين﴾**[1]، فكل شيء في الارض آية، بما في ذلك الإنســان ، لكــن مع ذلك يقول تعالى: **﴿وفي انفسكم﴾** [2] حيث خص تعالى «الإنسان» بجملة خاصة.

ويقــول تعــالى ايضاً: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتــبيَّن لهم أنّه الحقُّ﴾** [3] افرد تعالى الافاق والعالم الخارجي بالذكر، وافرد «نفس» الإنسان وحدَها بذكرٍ خاص. وكيف كان فالايات والدلائل لا تُحصى،

---

(١) الذاريات، آية: ٢٠.

(٢) الذاريات، آية: ٢١ **﴿وفي الارض آيات للموقنين (٢٠) وفي انفسكم افلا تبصرون﴾**.

(٣) فصلت، آية: ٥٣.

ولسنا هنا في صدد ذكر الدلائل والايات العرفانية التي تُفاض على ذلك «السالك» بعد المراقبة الدائمة حيث تنفتح له اذنُ وعينُ قلبه، فيرى عالم ما وراء الطبيعة بعينه الباطنية، او يصل على الأقل الى مقام السيدة مريم بنت عمران التي كانت الملائكة تحدثها حال العبادة، فإنَّ هذه «البوراق» الغيبية إنمَّا تبرقُ لأناس قلائل قطعوا اشواطاً في السير والسلوك والمراقبة وتجاوزوا الحُجب والأستار، ونحن لسنا كذلك، إذاً فبحثنا لا يشمل مثل هؤلاء، فإنهم ثلةٌ خاصة، وانما نحن نبحث عمّا هو حاصل لدى كافة الافراد.

## عالم المادة في تغير وحركة مستمرة

ومن ذلك هذه المسألة، وهي أنّ عالم الطبيعة في حركة دائمة ومتواصلة، انّه عالم يتغير في كل لحظة، لا شيء منه يبقى على صورة واحدة لحظتين، وهذه الحقيقة تثبت اكثر فأكثر بمرور الايام التي تنقل العالمَ من تقدم الى آخر. قد تقولون: هذه سفسطةٌ، لأننا نرى اليوم هذا «البناء» كما رأيناه في الامس الغابر، ولم يتفاوت ما بين امسه ويومه، فاين التحول المزعوم؟ ، والجواب على هذا هو:

لو كانت كلُ التغييرات والمستجدات محسوسةً لنا فليست هناك مشكلةٌ يُختلف حولها، ولكن لا يمكن لحواسنا ادراك تغيرات العالم الاّ في نطاق ضيق وحدٍّ معين لا تتجاوزه، فأذاننا وعيوننا ولامستنا لا تدرك الاّ ما هو بين حدَّين خاصين لا اكثر، وما خرج عن هذين الحدّين المرسومين صعوداً او نزولاً لا تدركه حواسنا. مثلاً، لو أخبرنا شخص بوجود اصوات وامواج صوتية في هذا الهواء، فهل نقول له: كلاَّ، انت تقول لنا خلاف الضرورة، فإنّ لنا اذاناً وسمعاً، ولو كانت هناك أصوات لسمعناها، والحال اننّا لا نسمع

شـيئاً!، لا شك أن مثل هذا الاستدلال خاطئ جداً. لأن الامواج الصوتية اذا خرجت عن الحد المعين بالنسبة لنا صعوداً او نزولاً فلن يمكننا سماعها ابداً، ومثال ذلك المذياع الذي لا يلتقط البثَّ البعيد، فهل يدل ذلك على عدم وجدود بـثٍّ أصلاً، او على انّ قدرة المذياع محدودة ؟ وهذا هو حال الإنسان، فقد ذكر العلماء المختصون ان جهازه السمعي لا يمكنه إلتقاط الامواج الصوتية ذات الـتردد الاقل من «١٦» الف او الاعلى من «٣٢» الف في الثانية، فلو زادت الترددات على «٣٢» الف فنحن لن نسمع شيئاً، وترانا نمارس اعمالنا اليومية بكل اطمئنان وهدوء وكأن لا شيء حولنا، والحال انه قد يكون هناك حيـوان يسـمع مـا لا نسمع ، كما يقولون بأن «الفأر» يسمع اصواتاً ذات ترددات عالية تصل الى «٤٠٠» الف ذبذبة.

وليتَ الامر يقتصر على حاسة السمع فقط، بل ان «عين» الإنسان لا تبصر حركات هذا العالم ومجرياته الاَّ في نطاق معين وحدٍّ محدد من حيث الشـدة والضـعف والسرعة والبطء ، واوضح مثال يُضرب هنا هو حركة «السـاعة»، فعيونـنا لا تـدرك و لا ترى حركة عقرب الساعة، وتظن انه متوقف عن الحركة، لكنها ترى جيداً حركة «مؤشر» الثانية لأنه اسرع حركةً مـن «عقرب» الساعة او الدقيقة، فالعين لا ترى حركة «مؤشر» الدقيقة، لكن العقـل يحكم بانه يتحرك، لأنه في الساعة الماضية كان «العقرب» يشير الى رقم «٧» والان نراه يشير رقم «٨» ومن المعلوم ان عيوننا لم تكن مخدَّرةً او عـليها غشـاوة بحيث لم ترَ القفزةَ الدفعيّة للعقرب، ولكن الامر ليس كذلك يقيناً، بل توجد حركةٌ طبيعية بطيئة غير ملحوظة ، كما هو الحال في «الماء» فإنّـه في حركةٌ مستمرة، ومَن اثبت «الحركة الجوهرية» يقول: انّ ما نراه سـاكناً لا حراك له في هذا الكون يشبه ماءَ النهر، حيث نتصور حين النظر

إليـــه ان لا حركة له وانّه ثابت، ولكنّه في الحقيقة في حركة وتغير دائمين. والمـــراد من كون الشيء متحركاً وفي حركة هو انّ كل جزءٍ منه ينعدم في الان الـــتالي، أي: ما كان في الآن السابق غير ما هو في الآن اللاحق، أي: كل ((آن)) له جزء خاص به، لا مسبوق ولا ملحوق به. وهذه الحركة الدائمة للاجـــزاء غير قابلة للرؤية ، وكلُّ حركات هذا العالم تكون على هذا المنوال ضمن نظام دقيق ومحدد من قبل ربِّ العالمين .

**لا تبدل ولا تغير في النفس**

وحيـــث انّ بـــدن الانسان جزءٌ لا يتجزأ من هذا العالم، فهو ايضاً في حـــركة ثابـــتة، ابـــتداءً مـــن خلاياه بل من ((النواة)) و((العناصر المورثة)) و ((الـــذرات)) التي تشكل ((النواة)) حتى اكبر شيء فيه. كلُّ البدن مملوء حركةً دائمـــةً، حتى ((الخلايا)) التي تموت بعد حين ويحل مكانها ((خلايا)) جديدة هي ايضاً في حركة ما دامت فعالةً بعدُ ، وبالنظر العلمي الدقيق يكون البدن قبل ســـاعةٍ غيره بعدها، واذا رجعنا الى الطب القديم نسمع علماءه يقولون: بدن الإنسان يُستبدل كل ((٧)) سنوات. لكن بالنظر الفلسفي المعمق فالامر يختلف، حيـــث يقول الفلاسفة ان البدن في الساعة اللاحقة ليس هو عينه في الساعة الســـابقة ، فضلاً عن ((البدن)) قبل سنة او عشر او ثمانين! اذ يكون قد تبدّل وتغيّر الاف المرات، هذا بلحاظ حركة البدن الانساني.

لكـــن مـــا هو الحال بلحاظ ((الانا)) و((النفس الواقعية)) ؟ فهل هي ايضاً مشـــمولة بقـــانون ((الحـــركة)) والتغيّر فتتبدل من حين لاخر، او انها ليست كذلك؟، والجواب هو:

ان ((الـــنفس)) الحقيقية للإنسان، من شأنها التكامل والرقي، وهي ليست

ساكنة بحيث تحلّ مكانها «انا» اخرى.

### حكاية بهمنيار وابن سينا

هناك حكاية معروفة جرت بين «ابن علي سينا» و«بهمنيار»[1] لها علاقة بمسألتنا هذه. كان «بهمنيار» تلميذا لابن سينا، وكان من اهل آذربيجان، وكان اول امره يدين بالزرادشتية ثمّ اسلم. وخلاصة الحكاية: انّ ابن سينا قصد الخباز يوماً ليبتاع خبزاً، واذا ببهمنيار ــ وقد كان آنذاك صبياً ــ يأتي ويطلب من الخبّاز قبساً من النار ليأخذه الى المنزل، فقال له الخبّاز: ايها الصبي! لا يمكن امساك النار باليد، فأجلب لك ظرفاً لتضع النار فيه. ما إن سمع الصبي ذلك حتى ملأ كفيه ترابا وقال: ضع النار على هذا التراب! هنا التفت ابن سينا الى ذكاء هذا الصبي وفطنته النشطة، لذلك بادر الى ابيه وامه وقال لهما: من المؤلم جداً ان يذهب ذكاء هذا الصبي وفطنته هدراً. فضعاه تحت عنايتي واشرافي وسيكون غداً انساناً فاضلاً وذا شأن. قبل الأبوان هذا العرض وصار «بهمنيار» تلميذا لإبن سينا، وقد هضم افكار استاذه وشرحها. له كتاب في الفلسفة بعنوان «التحصيل» وقد ذكر فيه مباحثةً في مسألتنا هذه جرت بينه وبين استاذه، ذلك ان بهمنيار كان يعتقد بأن كلّ

---

(١) بهمنيار بن المرزبان، احد تلامذة ابن سينا المبرزين، له كتاب « التحصيل » في المنطق والفلسفة بقسميها والطبيعيات والنفس، وهذا الكتاب هام جداً لمن يريد دراسة فلسفة « المشائين » كما ذكر الشهيد المطهري في مقدمته لذلك الكتاب.

والحكاية المسطورة هي بداية تعرف ابن سينا على هذا التلميذ النابه. وبهمنيار هذا من بيت مجوسي، ولا يعلم اسلامه يقيناً. لكن ذكر صاحب « الروضات » ان المشهور انه اسلم. ولا توجد معلومات عنه اكثر من هذا.

شـــيءً يتبدل ويتغير، ليس بدن الإنسان فقط، بل حتى روحه ايضاً. فكما أن بدنه يتبدل من لحظة الى اخرى ، فكذلك «الانا» وهل يمكن ان لا تتبدل روح الإنسان؟.

امـــا اســـتاذه فقـــد قـــال لـــه: البدن يتبدل اما «الانا» فلا عوض لها، فـــ «النفس» ثابتةٌ، ولكن التلميذ بقي مصراً على رأيه وأخذ في الدفاع عن وجهة نظره.. وبينما هو مشغول بذلك اذ صمت ابو علي بن سينا فجأةً فسأله تلميذه: لم لا تجيب ؟ فقال ابو علي: المسؤول قبل لحظة ليس هو بعدها، كما ان السائل قبل لحظة ليس هو بعدها ، فأنت في كلِّ لحظة تسأل تصير انساناً جديدا وتخاطب ايضاً انساناً آخر لم يكن قبلاً ، وفي اللحظات التالية لا يكون وجـــودٌ لذلـــك السائل والمسؤول. فأنت غير موجود في اللحظة اللاحقة كي تســـمع وتـــأخذ الجواب، وانا ايضاً غير موجود فيها كي يتسنى لي الجواب! وهنا أُسقط في يد بهمنيار، فسلّم برأي ابن سينا.

اذا عـــرف الإنســـان «النفس» الواقعيّة ، وفهم كيف ان هذه «الانا» لها شخصية ووحدةٌ حقيقية وحقيقةٌ ثابتة ضمن هذه الطبيعة السيّالة، فسوف يدرك واقـــع العالم كذلك بلا فرق يُذكر، فالعالم وان كان حركةً دائمةً إلاّ أنه ايضاً حقيقة واحدة، وهذه الحقيقة ترعى وحدة العالم وتحفظها من التبدد.

ونحـــن اذا لاحظنا الشمس والقمر والنجوم والارض وامثالها، فسوف نرى انها في حالة تغيّر وتبدل، ولكن مع ذلك توجد حقيقةٌ ترعى العالم، فكما انّ الـــبدن يتقوّم ويُحفظ بـــ «النفس» الواقعية، كذلك تُحفظ وحدة العالم بوحدة تـــلك الحقيقـــة غيـــر الماديّة ، وبها يكون مصوناً من التبدل. وتلك الحقيقة الحافظة هي الذات المقدسة للربِّ جلت عظمته.

يقول «مولوي»:

* الخلق كغدير ماءٍ صاف زلال تشع عليه صفات ذي الجَلال.

* تبدل ماء هذا الغدير مرّات ومرّات، ولصورة القمر المنير ثبات أي ثبات.

فليست النفس الانسانية مجرد مجموعة من التصورات المتعاقبة بحيث تكون النفس عبارة عن ملايين الصور المختلفة والمتلاحقة، فهي تتبدل بتبدل الصور الحالّة فيها، كما يعتقد بذلك مَن لم يعرف نفسه.

## الميول المعنوية آيات الهية

المسألة الاخرى المطروحة هنا، هي مسألة الميول المعنويّة للإنسان، ويذكر هنا انّ اول مَن ادخل مسألة معرفة «النفس» الدينية حقل التجربة والإختبار، هو «وليام جيمز» وقد صرف ما يقارب «٤٠» عاماً من عمره عاكفاً على دراسة «النفوس» فحصاً وتحليلاً على ارضية الظواهر النفسية الدينية، فهو قد تعمق في قراءة «النفس» الإنسانية من منظار الدين، ولم تكن دراسته التحليلية على سبيل الاستدلال والقياس، بل بنحو التجربة، والنتيجة التي وصل اليها بعد جهدٍ دام «٤٠» عاماً هي قوله:

كما توجد في الإنسان سلسلة من الميول نحو الطبيعة والمادة والتي تشكل رابطاً تربطه وتشده نحو الطبيعة ، كذلك توجد في طياته ميولٌ اخرى، وهي لا تتفق والحسابات الماديّة، بل هي تضاد ارتباط الإنسان بالطبيعة والمادة، وهذا يدل على وجود عالمٍ آخر، وهذه الميول والاحاسيس المعنوية تربطنا وتشدنا نحوه.

الإلهامات المعنوية والإلهية، البحث عن الله ، السعي للخير والميل نحو

المعنويات، امورٌ لها وجودٌ فعّال لدى كافة افراد البشر، وهي ترشد الإنسان الى عـــالم آخـــر. وفي قبال هذا، الخواء المعنوي والإفلاس الاخلاقي الذي احدثته المذاهب الماديّة، وتسبب عنه مشاكل كثيرةٌ لبشر هم في غنىً عنها.

**تعصب الماديين**

والواقع ان هذه الموجات الماديّة الحادثة والمنتشرة اكثر ما يكون في الغـــرب، والتي وجدت مدارس تروّج لها بين البشر، كلُ هذه كان ردَّةَ فعلٍ عنيفةً لموقف الكنيسة المتميز بالجهل والرعونة والتعصب، ونحن ندفع الان ضـــريبة جـــرائم الكنيسة ونكفّر عن سيئاتها. فالذي اوصل «العالم» الى هذا المســـتنقع وجرّه الى هذه الوضعية البائسة، هو جهالات الكنيسة وتفسيراتها الخاطئة لمفهوم الله والقيامة والروح، وكذلك معاقبتها على الاعتقاد ومصادرة الحـــرّيات والديمقراطية . وهذا كله جعل الإنسان يواجه هذا السؤال: امّا ان اقـــبل العلم أو أقبل الله أو الحياة الرغيدة إما أن أقبل الله أو الحرية! ، فجُعل بيـــن هذه الميول تضاد ومقابلة، ومن المعلوم انه اذا جُعل واعتبر تضادٌ بين الله ومـــئات الضروريات الفطرية للبشر، فأن البشر سيتمسكون بضروريّاتهم الفطرية، وهكذا فعلوا .

وبهذا الشكل من المواجهة مع الكنيسة، برز المذهب المادي للوجود.

وقـــد اجـــتاح هذا الطوفان المادّي دنيا الغرب بعلل مختلفة، وهو يتجه نحـــو الشرق رويداً رويداً. والشرقيون لم يفكروا أو يلتفتوا الى ان الظروف الـــتي عاشـــها الغرب في السابق تغاير الظروف التي عاشها الشرق آنذاك. وشيئاً فشيئاً تُعصب للماديّة كما تعصبت الكنيسة سابقاً لارائها الدينية، يعني: كما ان الكنيسة ارادت تبرير مقولاتها الدينية بالقوة وبدون حجة ودليل؛ كذلك

المـــاديّون ، يريدون فرضَ مذهبهم فرضاً ويحاولون جاهدين توجيهه، وهم يخشون كسادَ «المادية» وانكسارها والعودةَ مرةً اخرى الى القرون الوسطى، لـــذا تراهم لا يدخرّون جهداً في إغلاق الطرق المفتوحة للبشر والموصلة لله تعـــالى، تلك الطرق والمعابر المفتوحة من قِبل الطبيعة والنفس. يريدون سدَّ تـــلك الطرق بمختلف التبريرات والتأويلات، ويقولون: ان هذه الطرق غير قابلة للسير ولا يُعتمد عليها.

ومـــن جمـــلة الطرق، الميول المعنويّة، ونورد على سبيل المثال حياة النحل، انها حياة عجيبة وغير قابلةٍ للتفسير مادّياً، كيف تحصّل هذه الحشرة على هذه الهداية «والخبرة» العالية؟ . للقرآن آيةٌ صريحة في هذا، يقول:

**﴿واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً﴾**[1].

والوحـــي المـــنظور هنا هو نوعٌ من الإلهام الغيبي المفاض على هذا الحيـــوان، بـــل ان القرآن يصرح في آية اخرى بأنَّ للنمل اوفر مما للنحل، فيذكـــر انّ لـــه ادراكاً وفهماً اكبر من ادراك النحل، وأنّ النمل يتبادلون فيما بينهم الكلام ويتناقلون الانباء!. وهذا الامر لم يكتشفه العلم الاّ منذ «٥٠» عاماً فقط، والحال أن القرآن الكريم يقول منذ «١٤٠٠» عاماً:

**﴿حتى اذا أتوا على وادِ النمل قالت نملةٌ يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها ..﴾**[2]

وقـــد اثـــبت العـــلم الحديث انَّ للنمل قرونَ استشعار تستقبل وترسل، ترسل ذبذبـــات خاصـــة وتلـــتقط ما يرد عليها، وبهذه الوسيلة يفهم بعضهم بعضاً

---

(١) النحل، آية: ٦٨.

(٢) النمل، آية: ١٧ ــ ١٨.

بمكنونه ومراده. ولندع النمل في واديه لنعود الى النحل، فرغم ان النحل لم يلتحق بأيّ مدرسة ولم يتلقَ اىّ درس، لكن القرآن يقول عنه: **﴿واوحى ربك الى النحل﴾**، انه الهام غيبي، فسبحانه خالقاً ومبدعاً.

**موريس مترلينك**

«موريس مترلينك» احد الكتّاب البارزين، وله كتب عدّة، منها كتاب **في** حياة «النحل» وآخر في حياة «النمل» ولعل جميع كتبه مترجمة هنا في ايران، فهو كاتب مقتدر حقاً، معروف لدينا هنا بأنه فيلسوف كبير، وهو جديرٌ بهذا اللقب. هذا الرجل ذكر في كتابه المشار اليه عجائب النحل، لكنه يعزو ذلك كلّه الى «روح المنحلة»، فهي ــ بزعمه ــ التي تلهم النحل وتوحي لها!! ، بالله عليكم هل سمعتم هراءً كهذا؟

ان «خلية النحل» ليس لها قيمة الا بالنحل، والاّ فهي ــ مجردةً ــ ليست سوى جماد لا يضر ولا ينفع ، فماذا يعني قوله «روح الخليّة»؟ ولو سلمنا بقوله فكيف أدركت روح الخلية ذلك؟ ثم انه اليست روح النحل ارقى من «روح الخلية» على فرض وجودها؟ ، وقد تسألون: ولماذا كلّ هذا، وما ضرّه لو انصف عقلَه؟ ، والجواب :ان «موريس» ومن على شاكلته، لا يروق له ان يثبت وجودُ اله لهذا الكون، ولا يريد التسليم بهذه الحقيقة، لأن ذلك يُحمّلُه مسؤوليةً ثقيلةً هو في راحةٍ منها، فإن مَن يبدأ بحرف «الف» فسيضطر لتعقيبه بحرف «ب» ثم بما يليه «ت» وهكذا. فَمن لا يريد ذلك فعليه حسم الامر من اوله، كما فعل ذلك التلميذ الكسول للتهرب من «المدرسة» فقد طلب منه المعلم ان يقول «أ» لكنه سكت ولم ينطق بشئ، فجاء ابواه وطلبا منه ذلك فسكت ايضاً، فلما سألوه: لم لا تنطق؟ اجاب: لو قلت

((أ)) فســوف يطــلب مــني بقية الحروف، وهذا ما لا ارغب فيه، فالافضل السكوت من اول الامر والتخلص من تبعات ((أ)) ((فموريس)) فعل نفس الشيء كــي يبقى ((حراً)) في هذه الحياة وغير مقيد بأي تكاليف و واجبات تجاه اله الكون.

**التــوبة**

اســلفنا القــول بــأن للإنسان ميولاً ونزعات تعاكس المنطق المادّي، وذكرنا امثلةً لذلك. ونضيف هنا مثالاً آخر، وهو ما يسمى في المصطلح الديني بـــ((التوبة)) والإنابة. وهي عبارة عن محاكمة الإنسان ((نفسه)) تكفيراً عمّا بدر مــنها من زلل في القول والعمل. وهذه الثورة على ((الذات)) هي مدلول آيات كثيرة قمت بإحصائها وجمعها، وانها لثورة بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى.

والــتوبة ليست كلمةً تقال لملء الفراغ، بل هي درجة العليين كما ذكر مــولى الموحدين في خطابه لذلك الرجل الذي قال: استغفر الله ربي واتوب اليه. اذ بادره (ع) قائلاً: ((ثكلتك امك ! اتدري ما الإستغفار؟ الإستغفار درجة العليين))، ثم شرع ــ عليه السلام ــ في توضيح ذلك. فقال: ((وهو اسم واقع على ستة معانٍ: اولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود اليه ابداً، والثالث: ان تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله املس ليس عــليك تبعة، والرابع: ان تعمد الى كلّ فريضة عليك ضيعتها فتؤدّي حقها، والخــامس: ان تعمد الى اللحم الذي نبتَ على السُحت فتذيبه بالاحزان حتى تُلصــقَ الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحمٌ جديد، والسادس: ان تذيقَ الجسم ألمَ الطاعة كما اذقته حلاوةَ المعصية، فعند ذلك تقول: ((استغفر الله)) [1].

---

(١) النهج ص٧٤٥، حكمة: ١٤٧ . تحقيق د/ صبحي الصالح.

ومـــثل هذا «الإستغفار» هو القادر على تغيير «النفس» وتطهيرها من الادران والعلائـــق، واذكر اني قرأت في بعض كتب المرحوم الحاج ميرزا «جـــواد ملكي التبريزي» وهو من اعاظم اهل المعرفة في زمانه، وقد تُوفي قـــبل «٥٢» عامـــاً، ودُفن بقم، أنّ رجلاً ورد على استاذه المرحوم الاخوند حســـين قـــلي الهمداني (وكان هو ايضاً فريد عصره في السلوك والعرفان) ليتوبَ على يديه، فلمّا ان عقدَ نيةَ التوبة ذهب، ثم عاد بعد «٤٨» ساعة وقد انقلـــبت احوالـــه وتـــبدلت اطواره بحيث اننا لم نعرفه أولَ الامر، لقد تحوّل تحولاً جذرياً بحيث لم نصدق انه ذاتُ ذاك الرجل!.

اجل، ان الذي جعل ذاك الرجل يثوب إلى رشده ويثور على نفسه هو معرفته لنفسه وبالتالي لربه، ومعرفة الرب تعالى تعني الانقلاب والتحول من ظلمات الارض إلى نور السماء.

## روح المجتمع

حـــاول بعضهم تفسير هذه الميول المعنوية تفسيراً آخر شبيهاً بتفسير المفكر «موريس»، وهو ان الدافع والملهم هو روح المجتمع. فمن يخدم الامّة ويفنى من اجلها، فهـــو مُلهَم من قبـــل تلك الروح ولا شيء وراء ذلك.

وهـــذا ايضاً توجيه غير موفق، لاننا لا نعقل هذه «الروح» ولا نعرف لها معنى، ذلك أن «المجتمع» ليس له وجود مستقل عن وجود افراده، بل هو مجمـــوع الافـــراد، فالوجود الحقيقي هو للافراد، وأما المجتمع فهو موجودٌ اعتـــباري لا روحَ لـــه. ولو سلمّنا بما قالوا فهذه «الروح» من اين اكتسبت ذلـــك؟ ومن هو ملهم هذه الروح المزعومة؟ ثم انه اذا لم نؤمن بشيء وراء روح المجتمع هذه من جنة ونار ومجازاة، فستكون هذه الروح روحاً خادعة

للانســـان مغـــرّة به، لانه لا معنى لان يضحي المرء بسعادته وراحته في سبيل المجتمع بلا عوض، لا دنيوي ولا اخروي، فان هذا غاية الحمق.

**الالهيون**

قد اضاء الصبح لذي عينين وتقشعت السحب الثقال عن عين الشمس، والقول الفصل ما عليه «الالهيون» من أن الله تعالى هو الملهم والمرشد، وان تلك الميول الخيّرة انما هي فطرته تعالى في خلقه، هي نداؤه تعالى للإنسان، وكلّ هذه التضحيات لن تذهب هدراً، لأنه ﴿**للذين احسنوا الحسنى وزيادة**﴾[1] ولأنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً من ذكر أو أنثى.

ومن هذا الاحساس ، يتحسس اصحاب القلوب الرحيمة والنفوس الطيبة لكـــلّ مـــا فيه خير البشر . ولكن الخوف من تلاشي المذهب المادي واحياء الـــتوجه الالهـــي، هو السبب في بروز الاراء السخيفة والنظريات الحمقاء. ولكن الله تعالى بالغٌ أمره.

**القرون الوسطى**

لاّ نعـــدم ان نرى من يدعي بأن «التديّن» والعودة إلى «الله» مصادرة لـــلحريات والفكر وعودة للقرون الوسطى، قرون الجهل والتعصب المقيت. وهـــذه المقولـــة قد لا تكون عجيبةً وغريبةً إذا تمسك بها الغربيون، ولكنها اغـــرب مـــا تكـــون إذا تشبث بها اهل الشرق المسلمون، ان مأساة «القرون الوســـطى» وارهاصـــاتها، خاصة بالمجتمعات الغربية والحضارة الأوربية. فكيـــف نـــتحدث عنها نحن هنا في «ايران» ونعدّها مشكلةً وكابوساً مزعجاً

---

(١) يونس، أية: ٢٦.

نحذر ان يعود جاثماً على صدورنا؟

لقد كانت تلك الحقبة بالنسبة لنا حقبةَ تمدنٍ وعلمٍ ومجدٍ حضاري لا يبارى، اجل، ان القرون الوسطى أوربية الجنسية ولها ظروفها الخاصة. ولا تمتُ لنا ولا لديننا بأي صلة قرابة.

ان عهد «ابي ريحان البيروني»[١] و«ابي علي ابن سينا» و«الفارابي» و«ابن رشد»[٢] قبل الف عام، لهو من اسطع عهود الثقافة والتمدن البشري، فلماذا اذاً يربط «المسلم» نفسه بتاريخ أوربا؟ ويا حبذا لو عادت القرون الوسطى لنشهد مجدنا الغابر وعزّنا الدابر، لو كان ابو علي بن سينا موجوداً اليوم أو ابو ريحان البيروني، لنَصبوا للأول تمثالاً وقبلوا قدمي الثاني إجلالاً!.

---

(١) ابو ريحان محمد بن احمد البيروني ٣٦٢ ــ ٤٤٠هـ ، يقول عنه الكاتب العالمي «ول ديورانت» : (يمثل البيروني العالمَ الاسلامي في احسن صورة له، فقد كان فيلسوفاً ومؤرخاً ورحّالةً وجغرافياً ولغوياً ورياضياً وفلكياً وشاعراً وعالماً في الطبيعيات. وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة في كل ميدان من هذه الميادين. وكان عند المسلمين كما كان «لبينتز» ويوشك ان يكون كما كان «ليوناردودافنشي عند الغربيين»).

لاحظ : قصة الحضارة ، ج١٣ ص١٨٣.

(٢) سبقت ترجمة ابي علي سينا والفارابي، واما ابن رشد، فهو ابو الوليد محمد ، (١١٢٦ ــ ١١٩٨م) فيلسوف عربي وُلد في قرطبة وتوفي في مراكش. درس الكلام والفقه والطب والفلك والفلسفة. حاول التوفيق فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.. وله شروح كثيرة لكتب ارسطو. سمّاه فلاسفة الغرب «الشارح».

## وقفة مع سارتر

يتفق «سارتر» معنا في انّ الإنسان يحمل على عاتقه المسؤولية الكاملة عـن «وجوده»، وانه قادر على خلق نفسه حسبَ الصورة التي يشاؤها. لكنه يزعم انّ افتراض وجود «اله» يؤدي إلى سلب «مشيئة» الإنسان، لماذا؟

يقول: لأن للإله المفترض «ذهناً» فيكون لهذا متصوراً طبيعةَ الإنسان سلفاً بصورةٍ ما، وحينئذ لا يملك الإنسان لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يقدر الا ان يكون كما تصوره «الإله» سلفاً، واين هذا من «الحرية» ؟ فلأجل الحفاظ على حريّة الإنسان، لا بد من إنكار وجود ايّ «اله»، لأن حريّة الإنسان ذاتية له، فهو عين الحرية، لا انه ذو حريّة.

ان «سـارتر» يـرى الله بعين واحدة، بل لا يراه اصلاً، ليس «للإله» «ذهن» حتى ينفعل ويتصور، وما فرضه «الهاً» هكذا، انما هو مخلوقٌ مثله لا غيـر وان سمّاه «الهاً»، واما دعواه بأن الإنسان حريّةٌ وارادةٌ، فهي مغالطة سـافرة، لأنه ان كانت هذه «الارادة» ناشئة من طبيعة الإنسان وماديته، فهي لغـوٌ، لأن المـادّة مقسـورةٌ على الحركة ، وفاقد الشيء لا يعطيه. وبعبارة اخـرى: المـادّة حصيلة «ذرات» والذرات لا ارادةَ لها في حركتها، وعليه فنحن نسأل «سارتر»: ما هو منشأ حرية الإنسان؟

لا مناص من الاعتراف بوجود قدرة فوق قدرة الطبيعة، وان الإنسان اقـدر على تسييس هذه الطبيعة وتذليلها منها عليه. فلا معنى للقول بأنه ليس الإنسان «نفساً» و«ذات» الاّ الارادة. نعم، اصاب «سارتر» ــ كما قلنا سابقاً ــ في ذهابه إلى أن الإنسان هو الذي يكيّف «نفسه» ويصورها كما يحلو له، وقد صـرح حكمـاء وفلاسفة الاسلام بهذا، فالإنسان ليس كبقية المخلوقات أسير «الخلقة الأولى» ولا تحسبن اننّا بهذا نوافق «سارتر» في انه لا ماهية للإنسان

ولا طـبيعة، كـلاّ، ما هذا اردنا، بل اردنا القول بأن للإنسان «ماهية» ذات استعداد واقتضاء لأن تكون كما يريد الإنسان، وهذا الموضوع بحثه علماؤنا بحثاً مستوفياً وافضل مما ذكره «سارتر»، لا سيما «صدر المتألهين»[١] حيث له القدح المعلى. وهي فكرة لها جذور قرآنية، قال تعالى:

**﴿يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾**[٢].

فمن الناس مَن يُحشر «انساناً» ومنهم مَن يُحشر ذئباً أو كلباً أو خنزيراً أو اقـبح، وهذا يدور مدار الملكات المكتسبة واطوار النفس حين موتها، وما الطف قول الشاعر «مولوي»:

* ايها الاخ .. انت لست الا فكراً.. لست عظماً ولا شعرا
* فإن كان فكرك خيراً صرت إلى جنة... وان كان شراً صرت حطباً في الاتون

فـلو سألنا الشاعر: ما هو الإنسان؟ لأجاب: هو ما يفكر فيه. فإن كان يفكـر في «الحقيقة» فهو «حقيقة» ان كان يفكر في «الله» دائباً في طاعته فهو «مـثل» الله وظلـه، وان كان يفكر في «علي» ويحذو حذوَه فهو «عليٌّ» وان كان يفكر أو يعمل عملَ الكلب، فهو «كلب» وليس «للإنسان الاّ ما سعى».

وباختصار: قل لي بم تفكر، اقول لك من أنت.

إذاً: حقيقة الإنسان هو ما يعيشه فكراً وسلوكـاً، والنصـوص الإسلامية

---

(١) محمـد بن ابراهيم الشيرازي ت ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م، يُلقب بصدر الدين ويُعرف بملاّ صدرا. من اكبر واشهر فلاسفة القرن الحادي عشر. كان جامعاً لفنون العلوم. له آثار كثيرة ، من اشهرها: الحكمة المتعالية.

(٢) سورة النبأ ، آية :١٨.

صريحةٌ في هذا، فقد جاء ان ((من احب حجراً حشره الله معه))[١] والمعنى أن محبَّ الحجر يُحشر حجراً، لأنه لا معنى لحشر الحجر. وذكرت كتب الاخبار ايضـــاً انّ خراسانياً يتموج حباً لاهل البيت ــ عليهم السلام ــ قطع الطريقَ إلى ((المدينة المنوّرة)) سيراً على قدميه وقد تورمت قدماه وتشققتا، فلما دخل عـــلى ابي جعفر ــ عليه السلام ــ قال: أما والله ما جاء بي حيث جئتُ الاّ حـــبكم اهـــل البيت، فقال ابو جعفر ــ عليه السلام ــ : والله لو احبّنا حجرٌ حشره الله معنا، وهل الدينُ الاّ الحب؟[٢] ولافُضَّ فوه الشاعر اذ يقول:

* ان كـــنت طالباً جوهرَ التراب، فانت تراب، وان كنت طالباً الروح، فانت روح خالدة.

* انا سأعلن الحقيقة .. حقيقتك هو ما تطلبه وتسعى اليه. فاختر لنفسك.

**لماذا يحتاج الانسان للاخلاق؟**

لماذا يُصر على ان يكون للانسان سلوك خاص وتربية خاصة وطبيعة ثانوية ونسميها ((خُلقاً))؟ ما هي ضرورة ذلك؟ ولم صار ذلك ضرورياً؟

الحـــق ان الاجابة على هذه التساؤلات تتطلب بحثاً مستقلاً، لكون ذلك مرتـــبطاً بالبـــناء الخـــلقي الذي أوجد عليه الانسان، اذ انه ﴿**وخلق الانسان ضـــعيفاً**﴾[٣]. صـــحيح ان الخـــالق الحكيم قد خلق كل حيوان مزوداً بغرائز وقوى تناسب حياته الارضية، لكن الانسان ــ رغم تمتعه بالاستعداد للترقي

---

(١) امـــالي الصدوق، ص٧٩ مجلس٢٧، بلفظ (فلو ان رجلاً تولى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة).

(٢) البحار، ج٢٧، ص٩٥.

(٣) النساء: آية ٢٨.

والتكامل الروحي ــ خلق ضعيفاً من حيث الطبائع الاوليّة والغرائز اللازمة لحياتــه الارضــيّة، لكــن في المقابل قد زُود بما يمكنه ان يختار به الخُلق المناســب ككائن مكرّم ومسؤول مكلّف. وبهذا يسدُ النقص ويرفع الضعف، ووظيفة المربّين هي مساعدة الانسان في تكميل نفسه وتخليصها من ضعفها الطبيعي، وهذا ما يرمي اليه قول الرسول الاكرم (ص): «بعثت لأتمم مكارم الاخــلاق» أي: اكمــال الخصال الحميدة والصفات الاكتسابية المرهون بها ســعادة الانسان. فالانسان يبدء مسيرته ضعيفاً، لكن بالتربية الرشيدة المبتنية عــلى الاخلاق القويمة وبما أُوتي من ارادة وفكر، يتجاوز هذا الضعف الى القوّة وينطلق من النقص الى الكمال الممكن له.

## نوعان من الاخلاق

منظروا الاخلاق فريقان، فريق يقيم اخلاقه على الانانيّة وحبّ الذات. آخذاً بما يقال لــه «تنازع البقاء» وان الاقوى هو الابقى، فهو يحرص على تقويّة ذاته فقط. ومن هؤلاء «نيتشه» فإنه يقول بصراحة: ان القوّة وحدها هي اســاس الاخلاق. وكذلك هي طبيعة الاخلاق الشيوعيّة، فان اساسها المنفعة الشخصية.

وفــريق يعطــي للاخــلاق قيمــةً ذاتية. ويعتبرها عدواً للذات والانا ومحاربة لها. فالصدق والامانة وغيرهما امور حسنة ولا ينبغي التفريط فيها لحساب الذات، بل يجب ان تداس الذات لاجلها.

وبهذا يتضح لنا ان مسألة «النفس» في باب الاخلاق مسألة هامة، وهي حدّ فاصل بين اتجاهين مختلفين.

**عماد الاخلاق**

كيف نقنع الفرد بضرورة الفضائل وضرر الرذائل؟ ومن أي باب ندخل اليه كي يؤثر الصدق والحق.. و.. على منفعته الشخصية ونزواته الحيوانية؟ وبعبارة ثانية: يراد من الاخلاق ان تكون حرباً شعواء ضد الانا والذات. وهذا لا يكون الا باعتمادها على منطق سديد يقنع المرء ان يجاهد نفسه. وبدون ذلك ستكون الاخلاق مجرد كلمات رنانة لا تملأ فراغاً من القلب ولا تجيب سؤالاً من العقل.

انها كلمات فارغة لا نفع وراءها ولا فائد ترتجى منها الاّ دفن «الذات» تحت رمادها. كما يقول ذلك «الكسيس كارل» فالاخلاق في نظره كالبندقة الفارغة من اللب. وهذا هو سر زهد البشر في الاخلاق.

والملاحظ انه كلما تقدم العالَم في ميادين الثقافة والعلم، قلّ تمسكه بالاخلاق الفاضلة وازداد قناعةً بعدم جدواها، لانه اذ يفكر مليّاً فيما يعرض عليه منها؛ يرى انه لا عماد قويّاً لها يصمد امام منطق «الانا» الداعي الى اعتبارها فوق كل شيء. فلماذا يتعب ويكدح لاجل اسعاد الاخرين؟ وما هو عوض ذلك؟ واذ لا يجد جواباً مقنعاً من ملقنى هذه الكلمات، يعرض عنها ويصرف نظره. لماذا؟ لانه لقن ذلك في منزل العائلة ومدرسة المجتمع، لكنه ما ان يتقدم في العلم والفكر سوف يدرك انه لا واقع لهذه الاخلاقيات، لانه لم يقدم له تفسير منطقي لها. ولعمري انه لخطر عظيم يهدد البشرية، لان الضد هنا هو «العلم» لا الجهل والوعي لا السذاجة، وحتى اولئك المحرومون من الرشد الفكري والوعي، والذين قد يؤمنون بما يلقنون به من مفاهيم، سرعان ما يشككون فيها لمجرد همسة اذن من مشكك، فالجندي قد يتولدلديه بالتلقين المستمر احساس كاذب بحب وطن وتراب ما، وقد يضحي بسبب هذا

الاحساس بالكثير، ولكن هذا الاحساس مبنى على رمال متحركة، ينهار لاقل نسمة تهب عليه، لانه احساس ليس له ركيزة راسخة في ارض الحقيقة. وهذا هو نوعيّة الاخلاق التي يروج لها الماديون، لكن لا يجدون لها سوقاً.

**معرفة الله عماد الاخلاق**

كما ان «اول الدين معرفته» تعالى، كذلك هي حجر الزاوية في انسانيّة الانسان واخلاقه، فلا معنى لها بدون معرفته تعالى، وكل المعنويات لا قيمة لهـا الا في ظلّه تعالى، فالانسانيّة والمحبّة اذا لم ترجعا اليه تعالى فهما هباء ولا يمكـن ان تكونا مظلّة للاخلاق. وانا لم ارى احمق من منطق «برتراند راسـل» ذي الاتجاه المادي. فإنه يدعو للاخلاق الفاضلة باسم الانسانية من دون ربطها بالله تعالى والروح، انه هراء، لانه ما لم يؤمن الفرد بالله تعالى وما يتبع ذلك، فسينظر لبقية الافراد كما ينظر للشجر او الخراف.

وقـد يقول احدكم باننا نرى الانضباط الاخلاقي في مجتمعات متمدنة بعيـدة عـن الله تعـالى. فهم لا يكذبون ولا يخونون ولا يتجاوزون الحدود والقـانون الموضـوع لهم رغم عدم لجوءهم للدين والامور المعنوية، وهذا مشـاهد فـي الشعوب الاوربيّة والامريكية، وبما ان الوقوع ادل دليل على الامكـان، نستنتج امكان بناء الاخلاق بحيث تعلو على «الانا» بلا حاجة الى الايمـان بالله ومعرفته. والحق انى انا ايضا كنت لفترة اعتقد امكانيّة ذلك ، حـتى انكشـف لي شيء آخر. وهو ان «الانا» المعبودة لها انواع ومظاهر مختلفة منها:

**الف ــ: الانا الشخصية:**

وهي اضيق انواع ومراتب «الانا والنفس». بمعنى ان صاحبها لا يرى

فـــي مرآة الحياة سوى ذاته، فهو يعيش وحده ويسعى لسعادته هو فقط. فذاته هو محور اهتماماته وغاية خطواته.

**ب ــ الانا العائلية:**

وهـــي اوســـع دائرةً من سابقتها، بمعنى ان ذلك الفرد صاحب «الانا» الضيقة يوسع دائرتها لتشمل افراد عائلته من زوجة واولاد، لذا ترونه عادلاً واميـــناً وصادقا وعطوفاً في منزلة، بل هو يبذل نفسه كي يسعدهم، وبعبارة أخرى: هو نموذج رائع للإنسان لكن في حدود العائلة والمنزل. امّا اذا غادره الى المجـــتمع فهـــو شيء آخر.. ترونه يريد كل شيء لعائلته، ويتوسل لذلك بالحرام قبل الحلال وبالرذائل قبل الفضائل، ولان «ذاته» كبرت بالعائلة وثقل العـــبء، فـــان حرصه وسعيه سيشتدان بلا ريب... وهذا يتطلب مزيداً من الاحـــتيال والغش والنفاق و... و.. لتأمين لوازم «الانا» الكبيرة. وهذا كلّه لا يخـــرج عـــن مفهـــوم عبادة الذات والانغماس فيها. ولا يمكن عدُّ ذلك من الاخـــلاق ولا يمدح صاحبها، لان الاخلاق كملكة لا تجزء ولا تخلّف فيها، والا فحتى قطاع الطرق واللصوص لا يسرقون اموال بعضهم ولا يخونون، بـــل يـــتعاونون وقـــد يؤثـــر احدهم صاحبه على نفسه، فهل نحترمهم لذلك ونتخذهم قدوةً لنا؟

**ج ــ الانا الوطنية:**

والكـــلام هنا هو الكلام هناك، بلا فرق في البين، اللهم الاّ في السعة، فـــان مَـــن يـــنذر نفسه لوطنه وبلاده تكون «الانا» لديه اكبر ودائرتها اعظم قطراً، فهو يعتبر وطنه جزءً من ذاته، فهو لا يخونه ولا يفرط في مصالحه ولا يســـفك دماء بني وطنه، لان ذلك كلّه مرتبط في رأيه بذاته هو. لكنه لا يـــتردد ابداً في اقتراف السيئات وارتكاب الجرائم في سبيل هذه الانا الوطنية

مـــن دون ان يرف له جفن، وهذا هو حال رجال السياسة في اوربا، فكم من جـــرائم عظـــام ارتكبوها بحق الدول والشعوب المستعمرة، والانكى من ذلك انهم يفخرون بذلك ويعتبرونه انجازاً ونصراً وطنياً، هذا، بينما تجدهم انفسهم فـــي اوطـــانهم مـــثال العدل والامانة والاخلاق، فهذه المصطلحات لا معنى محصـــل لها الا في داخل بلدانهم. كما يقول مؤلف كتاب «الحرب العالمية» «ان الحديـــث عن الاخلاق انما ينطبق على الافراد لا الشعوب». أي: افراد الدول القوية الاستعمارية. وشاهد ذلك المآسي التي تحملها الشعب الجزائري جرّاء اعتداء الفرنسيين عليه، الم يكن الفرنسيون اول من اصدر وثيقة حقوق الانســـان عـــلى مســـتوى العالم؟ فاين كانت هذه الوثيقة ايام الحرب الاولى والثانية؟ اليس الشعب الجزائري بشراً له حقوق؟

فهـــل رحمـــوا منه امرأةً او رقّوا لاطفاله؟ هل احترموا تراثه الثقافي ومكتـــباته العلميّة ومساجده؟ كلا، لم يفعلوا شيئاً من ذلك، لانهم كما يقول الله تعالى **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الدّ الخصام﴾**[1] فهو يعجبك بجميل كلامه ويستميلك ببريق معانيه، وهو يؤكد كلامه باشهاد الله على ما في قلبه وانه صادق كل الصدق وعامل بمـــا يقـــول، لكـــنه «اذا تـــولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل».

### كلام گوستاولوبون

كـــتب المذكور اخيراً كتاباً بعنوان «مدنيّة الاسلام والعرب»، وعقد فيه فصلاً بحث فيه اسباب عزوف الشعوب الشرقيّة عن المدنية المعاصرة، ذكر

---

(١) البقرة، آية: ٢٠٤ و٢٠٥.

منها:

١ ــ عدم توافق الوضع الحياتي للامم الشرقيّة مع حياة الامم الغربيّة، فإن الثانية تحيا حياةً بسيطة وعاديّة، اما نحن الشرقيين، فنأخذ في حياتنا بما توصلنا اليه من اكتشافات واختراعات، أي اننا نصبغ حياتنا بما وصلت اليه مدنيتنا ونكيف وضعنا على ذلك لا على الوضع الغربي.

٢ ــ المظالم التي يمارسها الغرب دوماً تجاه الشعوب والبلاد الشرقيّة والاضرار التي يلحقها بها في الانفس والاموال.

ثــم يذكر ما فعلته ايديهم في امريكا والصين والهند، خصوصاً قضية تــرويج بــريطانيا لمادّة الافيون في اوساط الشعب الصيني لاحكام القبضة عليهم، ومقاومة ساسة الصين لذلك واندلاع الحرب بين الطرفين، وكيف ان الانجليز صبوا نيران مدافعهم وحمم قنابلهم على رؤوس الشعب الصيني حتى اجبروهم على قبول الافيون وتصديره اليهم، وحصيلة ذلك هلاك ستمائة الف صــيني سنوياً، بينما لا تغرم بريطانيا سوى خمسة عشر مليون ليرة سنوياً تدفــع كفــائدة لــلحكومة الصينية. وفي خضم هذه الاحداث يرسل الانجليز مبشــريهم للعشــب الصــيني. فيتساءل الصينيون بدهشة وحيرة: واعجباً! تروجون الافيون وتفسدون الشباب وتهلكونهم ثمّ ترسلون مَن يدعونا للاخلاق والايمان!

### طريقان لجهاد النفس

لا يمكــن ان تــتجذر الاخلاق الا بفناء «النفس وذوبان الانا» لكن لا بالمعنى المعروف عند مرتاضي الهند ومتصوفة الاسلام، وهو سحق النفس واعدامها وكأنها لم تكن، فان الاسلام كمنهج للحياة وروح للاحياء يرفض هذا

الجهاد، بل هذه ابادة واستئصال لا جهاد. فهذا طريق.

والطريق الاخرى عبارة عن توسعة هذه النفس وانفتاحها على الاخرين، اعطاءها ابعاداً لا حدود لها من الحب والشفقة والعدل... و.. بحيث ينطوي فيها العالم الاكبر. شعر:

* انا مبتهج جدّاً بهذا العالم لانه من ذلك المحبوب
* عاشق انا للعالم كلّه لانه كلّه فيض منه.

وبعبارة اخرى: الجهاد الامثل هو الجهاد الايجابي الذي يهذب النفس ويسلك بها المحجّة البيضاء، وهذا يكون عبرَ توسعة دائرتها لتكون ذات شعاع لا نهاية له، يغمر الموجودات، ولذا نلاحظ ان الاسلام كما يحث على جهاد النفس، كذلك في ذات الوقت يوجب حفظ حقوقها والدفاع عنها، لكن المراد النفس الفاضلة التي لا تصدر عنها رذائل. فلا ضيرَ في الدفاع عن هذه النفس بالحق. قال تعالى: **﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم﴾**[1].

وتوسعة النفس بهذا المعنى تعني ان الاخلاق في نظر الاسلام لا يحدها حدٌّ من ارض وعرق ودين. فهي سواء للمسلمين وغيرهم، فكما لا يجوز الاعتداء على المسلمين كذلك لا يجوز على غيرهم. وامّا المجازاة ــ وهي غير التجاوز ــ فتطبق على الجميع بدون استثناء كل بحسبه، يقول تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين، ان يكن غنياً او فقيراً فالله اولى بهما، فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا﴾**[2].

---

(١) النساء: آية ١٤٨.

(٢) النساء: آية ١٣٥.

فالحق يعلو على النفس الام والاب.. و.. ولا يعلوه شيء.

عندما دخل المسلمون مكة المكرمة، مكة التي كسر اهلها رباعية الرسول الكريم وادموه، مكة التي طرد اهلها الرسول واصحابه بعد ان اذاقوهم سوء العذاب. لكن يأتي الوحي بهذه الاية الكريمة **﴿لا يجرمنّكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى﴾**[1] يعني: لا تخرجكم عداوة القوم لكم عن حدود العدل بحجة الانتقام وانهم مشركون واعداء، فإن لكل شيء ادباً واخلاقا، فان تكن عداوة فللعداوة اخلاقها وادبها.

### الامام الحسين (ع) والاخلاق

وان حدث بك الرغبة لان تعيش هذا الجو فعليك بسيرة الحسين بن علي (ع). الجميع يعرف الظروف الصعبة التي قام فيها الحسين (ع) بحركته الاصلاحية، كان زمانه (ع) مملوءً بالظلم محفوفاً بالتجاوزات السافرة وهدر الحقوق. في ظل هذه الاجواء الحالكة السواد نهض الحسين (ع). ولكن... هل كل ذلك اثّر في اخلاقه الفاضلة وسجاياه الكريمة؟ هل دعته قسوة العدو الى تبني ما يتبناه من غدر ونفاق وتلون؟ كلا والف كلا، بل ان حصيلة تربيته يأبى ذلك فكيف به (ع). فهذا مسلم بن عقيل سفيره الى اهل الكوفة رفض رفضاً قاطعاً ان يفتك بابن زياد غدراً رغم ستوح الفرصة لذلك، لان ذلك جبن لا شجاعة ودناءة لا مروءة. ولمّا قيل له في ذلك قال ان رسول الله (ص): قال: «الايمان قيد الفتك».

وهذا ابو عبدالله (ع) يلتقي مع عدوه في طريقه، وكان جيش العدو

---

(١) المائدة: آية: ٨.

يعاني العطش وقلّة الماء، فما كان منه (ع) الا ان سقاهم واحداً واحداً ورشّف الخيل ترشيفاً[١]. ولما اقترح عليه اصحابه ان يغتنموا الفرصة ويبادروهم القتال ابى (ع) ذلك ما لم يبدأوا هم بالقتال. اجل هذه هي الاخلاق القائمة على معرفة الله تعالى، اخلاق شامخة لا تنال منها عوادى الدهر ونوائبه، ولا تحدُّ منها حب الذات والاهل والجاه.

في يوم عاشوراء، يوم الدم والشهادة، اراد احدهم الاغارة على مخيم ابي عبدالله (ع) من الخلف، لكنه فوجئ في عتمة الليل بالخندق المحفور فثارت ثائرته واخذه الغيظ، فاساء الكلام وتلفظ بقبيحه، فقال مسلم بن عوسجة: ائذن لي يا بن رسول الله ان ارميه بسهم، فمنعه الحسين وقال له: «لا ترمه فاني اكره ان ابدأهم».

وخلاصة القول: ان مسألة «الانا والنفس» ليس لها حل جذري الا في ظل الدين والايمان بالله تعالى، والا فالحلول اجمع ستذهب ادراج الرياح، ولن تجدى الاخلاق الشيوعية ولا اخلاق نيتشه ولا ميكافيلي، لانها محدودة وضيقة الابعاد، بل هي لا تُعدُّ نظريات اخلاقية، بل هي ردود افعال وانعكاسات افراطية لحالات نفسيّة ضمن ظروف خاصّة. ولا يخطرنّ ببالكم ابداً امكان تطبيق هذه المفاهيم التي ينادون بها من عدل وانسانيّة واستقامة.. كما ينبغي بدون الاعتماد فيها على معرفة الله تعالى. لانهما متلازمان، بل ان احد الادلة على ديمومة الحاجة الى الله تعالى والايمان به هو حاجة البشرية للاخلاق، فما دامت بحاجة اليها فهي بحاجة الى قوامها وهو الله تعالى، لانه هو مبدأ كل شيء واليه ينتهي كل شيء، وكل شيء لا يتصل به فهو منقطع

---

(١) تاريخ الطبري ج٥، ص٤٠٠.

الاول والاخر، يقول تعالى:

**﴿الـم تـر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفـرعها فـي السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾**.

فـالقول الحـق والكلمة الطيبة، متجذران في فطرة الانسان ووجدانه كـتجذر الشـجرة الباسقة في الارض الصلبة. تؤتي ثمارها كلّ فصل، فكل فصولها ربيع. اما زخرف القول وباطل الكلام، فهو مهما ظهر بمظهر الحق والعـلم **﴿مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قـرار﴾** فكمـا ان الشـجرة الـتي لا اصل لها متزلزلة، كذلك باطل الكلام، كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً.

# الباب الرابع

# الأزمة الأخلاقية في عصرنا

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قبل الشروع في تشخيص داء الإنسانية الذي افرزته الايديولوجيات المتعاقبة على فكر هذا «الإنسان» وقلبه المتوجس خيفةً، من اللازم تقديم مقدّمة قصيرة عن «العقيدة وقيمتها».

**قيمة العقيدة**

تنقسم « قيمة» كل عقيدة إلى قسمين:

**١ ــ قيمة نظرية.**

**٢ ــ قيمة عملية.**

والمقصود من «القيمة النظرية» مدى تطابق تلك العقيدة والرؤية مع الواقع المعاش. بحيث تكون «شرعيتها» مرهونةً بمصادقة الواقع عليها، ولمعرفة ذلك يُلجأ اما إلى التجربة والاختبار، واما إلى الاستدلال العقلي، ومثال ذلك:

ان «بطليموس»[١] كان يعتقد بمركزية «الارض» للعالم وان بقية الافلاك تدور حولها. ثم جاء العلماء من بعده وابطلوا هذا الرأي. منهم الفلكي «كبرنيك»[٢] الذي قال بمركزية الشمس للمنظومة الشمسية فقط لا لكل

---

(١) كلوديس بطليموس، فلكي وجغرافي يوناني مشهور، توفي حدود عام ١٦٧ أو١٦٨ نشأ في الاسكندرية . له كتاب: «المجسطي» و«جغرافية بطليموس» .

(٢) نيكلا كبرنيك، فلكي بولندي ١٤٧٣ ــ ١٥٤٣م ، ردّ نظرية « بطليموس » في كتابه « الاجرام السماوية » ، احدث بنظرياته انقلاباً كبيراً في العالم، يعتبر ابا علم النجوم الحديث.

الكون. ونحن إذا اردنا معرفة «القيمة» النظرية لكلا هذين الرأيين، فلا بد من إخضـــاعهما معـــاً للـــتجربة، فانها اكبر برهان حيث تمكن. وحينئذٍ تكون «القيمة» والاعتبار للرأي المؤيَد من قِبل التجربة والاختبار.

أما (القيمة العملية) فالمقصود منها ملاحظة ما تقدمه تلك النظرية من نفـــع مباشـــر وفـــائدة ملموسة تعود بالخير على البشرية، بغض النظر عن مطابقـــتها لـــلواقع وعدمها، وكلما كانت الفائدة أكبر كانت القيمة أكبر. وهذا الكـــلام يـــأتي فـــي كل مشروع وعقيدة تقدم للاستهلاك البشري ــ ان صح التعبير ــ بما في ذلك المعتقدات الدينية وتصـــوراتها عن (الاله) و(الإنسان) و(الحيـــاة). والذي يتكفل بإثبات (القيمة النظرية) للأصول الدينية، من توحيد ونبوة وغيرها، هو (علم الكلام) أما المتكفل بإثبات (القيمة العملية) فهو علم الأخلاق وحكمة التشريع.

وهاتان القيمتان لا بد من توفرهما معاً لديمومة النظرية واستمرارها، ولا تغـــني إحداهمـــا عن الأخرى في ذلك، فإذا ما افتقدت النظرية إحداهما فقـــدت قيمـــتها واهميتها. لا حاجة للقول هنا بأن هاتين القيمتين متلازمتان، بمعـــنى انه لا يمكن بحال كون النظرية معتضدة بصحيح البرهان ولا نفع فيها لبنى الإنسان، أوتكون ذات نفع عام لكنها مهجورة العقول والأفهام، لأن الحقيقـــة تســـاوي الخيـــر كما يقرر ذلك الذكر الحكيم، والحقيقة بدون خير زخرف وباطل، لأن الإنسان يسعى إلى ما فيه صلاحه. ويأخذ بما فيه قوامه، وبعـــبارة اخرى: العقيدة التي لا رصيدَ لها في صقع الواقع ليست ذات خير ونفـــع للبشرية مهما لمعت، اذ ليس كل ما يلمع ذهباً. لان مقصودنا هو النفع الاعم من المادي والمعنوي، فليس عندنا الا شقين: اما عقيدة مدعومة نظرياً، فهي خير، واما عقيدة مغشوشة، فهي شر. ولا يوجد شق ثالث ملفق.

نعـم، ربمـا جلبت العقيدة الفاسدة والمقولات الكاسدة شيئاً من الفائدة، لبعض الناس، لكن ذلك إلى أجل مسمى، لأنه لا دولة للباطل، بل هو ــ كما يقـول القـرآن ــ زبـد يذهب جفاء، يقول الحق تعالى: **﴿فأما الزبد فيذهب جفـاءً، وأمـا مـا ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**[1]، ان النحل المتطفلة والمذاهب الجوفاء آيلة للفناء والاضمحلال وان عمّرت حيناً من الدهر ، لأن هـس الفطـرة السـليم يلفظها ويرمي بها بعيداً ، وهذا مما يشهد به تاريخ البشـرية القديم والحديث، وهذه الاية الشريفة تُعد من مظاهر إعجاز القرآن الكـريم، لأن مضمونها أرقى من ان تناله يد البشر أوينطق به لسان إنسان، ولقـد ضرب لنا تعالى في هذه الآية مثلاً هادياً، حيث شبّه الباطل بذلك الزبد الذي يعلو ظهر الماء حينما ينحدر من الجبال سيلاً راعباً، فيحجب الماء عن الابصار، فيحسب الجاهل قصير النظر بأن الماء ــ وهو رمز الحق ــ صار مغـلوب الزبد ــ وهو رمز الباطل ــ ولكن الامر ليس كذلك، لأن هذا الزبد سـيذهب ويـزول ليبقى الماء الزلال، لأنه هو النافع، والحق هو ماء الحياة للناس، والباطل هو الزبد الذي يغشى وجه الحق إلى حين.

هـذه كانت مقدمة قصيرة لما نريد بحثه وهو الداء المزمن الذي يعاني منه إنسان العصر.

## الأزمة المعنوية والأخلاقية اعقد مشكلات العصر

علماء الاجتماع والمحللون يعلمون جيداً بأن أكبر العقبات التي تواجه المجـتمعات البشرية ــ خصوصاً المجتمعات المتطورة أو ما يسمى بالعالم الأول ــ هـو التوتر المعنوي والضمور الأخلاقي. وفي جنب هذه المشكلة

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٧.

تهون المشاكل الأخرى سياسية كانت أم اقتصادية. لأن الازمات السياسية ــ مثل قضية (العرب وإسرائيل) ومسألة الحدود المتنازع عليها بين الصين والاتحاد السوفيتي ــ لا تُعد من الازمات المستعصية على الحل. ومثلها الازمات الاقتصادية كمسألة التضخم العالمي، بل حتى مثل الحروب العالمية. فهذه كلها تُحل بطريق أو بآخر. الازمة الوحيدة الجامعة التي ما زال يتخبط بها العالم هي الازمة المعنوية الجاثمة على صدر انسان اليوم. ولربما كانت بعض الازمات المستفحلة غير معنوية في الظاهر، لكنها في نهاية المطاف تعود إلى اسباب معنوية. وسأستعرض الان جملة من مظاهر هذه الازمات المستشرية.

**١ ــ الانتحار:**

تفشي ظاهرة (الانتحار) من المسائل التي تؤرق من يهمهم الامر، وتشير الدراسات في هذا الشأن إلى أن هذه الظاهرة المشؤومة تتوطن في الاصل المجتمعات الراقية والمرفهة. مما يعني ان أسبابها غير مادية وليست من سيئات الفقر، (وان كان الفقر المادي نفسه ناتجاً عن أمر معنوي).

إذاً: ماهو (العامل) المتهم هنا؟

انه الشعور المتنامي بعبثية الحياة والعجز عن معرفة سرها ، فالانسان لا يدري لماذا يحيا ، وما فائدة هذه الدنيا ؟ انه الفراغ يملأ كيانه ويخنقه من كل جانب ، انه الجزع وعدم القدرة على تحمل مصاعب الحياة ومكاره الدهر، فيكون هذا باعثاً على التنصل من المسؤولية ، وعلى حد تعبير هؤلاء: ان الحرية تكون في الحياة المنفلتة والفارغة من أي معنى. فهذه المشكلات الحياتية (والتي لم تكن تعتبر كذلك في السابق ولا تسلب نوم

ساعة من أحد) غدت عقدة لا تنحل في عصرنا الحديث، بحيث صارت تسلب الحيـاة فضلاً عن النوم. والإحصاءات شاهدة على ذلك، وقد اقتطعت بعضاً مـن قصاصات جرائدنا نذكر أرقاماً إحصائية أوردت بعضاً منها في كتاب (مسألة الحجاب).

**٢ ــ الفراغ**

إذا عُـرفت المقدمـات ينـبغي ألاّ يُفاجأ بالنتائج، ان الحياة السطحية والـرفاهية، والخـلاء الـروحي، وضـبابية الـرؤى الاجتماعية والدينية ــ إضافة إلى قلة ساعات العمل وارتفاع الأجور في الدول الصناعية ــ كل هـذه عوامـل أوجـدت فراغاً وأوقات ميتة، وقد قيل قديماً: ان يكن الشغل مجهدة، فإن الفراغ مفسدة.

والفراغ في نفسه سبب لكثير من السلبيات ما لم يُملأ، لكن كيف يملأ؟ ان مـا وفروه من وسائل تسلية كالسينما والمسرح ونحوهما، زاد الطين بلّةً كمـا يقولـون، لأن هـذه (المسليات) تؤدي إلى نسيان (النفس) واللهو عنها وتـنمية (الـنفس) السرابية الخادعة، ولا يلبث الإنسان حتى يرجع إلى نفسه مستشعراً الفراغ يلفه من جديد.

**٣ ــ شيوع الأمراض العصبية والنفسية**

(أمـراض المدنية) اسم أطلق على مجموعة الأمراض والإضطرابات النفسية التي أفرزتها (المدنيات) المعاصرة.

الإحصـائيات ــ وهـي موجودة لدى الغرب من أكثر من مئتي عام، خلافـاً لحالنا ــ تشير إلى أنه كلما ارتفع المستوى الصناعي والرفاه المادي إزدادت هـذه الأمراض شيوعاً، ويؤيد هذا ان اسلافنا كانوا بمنجى من هذه

البـليّات رغـم مـا عانوه من خشونة الحياة وبدائيتها. ثم انه غير خاف ان الأمـراض العصبية تارة تؤدي إلى الآم وعلل عضوية، مثل التهاب الامعاء وقرحة المعدة، وتارةً تؤدي إلى تأزم نفسي محض مثل الاكتئاب. وآمل ان لا يُسـاء فهـم كلامي، فأنا لا أحبذ الفقر أو ادعو للحد من التمدن، كلا، وإنما أدعـو إلى إيجاد الحل الأمثل لرفع هذه الأمراض المكدرة لصفو الحياة لئلا تكون ضريبة (التمدن) هي حياة الإنسان وسعادته.

**٤ ــ الانفلات وتمرد الشباب**

مـن الظواهـر المنتشرة في عالم الغرب تميع الشباب وانفلاتهم من الـتقاليد والأعـراف والسنن، فلو سرحت فيهم بصرك، لرأيت واحدهم وقد أطـلق شعر رأسه ولمتّه، وأبان عن ذراعه ومتنه، ولم يرتد من الملبوس الا مـا تهلهل وتخرق، ولا من السروال الا ما قصر وأطبق، وهذا النموذج من الشباب يصطلح عليه بـ (اللاأبالي)، و (اللاأبالية) تدل على صدوف الشبيبة عـن المدنيـة الحاضرة وعزوفهم عنها رغم ما توفره لهم من ادوات المتعة ومستلزمات الراحة المادية، وما ذلك الا لشعورهم بعدم أهليتها وقدرتها على تلبية حاجاتهم الحقيقية، بل على العكس، وجدوا أنفسهم واقعين تحت ضغوط نفسية مرهقة، فرأوا ان الأجدر هو ان يكونوا (لا أباليين) فتعاطوا المخدرات لعلها تخفف شيئاً من آلامهم وهمومهم.

وهـذا الجيـل اللامبالي، لديه قناعة بان هذه المدنية فارغة المضمون وأنهـا كالبرق الخُلّب، وان كانوا قد لا يشخصون داءها، وفيما إذا كان هذا الـداء يكمن في تقصير الآلة الصناعية أوفي ضحالة (الفكر) وفقره؟ ولأجل هـذا كلـه نراهم يتوافدون على الشرق (خصوصاً اقصاه) زرافات ووحداناً اعـتقاداً منهم بأن فيه بغيتهم وبأن فيه من الإيمان ما يشبع روحهم ويطمئن

نفوسهم القلقة، ان (الآلة) الصماء التي علقوا عليها آمالهم، لم تزدهم في أنفسهم الا خساراً، ولا في أخلاقهم إلا جفافاً وانحداراً، فيمموا الشرق والبلاد الهندية، طلباً لندى الايمان وطراوة العرفان.

ومن حسن الحظ ان هذه الظاهرة محدودة الوجود بين شبابنا، فهم واقعاً لا طغيان فيهم ولا انفلات، والموجود من ذلك بينهم تقليد محض لشبيبة الغرب، فهي ظاهرة مهاجرة لا جذور لها في نفوس شبابنا.

**٥ ــ إنحسار العاطفة**

ان اللهاث وراء سراب الحياة والابتعاد عن الله افضيا إلى جمود الاحساس بالحب والمودة بين الأفراد ، فهم يعيشون بلا روح تقدح فيهم شعلة العاطفة الدافئة، تماماً كالآلة الصمّاء، حتى الأمومة فقدت معناها، فلم تعد الامهات يحببن أولادهن كما تقتضيه مشاعر الأمومة.

وكذا الأخ بالنسبة لأخيه، .. وهكذا ، حتى نصل إلى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. وهذا ينعكس سلباً على العلاقة الزوجية التي هي نواة المجتمع، فتزداد حالات الطلاق وتتفرق العائلة حينئذ أيدي سبأ، والحكايتان الآتيتان تعبرّان تعبير صادقاً عن هذا الواقع المرّ:

**الاولى:** نقلها إلي أحد علمائنا الافاضل، قال: انه ابتُلي قبل سنوات بقرحة المعدة، فعزم على السفر إلى (النمسا) للعلاج ولزيارة إبنه المقيم هناك. فلما أتم علاجه وتماثل للشفاء ذهب وابنه إلى مطعم، وكان ابنه يقوم على خدمته ويبالغ، وكان بالقرب منهما رجل وامرأة يناهزان من العمر (٦٥) عاماً، وكانا يختلسان اليهما النظر بين الفينة والاخرى، يقول هذا الفاضل: ثم انهما استدعيا ابني وتحادثا معه قليلاً ، فاخبرني أنهما سألاه: من هذا الذي تخدمه وتبالغ ؟ فأجابهما: انه والدي، فقالا مندهشين: وإن، فهل يعمل المرء

مجانـاً لأبيه ولو شاء لأتخذ أجراً؟ فردّ عليهما: وكيف لا أكون كذلك؟ وهو الذي يرسل الي من (إيران) نفقة دراستي هنا.

ففغرا فَمَويْهما تعجباً واستغراباً، ثم قالا: نحن زوجان، ولنا بنت وابن لكـنهما تركانا وحيدين وافترقنا كل في مكان، ثم عقبا: لقد تلاقينا واحب كل مـنا الآخر قبل (٣٣) عاماً، واتفقنا آنذاك على ان نتعاشر لفترة من الزمن، فـإن توافقـت طباعنا وتجانست أخلاقنا قصدنا الكنيسة وعقدنا عقدة النكاح، وإلى الآن لم نتزوج!!.

**الـثانية:** قـرأتها فـي إحدى صحفنا، وحاصلها: ان طائرة ارتطمت بـالارض فـي (مصر) وقتل في الحادث (٩٢) راكباً، وقيل وقتها: إن أحد موظفي المطار، كان مطلعاً سلفاً على مآل الطائرة، وانها سرعان ما تهوي، لأنهـا كـانت على ارتفاع (٢٠٠٠) متر، والمفروض الا يقل ارتفاعها عن (٣٥٠٠) لكنه لم يحذر قائدها، فلما سُئل عن السبب في عدم تحذيره له أجاب بـبرودة أعصاب: ذلك ليس من وظيفتي!! ان اصحاب هذه القلوب التي هي كالحجـارة بـل أشـد قسـوة، أنـاس مثلـنا خلقةً وفطرةً ، وقد يأتي يوم ــ لاسمح الله ــ نصبح فيه مثلهم، نفقد انسانيتنا في أدغال المادة.

**٦ ــ المجاعة**

ذكـرنا سابقاً ان بعض الازمات قد لا تصنف ضمن الازمات المعنوية اصـطلاحاً، لكن لها اسباب معنوية، ومن ذلك مسألة المجاعة، فمن المعلوم انـه يوجد الآن في العالم أكثر من خمسمائة مليون إنسان جائع، أكثرهم في افـريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وان كان يوجد ايضاً كم غير قليل منهم في الدول الغنية، وهذه المأساة مردها عدم الاحساس بالمسؤولية الإنسانية، وسوء توزيـع الـثروة وتبديدها فيما لا ينفع، فلو خُصص خُمس ميزانيات التسلح

العالمي لصالح القطاع الزراعي، أو(الثورة الخضراء) كما يسمونها ، لانجلى هذا الكرب والهم.

ان رقـم المخصصات العسكرية قبل ثلاث سنوات وصل إلى (٢٠٤) مـليارد دولار، والحال ان (٥٠) مليار دولار تكفي لإنقاذ هؤلاء البشر من خطـر الجوع .. ولكن السياسة هي الحاكمة، والا فما أكثر المؤتمرات التي تعقد هنا وهناك لمعالجة هذه المشكلة ولكن دونما فائدة، ومنها مؤتمر عقد في (رومـا) واسـتمر اسـبوعاً كاملاً، وفي ختامه كان أهم خبر أعلن عنه هو الإشارة الى كرم الضيافة الذي غمر به المضيفون ضيوفهم من ممثلي الدول المشاركة.

وليس هذا وحسب، بل ان الامريكيين ينفقون سنوياً ما يقارب المليارى دولار عـلى الكـلاب والقطـط ويهدرون الفائض، وهم يرون ابناء جلدتهم يموتون بسبب الجوع والفقر.

**٧ ــ تلوث البيئة**

ان مشـكلة تلوث المحيط الحياتي للإنسان وغيره، تثير جدلاً عالمياً لا ينقضـي، ذلك أنه ــ وبكافة صوره ــ يهدد وجود الإنسان أو سلامته تهديداً جاداً، وهذا التلوث نعيشه في كبرى مدننا.

ان الهـواء ــ وهو العنصر الاساسي لحياة الإنسان ــ من أهم ضحايا التـلوث، وتلوثه يزداد يوماً بعد يوم. ولا أحسب ان هذا التلوث لا مفر منه لكونـه ضـريبة للآلة الصناعية كما يدعي البعض، بل أحسب انه ناتج عن التصـنيع غيـر الرشـيد وغير المتوازن مع حاجة المستهلك، فالمصنعون يغرقون الاسواق بمنتجاتهم التي تزيد عن حاجة الإنسان بمرات، وهذا يؤدي

إلى استمرار عمل المصانع وبالتالي إلى ازدياد مخلفاتها الضارة بالصحة والبيئة. والسبب في هذا كله الجشع والحرص على الإثراء ولو على حساب حياة البشر. وهم يدبرون آلاف الحيل لتسويق منتجاتهم، ويستغلون وسائل البث العالمي الحديثة لإغراء المستهلكين وجذب انظارهم عن طريق الجنس والموسيقى الصاخبة ونحو ذلك.

وبهذه الطريقة تبقى (تروس) المصانع تدور وتدر الربح الوفير من جيوب الشعوب، فالسبب في (التلوث) ليس هو ذات الآلة بقدر ما هو الإنسان الجشع غريق المادة. ولذا فأنا لا أوافق (توينبي) [1] فيما ذهب اليه من ان الآلة هي المسؤولة أولاً وأخيراً عن مأساة الانسان. وانها ستؤدي إلى فنائه وطرده من جنة الأرض كما طرد أبوه (آدم) من جنة السماء بسبب أكله من الشجرة المحرمة. فالإنسان ــ والكلام له ــ بعد ان عمّر هذه الأرض وجعل منها جنة بديلة لجنة أبيه، ارتكب خطأً فادحاً عندما اخترع هذه الآلة قبل ثلاثة أو أربعة قرون، لانه سيضطر لترك هذه الجنة، فهو كدودة القز، تنسج شرنقتها لتموت داخلها، ولن يكون له مكان بديل عن هذه الأرض كما كان لأبيه، بل سيكون مصيره الفناء.

وتدعيماً لرأيه ذكر (توينبي) جنايات (الآلة) وما خلفته من الآثار السيئة على الطبيعة، هوائها وغاباتها، بحارها وأنهارها وحيواناتها. ثم شفع كلامه بمثل أسطوري وحاصله: ان ساحراً سحرَ جنياً وحبسه في قارورة، وكان يتلفظ بكلمة سر لإخراجه، وكان للساحر تلميذ يتحين الفرص لمعرفة هذه

---

(١) أرنولد توينبي، فيلسوف ومؤرخ مشهور، ولد عام ١٨٨٩م. عمل أستاذاً في جامعة لندن. من مؤلفاته: (الفلسفة الجديدة للتاريخ).

الكـــلمة، وقد عرفها بعد حين في غفلة من أستاذه، فأخرج الجني واستخدمه، لكـــنه لـــم يكن يعرف كيف يدخله! فوقع في حيرة من أمره، ومن ثَمَّ انقلب الحـــال وصار التلميذ مسخراً للجني! وهكذا الإنسان، فإنه تضاءل أمام قدرة الآلة ووقع تحت سيطرتها.

هـــذا ما ذكره توينبي في مقال له نشرته صحيفة (اطلاعات) مترجماً قبل عام، ولكنني ــ كما عرفت ــ لا أشاطره هذا الرأي.

## اصالة العلم

بـــل أعتقد بأن الخطأ الفادح الذي نجمت عنه هذه التداعيات هو مقولة (أصـــالة العـــلم)، الـــتي تبناها (فرانسيس بيكون)[1] وأتباعه ونادوا بها. لقد حســـبوا ان العلم وحده هو إكسير الحياة، وأنه البلسم الشافي والدواء المعافي لكل أمراض البشرية، من فقر مدقع وظلم مطبق وجشع وقلق ، لأن هذه كلها ناشـــئة ــ فـــي نظـــرهم ــ من (الجهل) فإذا حصل العلم ارتفعت مظاهره برمـــتها، وهذه بلا شك رؤية قاصرة، لم تدرك سوى زبد الواقع، لأن العلم وحده لن يحقق للإنسانية ما تصبوا اليه من سعادة وطمأنينة بال، فالعلم وان كـــان نوراً مقدساً، لكن لابد من قرنه بالإيمان لأنهما توأمان، وإذا ما تجرد العـــلم من الإيمان تحول إلى شر وفساد، ولذا ذكرت الأحاديث الإسلامية ان المؤمـــن أحق بالعلم من غيره. يقول الرسول الأكرم ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ (الحكمة ضالة المؤمن ، يطلبها أينما وجدها، فهو أحق بها)[2]، وما

---

(١) فرانســـيس بيكـــون، ١٥٦١ – ١٦٢٦ م فيلســـوف انجليزي، دعا إلى تجريد الفلسفة وإحياء العلوم الاختبارية. من كتبه: الاورغانون الجديد.

(٢) نهج الفصاحة: حديث ٢١٩٥، ص ٤٦٤.

ذلك إلا لأن (المؤمن) هو الذي سيضع العلم في خدمة البشرية. وعن علي ــ عليه السلام ــ قال: (خذ الحكمة ولو من أهل النفاق)[١]. و(خذ الحكمة ولو من مشرك)[٢]. وشعراً يقول مولوي:

* ايها الرفيق! لئن صارت الحكمة على لسانك جارية، فهي من الأبدال، وهي عندك عارية.

وأما ما يقولونه من ان (العلم) يمنح الإنسان القوة والقدرة وانه يشفي أمراضه ويطوي بساط فقره، فهو صحيح إجمالاً. لأن العلم يجعلنا قادرين على تسخير الطبيعة والتصرف بها لا على النفوس الأمارّة بالسوء. وأما الفقر فهو ــ كما ذكرنا ــ ليس ناشئاً دائماً من أمور اقتصادية بحتة. وكذلك ما يخص القلق والمعاناة النفسية، فالعلم يقف عاجزاً قبال ذلك، كما لا يخفى ان العلم في كثير من حقوله صار آلة طيعة بيد ظالمي الشعوب وناهبي الأقوات، فكيف يعول عليه في اجتثاث الظلم والحرص والأنانية؟ ونحن اليوم نشاهد عياناً الحصاد المرّ لهذا العلم الجاف، وللأسف ظلت هذه المقولة رائجة في أوساط منظري الغرب على مدى قرن أو قرنين.

**ايديولوجية جديدة**

لكن مع حلول القرن التاسع عشر أدرك الغربيون فشل تلك المقولة، واعترفوا بان العلم وحده غير واف بحاجات البشر، وانه لابد من إقامة فلسفة

---

(١) النهج ، ص ٦٦٧ ، حكمة رقم ٨٠ و وما قبلها كان قوله (عليه السلام):
« خذ الحكمة أنى كانت ، فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صوابها في صدر المؤمن ».

(٢) بعد الفحص في نهج البلاغة و(غرر الحكم) لم أجد أثراً لهذا النص.

إجتماعية لما عجز عنه العلم، وبدأت الاطروحات والايديولوجيات تنهال من هنا وهناك، وكل يدعي انه أتى بالترياق المجرب، ولكنهم زادوا الطين بلة، لأنهم بنوا فلسفاتهم وشيدوها على نفي وجود الله ووجود روح للانسان واعتبروه (آلة) محضة للإنتاج، ومع هذا فهم يطمحون في (مثالية) اجتماعية مقدسة!، يطمحون في ان يسعى الإنسان لصيانة هذه المثالية ، وان يواسي الأخرين وينبذ الطمع والانانية والظلم.

ان ما يرمون اليه لا يتم، لأن الايديولوجية المتبناة لا تساعد على ذلك. فهم كطالب جذوة نارٍ في لُجة ماء، والعجب ان (جورج بوليستر) قال في كتاب له: نحن وان كنا ماديين فلسفةً، لكنا مثاليون أخلاقاً. انه مجرد كلام، وقائله يُدهن من قارورة فارغة. وما دعا القوم إلى هذه الأقاويل الا الفرار من الإيمان. ونحن نرى الهزائم المنكرة التي تلاحق هذه النظريات التي تأبى إلا جحود الله خالق الكون، وما انتصاراتها إلا انتصارات سياسية دعائية، كما نشاهد التخبط الذي يعيشه القطب الشرقي الاشتراكي والغربي الامبريالي، وما أشبه الليلة بالبارحة.

بعد هذا، جاء (سارتر) بحل آخر، قال: ان العلم والفلسفة الاجتماعية وحدهما لا يحققان شيئاً، لكن ينبغي التفريق بين العالم ذي الحس الميت، وبين العالم الواعي، أي الذي يدرك ــ وبعمق ــ حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الأرض وقاطنيها، فإذا ما كان العالم كذلك كفى! ولا حاجة للإيمان.

وهذا أيضاً كلام لا طائل تحته، لأن المعرفة هي المعرفة والعلم هو العلم، وليس من شأن العلم إلا الإنارة والإضاءة، وليس من شأنه تحديد الأهداف وتشخيصها للإنسان. العلم يحقق الوسيلة، وأما الغاية فبيد الإنسان، وقد تكون خيراً أو شراً. فبالعلم مثلاً تُصنع السيارة والمركبات، وبها تختصر

المســـافات، ولكـــن هل تستغل في سبل الخير أوفي سبل الشر؟ هذا موكول لـــنفس الإنســـان، فقـــد يستغل المركبة للسرقة والحاق الأذى بالآخرين، وقد يوظفها في سبل البر وينفع بها الناس. فالعلم وحدَه لا يبني الانسان ولا يجسد فيه حب الناس والارض ولا يورده مشارع الخير.

وعـــليه: فلا غنى للإنسان عن الإيمان، لأنه هو الذي يسمو بالغايات ويردع عن الموبقات، وإلا فالشيطان ــ كما يقول القرآن الكريم ــ كان أعلم من غيره بمراتب عظيمة، حتى كاد علمه أن يصل إلى الكمال. وكان عالماً بوجود الله ومعتقداً بالنبوات وبيوم القيامة. ولكنه في ذات الوقت كان كافراً، لأنه لم يكن مؤمناً بما يعلم، فلم ينفعه علمه وحده، ولذا تمرد على الحق تعالى فـــي حضرته وأبى امتثال أمره، وليس الإيمان إلا التسليم والخضوع المطلق للحق تعالى.

وهـــذا الخضوع هو الدواء الذي لا بديل عنه للإنسان. فالإيمان لا بد وان يكـــون قـــرين العلم. ومن هنا نرى القرآن دائماً يذكرهما معاً. فإذا ما افـــترقا، صـــار كل واحد منهما بلاءً وشراً.[١] وليس للقوم من محيص إلا الإقرار بهذه الحقيقة، لأن تملصهم عنها وتشبثهم بما يشبه بيوت العنكبوت لن يجديهم نفعاً ولن يجلب لهم ضرعاً، وسيظلون في ريبهم يترددون.

ومن نغماتهم الأخيرة ما نادى به جماعة من ان الثقافة هي التي يجب ان تصـــنع الإنســـان فكراً وسلوكاً، بمعنى ان على الإنسان ان يكيف سلوكه حســـبما تمـــليه عليه الثقافة المقدمة له. والحال ان العكس هو الصواب، لأن الإنسان هو مبدع الثقافة وملهمها، فيجب ان تكون منسجمة وفطرته، متأثرةً

---

(١) رحم الله أبا الحسن (عليه السلام) إذ يقول: قصم ظهري إثنان: جاهل متنسك ، وعالم متهتك.

بها. والإيمان بالإله أهم ما تمليه الفطرة الإنسانية، فإذا ما افتقدت الثقافة ذلك، فهي زبد.

### عرفان بلا دين

مـن شـواهد تخبطهم انهم لجأوا أخيراً إلى (العرفان)! ولم يعلموا ان أسـاس العرفان هو معرفة (الله) والخضوع لإرادته. انهم يريدون (عرفاناً) بـدون إله! ان هذا لشيء عجاب لأن ذلك محال، وهذا التوجه أراه أيضاً في مقالات الإيرانيين المعاصرين.

إن هـذا التخبط مصدره ابتعاد هؤلاء عن المنهل العذب للمعرفة وهو الإسلام، دين الفطرة الإنسانية، وما داموا معرضين عن الحق فلن يجدوا إلا الضـلال، قـال أبو جعفر «عليه السلام» لسلمة بن كهيل والحكيم بن عتيبة: **(شرقا وغربا، فلا تجدان علماً صحيحاً إلا شيئاً خرج من عندنا أهل البيت)**[1] وعـليه فلا منقذ للبشرية من مأزقها سوى الخضوع والتسليم لله تعالى، وهذا وحـده هـو الكفيل بحل أزماتها المستعصية، لأن هذه الأزمات ذات جذور معنوية وأخلاقية، ومرجعها عدم الإيمان والتمرد على إرادة الخالق تعالى.

فـي الماضي كانت معاناة البشر ناشئة من الجهل، ولكن اليوم ــ ولله الحمـد ــ قـد نما جناح العلم واستطال، ولكن جناح الإيمان ما زال كسيراً، والبشـرية لا يمكنها التحليق بدون جناح الإيمان، لأن جناح العلم وحده غير كاف، كما أن الايمان إذا رافقه الجهل والحمية الجاهلية، لن يكون قادراً على الـنهوض بالإنسـان والإرتقـاء به إلى معالي الأمور، بل يكون وبالاً على صاحبه.

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٣٩٩، ح٣.

ومن هنا نجد ان القرآن المجيد يؤكد على العلم والايمان معاً.

فتارة يقرنهما كما في قوله تعالى: ﴿وقال الذين أوتو العلم والايمان﴾ [١] وتارة يُفرد أحدهما بالذكر، كما في قوله تعالى: ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ [٢].

والسر في الحاجة للإيمان هو ان الايمان يفتح حصوناً لا سبيل للعلم اليها، وتلك هي حصون النفس الإنسانية، وهذا الفتح هو ما يسمى بالجهاد الأكبر في علم الأخلاق وتهذيب النفس، وهذه التسمية مستفادة من الحديث النبوي المعتبر المعروف عند السنة والشيعة. فقد كان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يريد توجيه أنظار صحابته إلى هذا النوع من الجهاد وبيان أهميته، فلما كان اليوم الذي رجعوا فيه من إحدى الغزوات فرحين بنصر الله، استقبلهم مبنئاً، فقال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الاكبر، فقيل: يا رسول، ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس[٣]. بمعنى ان الجهاد في الإسلام لا يقتصر على مقارعة الطغاة ومحاربة الظلمة، بل يوجد عدو داخلي أخطر تجب مقارعته والحذر منه. وقد أجاد مولوي في تصويره لهذا المعنى شعراً إذ يقول:

* ايها الفرسان قد قتلنا عدونا الظاهري، لكن بقي عدو داخلي ألد وأخطر.

* وقتل هذا العدو لا يكون بالعقل والعلم، وهو قوي وذو بطش

---

(١) سورة الروم، آية: ٥٦.

(٢) القصص: آية ٨٠.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٥، ص١٦١ ب١، من أبواب جهاد النفس ح١. طبعة مؤسسة (آل البيت) الاولى ١٤١٢.

كالأسد، وليس كالأرنب اللعوب.

* ان النفس نار موقدة ، والنار تبتلع من يقترب منها كما يبتلع الثعبان.

* وهذه النار الحريق ــ التي هي النفس ــ لا يخمدها ماء البحر.

والمعنى: ان حصن النفس لا ينفع معه علم أوفلسفة، بل لا بد من ايمان راسخ يدكه دكاً، ولذا ذكرنا فيما سبق ان الخطأ الذي وقعت فيه البشرية ليس هــو اخــتراعها (الآلة) كما يقول السيد (توينبي) بل الخطأ يكمن في الطمع والحرص اللذين لا حدود لهما. وإطلاق العنان في ذلك للنفس. وهذا ناتج من عــدم الايمان، ولن يلجم هذه النفس ويسخرها سوى الايمان وليس لنا طريق نجاة إلا بالرجوع إلى دفء الايمان.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# الباب الخامس

# الاخلاق الشيوعية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كـل مذهب ومدرسة تدعي الشمول لا بد لها من وضع معيار وميزان للأخـلاق . والمذهـب الشيوعي باعتباره مذهباً يقدم تفسيراً شمولياً لظواهر الطبيعة والمجتمع فإنه أدلى بدلوه في المجال، وأقام نظاماً أخلاقياً يرتكز على معيـار محدد. وقبل ذكر ومناقشة هذا المعيار، لا بد أولاً من الإلمام بأوليات هذا المذهب لتتضح لنا الرؤية بشكل أفضل.

(الشـيوعية) مصطلح يراد به جعل الثروة كلها ملكاً للمجتمع ، بحيث تزول الملكية الخاصة زوالاً أبدياً من المجتمع.

وهـذا الهدف هو ما تعمل (الماركسية) على تحقيقه. وتعد الماركسية أشهر الاتجاهات (الاشتراكية) وهي منسوبة إلى (كارل ماركس)[١]، وقوامها (الماديـة الجدليـة ــ الديالكتيكية ــ ) وقد طبقت هذه (المادية) على التاريخ والاجـتماع والاقتصاد، فشكلت بذلك فلسفة تصوغ الإنسان في قالب خاص، وهذه المادية وان علق بها اسم (ماركس) إلا انها ليست من أفكاره الخاصة، بـل هي موجودة منذ الاف السنين، ويمكن القول إنه يُعد تابعاً فيها لـ((فيور باخ))[٢] الذي جدد مادية القرن الثامن عشر.

وامـا منطق ((الديالكتيك)) فقد استعاره ماركس من الفيلسوف الالماني

---

(١) كارل ماركس ١٨١٨ ــ ١٨٨٣م . فيلسوف الماني. أهم مؤلفاته كتاب (رأس المال). اتمـه زميله (انجلز) وُعرف بانجيل الشيوعية ، يرى ماركس ان الصراع الطبقي هو مظهـر (الديالكـتيكية) الماديـة في التاريخ. ويرى ان الصراع التاريخي يدور بين الطبقات لا بين الشعوب والامم.

(٢) لودويك فوير باخ ١٨٠٤ ــ ١٨٧٢م. فيلسوف الماني. وهو احد تلامذة « هيجل ».

((هيجل))[1] ثم زاوج بين هذه وذا فنتج ما يُعرف بـــ((المادية الديالكتيكية)) كما اســـتعار مـــن ((هيجل)) ايضاً ما يُسمى بـــ((أصالة التاريخ)). واعتبر العامل الاقتصـــادي هو العامل الاساس في تحولات المجتمع، وانه هو الذي يصوغ الـــتاريخ ويطبعه بطابعه، وسمّاها ((انجلز)) بـــ((المادية التاريخية)) كما انه عدَّ العـــامل الاقتصادي هو البناء التحتي للمجتمع، وبقية الامور تابعة له. ومن خصـــائص هذا المذهب انه لا يقيم وزناً لرأس المال، بل القيمة عنده للعمل. ونحـــن لا تعنيـــنا هـــذه الجوانـــب هنا، وما يعنينا هو التعرف على المعيار الاخلاقي للمذهب الماركسي.

ان المذهب الماركسي ــ كما عرفت ــ يسعى جاهداً لإحلال الشيوعية والغـــاء الرأســـمالية والملكية الفردية، والشيوعية في رأيه هي قمة التكامل الاجتماعي، وعليه فمن الطبيعي ان تكون للاخلاق صلة وثيقة بهذا التكامل، ومـــن هـــنا فالمعيـــار الاخلاقي في زعمه، هو ((التكامل)) (وان لم يرد هذا صـــريحاً في كلامهم، لكنه مفهوم جلي له) بمعنى ان كل عمل يُسهم في تقدم المجتمع وكماله فهو عمل اخلاقي، مهما كان ذلك العمل. والعكس بالعكس.

وتعليقاً على هذا نقول:

ان تكـــامل المجـــتمع الإنســـاني مطلب ينشده الجميع. ولا يُظن باحدٍ المخالفـــة في ذلك. وحتى المدارس الاخرى التي لها معيارها الخاص بها لا تجـــادل في هذا، وتسلم بأن الاخلاقَ والتكامل متلازمان وان كانت لا تعتبر ((التكامل)) هو المعيار الاخلاقي.

---

(١) فـــردريك هيجـــل ١٧٧٠-١٨٣١ فيلسوف الماني. وُلد في «شتوتغارت». من آثاره: «المنطق الكبير» «مبادئ فلسفة الحق».

وعـليه لا بد من التعرف اكثر على «خصوصيات» النظرية الشيوعية في هذا الباب.

## منطق الديالكتيك

بصورة عامة، المنطق السائد في هذا المذهب، هو «منطق الديالكتيك» وهذا المنطق تحكم اصولُه ومبادئه جميع الظواهر في نظر أصحابه.

ومـن اهـم اصـوله ــ بل لبّ هذه الاصول ــ هو «التضاد». وليس المراد به ما يقوله الاخرون، بل يُراد به ــ هنا ــ معنىً خاص وهو ان كل شـيء يحمـل فـي باطنه ضدَّه.(*) ولذا فكل شيء يعيش حالةً مستمرةً من الحركة والتغير. هذا هو الاصل الاول لهذا المنطق.

الاصل الثاني هو «الحركة»(*) ومنشأها هو «التضاد».

---

(*) يقـول سـتالين: ان نقطة الابتداء في الديالكتيك، خلافاً للميتافيزية ، هي وجهة النظر القائمـة عـلى ان اشياء الطبيعة وحوادثها، تحوي تناقضات داخلية، لأن لها جميعها جانباً سلبياً وجانباً ايجابياً، ماضياً وحاضراً، وفيها جميعاً عناصر تضمحل او تتطور. فنضال هذه المتضادات هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكميّة الى تغيرات كيفيّة لاحظ « المادية الديالكتيكية » و«المادية التاريخية» ص١٢ .

وقـال ماوتسي تونغ: « ان قانون التناقض في الاشياء، أي قانون وحدة الاضداد، هو القانون الاساسي الاهم في الديالكتيك المادي».

ولمزيد اطلاع لاحظ « فلسفتنا» للشهيد الصدر. « المعرب ».

(*) يقـول ستالين: «... ولهذا تريد الطريقة الديالكتيكية ان لا يُكتفى بالنظر الى الحوادث مـن حيـث علاقات بعضها ببعض بصورة متقابلة، بل ان يُنظر اليها ايضاً من حيث حركـتها، مـن حيـث تغيرها وتطورها، من حيث ظهورها وانتفاؤها ». « المصدر نفسه» .

هـذه الحـركة تؤدي بدورها الى حدوث سلسلة تغيّرات تدريجية، بل «الحـركة» هـي عيـن التغير التدريجي. هذا التغير يبدأ اولاً من جهة الكم والمقـدار، ويبقى مدةً تزداد فيها الاعداد ويرتفع المقدار الكمي، وشيئاً فشيئاً تـتراكم هـذه التغيرات الكمية حتى تصل الى مرحلة تتحول فيها الى تغير كيفـي. ويورد هؤلاء المثال المدرسي المعروف الذي ذكره هيجل، وهو أننا إذا وضعنا ماءً على نار هادئة فهو سيسخن تدريجياً، وسترتفع درجة حرارته من «الصفر الى٩٩» درجة. ولكن ما ان تبلغ الحرارة المائةَ درجة حتى يتغير الماءُ دفعةً ويتحول الى بخارٍ متصاعد، ويتبدل التغير الكمي إلى تغير كيفي، فالمـاء إلى ما قبل المائة درجة كان سائلاً، وبعد بلوغها تحول بخاراً، أي: تـبدلت ماهيته. وهذا يعني ان القوانين الحاكمة على «الماء» لا تجري على «البـخار» البديل والعكس ايضاً كذلك. وبهذا يتضح ان التغير الكيفي معلولٌ لـلكمي، والتغير الكمي معلولٌ للحركة، وهي معلولةُ التضاد، وتكون النتيجة ان التغير الكيفي معلول للتضاد.

والمراد بتصاعد التغيرات الكيفية هو إزدياد وارتفاع مستوى التغيرات الداخـلية للشيء، والمراد بتحول التغير الكمي الى تغيرٍ كيفي هو ان حركة «التضـاد» تبـلغ اوجهـا ونهايـتها لينـتهي الامـرُ بإنتصار احد الاضداد المتصارعة، وانتصاره يعني بروز حالةٌ ثالثة بهذا الترتيب:

١ ــ حالة التولد.

٢ ــ حالة النمو.

٣ ــ حالة التغير الكيفي وبلوغ التكامل.

## تكامل المجتمع

وكما ان هذه الحركة والتفاعلات المتضادة حاصلةٌ في الموجودات الطبيعية، كذلك هي حاصلةٌ في ((المجتمع البشري)) ايضاً. بمعنى ان ((المجتمع)) في كل مرحلة من مراحله يعيش في داخله حالةً من النمو والحركة المتضادة، وهذه الحركة والتفاعل يؤديان الى حدوث ((انقلاب)) وتغير في ذلك ((المجتمع)) وهو ما يُعبر عنه بالتغير الكيفي. أي: يتبدل النظام الاجتماعي ((للمجتمع)) ويحل مكانه نظامٌ أخر يكون اكمل وارقى بالضرورة. وهذا النظام الجديد ستعتريه ايضاً ذات الحالة السابقة من الحركة المتضادة ليحصل انقلابٌ كيفيٌ جديد وليصل ((المجتمع)) الى مستوى اعلى وافضل. وعلة ذلك كله والاصل فيه هو آلةُ الانتاج ووسائل التصنيع، وعليه فالمجتمع ينقسم دائماً الى طبقتين:

١ ــ الطبقة المرتبطة بالوضع القديم.

٢ ــ الطبقة المرتبطة بادوات الانتاج.

اولى الطبقتين تريد الحفاظ على البُنية الفوقيّة للمجتمع المتلائمة مع اداة الانتاج القديمة، اما ثانيتهما فتسعى الى احداث بُنية فوقية جديدة تتلاءم وادوات الانتاج الجديدة، وبسبب هاتين الارادتين المتضادتين ينشأ صراعٌ وحربٌ لا هوادة فيها، وستضع هذه الحربُ اوزارها بانتصار الطبقة المرتبطة بالاداة الجديدة للإنتاج قهراً.

وبناءً على هذا النمط من ((التفكير))، فكل عمل يرجع بالفائدة والنفع على الطبقة المتمسكة بالماضي العتيق فهو عمل ضدّ الاخلاق ومنافٍ لها، بغض النظر عما يحمله من عناوين واسماء. حتى لو قلتم: بانّه يوجد في هذه المدينة اناسٌ معوزون وجائعون وعراة وقد يموتون جوعاً، ومن صميم

الاخلاق ان نكسوهم ونشبعهم ونداوي مريضهم، لقالوا لكم: كلا، هذا لا يكفي لإضفاء ثوب «الاخلاق» على العمل، بل يجب النظر في «جهة» هذا العمل، ان كان عملكم هذا يُسرع في حدوث تطور وانقلاب المجتمع فهو من صميم الاخلاق، وإن كان يُعيق ذلك، فهو ضد الاخلاق وهي منه برئ براءة الذئب من دم يوسف (ع).

واذا كان هدفكم من إشباع البطون واكساء العراة ومداواة المرضى، مواساة الطبقة المحرومة وإخماداً لغضبها على الطبقة الحاكمة، فهو عملٌ خاطئٌ جداً. بل يجب أن يُترك الحبل على الغارب وندع الاوضاع الاقتصادية تتردى وتتأزم كي يتفاعل المجتمع وتدب فيه الحركة ويلتهب غضباً.

وهذا الكلام جارٍ بالنسبة للحاكم الظالم ايضاً، بمعنى انه اذا اردنا ان نقف في وجهه ونمنعه من الظلم، فسيؤدي ذلك الى تهدئة الجماهير، وهذا بدوره يؤدي الى عرقلة «الانقلاب» المطلوب، لذا يجب ترك ذلك، لأنه كلما سدر الظالم في غيه وافرط، احتدّ التضاد بين المظلوم وظالمه وتعمقت الهوة بينهما. لأنه مالم تتعمق الهوّة وتتسع لن يرى «الانقلابُ» النور، ولا سبيل لتكامل المجتمع الا عن طريق «الانقلاب والثورة».

من خلال هذا العرض الموجز يتضح لنا ان هذا «المذهب المادي» يرى «التكامل» بمنظارٍ خاص، فالتكامل في نظره ليس سوى «ثورة» ناشئة من المتضادات الاجتماعية (وقد اشرنا الى وجود «مذاهب» اخرى تقول ايضاً بالتكامل التدريجي).

ولسان حال هذا المذهب يقول: اذا قدّمت ذرّةً من الخدمة للمجتمع، فهذه الذرّة خطوةٌ على طريق التكامل، وهذا مثل ما لو اراد انسان استثمار

شـــجرةٍ او انجاب وليد سليم معافى، واراد ايضاً تفجير «قدر» فهذان نوعان مـــن العمل. ان اردنا جنيَ ثمارَ الشجرةِ، فالرعايةِ الجزئية لها نافعةٌ. وكلما كـــانت الـــرعاية اكـــبر مـــن خلال توفير الماء والضوء والحرارة، وابعادِ الحشـــرات الضـــارّة والآفات، كان الإثمارُ اسرع والثمرُ أفضل وأينع. وكذا الحال بالنسبة للوليد المرتقب، كلما كانت العنايةِ فائقةً ، كان ذلك اسلم له من الامراض والعاهات.

امـــا اذا اردنا تفجير «قدر» فيجب ان نفرغ فيه كميةً من الماء ثم نسدُّ كـــلَّ مـــنافذه، ثم نشعل النار تحته، وبذلك سيتكون بخارٌ ضاغط داخل القدر ومـــن ثمَّ يحصل الانفجارَ فجأةً. واذا ما فتحنا للبخار ثقباً صغيراً، فسوف لن يحدث ايُّ انفجار. وهذا ما يجب فعلهُ لإحداثِ تحولٍ وتغييرٍ كيفي وما هَويّ لشـــيء مـــا كالمجتمع البشري، حيث انّ له ماهيةً متقلبةً، وهو لا يخطو من طوره السابق الى اللاحق خطواتٍ هادئةً وسلميةً، بل هو يجاوز مرحلته دوماً بصـــورةٍ ســـريعةٍ ذاتَ طابعٍ ثوريٍّ انفجاري وبذلك يصل قهراً الى مرحلةٍ اخرى متقدمة.

ولـــنا ان نقول هنا: اذا استقر الرأيُ على انّ التكامل لا يتحقق الاَّ عن طـــريق ثـــورة المجتمع وانفجاره، والانفجار لا يكون الاّ عن طريق التضاد والصـــراع المحـــتدم، فـــلكي يبلغ التضاد والصراع الذروة لا بد من إنجاز عملين:

**الاول:** افـــتعال حـــركاتٍ تمردية واضطراباتٍ جماهيريةٍ مزعجة، بل والقيام بعملياتٍ بحيث تزداد النقمة الشعبية وبالتالي يحدث الانفجار المطلوب.

**الـــثاني:** محاربـــة الســـلطات لتـــلك الحركات وقمعها، وبهذا يحصل

الصراع والتضاد في المجتمع.

على هذا ينبغي القول: ان المعيار في هذا المذهب الماذي هو «الثورة» وليس التكامل. واذا عبرنا بـ«التكامل» فبإعتبار ان هذا المذهب يرى ان لا تكاملَ الاّ عن طريق «الثورة» فقط. وهنا تنقلب الموازين الاخلاقية وتُستبدل معاييرها. يُستبدل الصدق بالكذب، ولا يُعرف ايهما اخلاقي؟ وهل الاخلاق هي الخيانة او الامانة؟ الإيثار او البخل؟ السلم او الحرب؟ ، هم يقولون: كلُ عمل اعظم اسهاماً واشدُ تأثيراً في تسريع عجلة «الثورة» فهو صميم الاخلاق، وما لا يؤدي هذا الغرض فليس من الاخلاق.

وليكن في البال ان من سمات وخصوصيات هذا المذهب ذي المنطق الديالكتيكي انّه احاديَّ القيمة، بمعنى انه لا يرى ذا قيمة الا شيئاً واحداً فقط وذلك هو الثورة الشعبية. ولذا فهو لا يعاني من مشكلة تعارض «القيم والاعتبارات» بخلاف المذاهب الاخرى سواء القديمة ام الحديثة حيث تطرح ذلك. ومن تلك المذاهب المذهب «الوجودي» الأحدث طرحاً من المذهب «الماركسي».

ومنشأ تعارض «الإعتبارات» في تلك المذاهب والمدارس هو عدم ذهابها الى القول باحاديَّة القيمة بخلاف المذهب الماركسي، ويتضح الاثر العملي لهذا الاختلاف من خلال ملاحظة هذا الفرض:

لنفرض أن شاباً كان قد فقَدَ أباه صغيراً، كما ان امّه فقدت بعلها شابةً، فأخذت على عاتقها تربية وليدها الوحيد وعانت في ذلك الأمَرّين. ولم تتنفس الصعداء الا بعد بلوغه العشرين عاماً، فهي تنتظر بشوق بالغ نتاج «٢٠»

عاماً من الجهد والعناء ضحّت فيها بكل وجودها وآمالها وتطلعاتها، وهو الآن املها الوحيد في هذا العالم. وبينا هي تعيش هذه اللحظات غابطةً نفسها، اذ بالوطن يتعرض لهجوم الاعداء، واذا بالوطن الام يستنهض العزائم ويستنفر الرجال للدفاع. فالشاب المذكور يقع في مثل هذه الحالة بين رغبتين وطلبين لإمّين. وهنا تنجم مشكلة تزاحم الاعتبارات.

الوطن الام يقول: يجب ان يخرج الشاب للحرب، والام تقول:

لا يخرج. فلأيهما يستجيب؟

المدارس التي ترى العواطف الانسانية اساساً للاخلاق تكون في موقف حرج تجاه هذه المشكلة. اما مذهب «ماركس» ــ ولأنّه يقول بأحاديّة القيمة وان لا قيمة الاّ لشيء واحد هو «الثورة الشعبية» ــ فهو يقول: لا مشكلةَ هنا. بل يجب عليك الإقدام على العمل الذي يساهم في اشعال لهيب «الثورة» وان لا تعر اهتماماً لغيره. وعلى هذا فليس يوجد «معيار» اخر للاخلاق حاكم في مثل هذه الحالة، بل «المناط» في «الاخلاقية» هو «السير في اتجاه الثورة والتكامل». وفي هذا السبيل يمكن ان يحدث ايُّ شيء، حتى لو انّ مناضلاً ثورياً خدم الشيوعية والمذهب الماركسي وامضى شطراً من حياته مع رفيقٍ اخر على هذا الدرب، ثم اعرض عن هذا المذهب ونأى بجانبه، لقال رفيقُه: قد كانت خطوات رفيقنا في اتجاه «الثورة» لكن الآن ارتسمت في ذهنه فكرةٌ مزاحمة لنا، فيبادر رفيقه الى تصفيته جسدياً. انهم لا يفرقون بين هذا «الرفيق» وبين ذلك الرجل الذي انفق «٥٠» سنةً في مجابهة هذا المذهب.

وخلاصة القول: انّ «الثورة» في نظر هؤلاء، هي التي تُحدد «قيمة» الإنسان. واذا ما فرط البشرُ في «الثورة» او صاروا عقبةً في طريقها، فلا

يـــبالون باهلاكهم ولو بلغوا مائة مليون او مائتين. بل لو بلغوا نصف سكان المعمورة او ثلثيهم. فهم لا يعدُّون إهلاكُهم منافياً للاخلاق لعدم وجود معيار آخـــر لها سوى «الثورة» على ما يزعمون، وهذا ناشئٌ من النظرة الخاصة لفلاســفتهم وعــلماء اجتماعهم الذين يعتقدون بأنّ التاريخ لم ولن يتطور الا بالــثورة وانّ «التكامل» مرهونٌ بالثورة. وما عدا «الثورة» فهو ضدٌ التكامل والاخلاق.

## اصالة الفرد واصالة المجتمع

وعلى كلٍ فالبحث حول الاخلاق الشيوعية بنحوٍ عام يُطرح على خلفية «اصـــالة» الفـــرد واصـــالة «المجـــتمع» ومن الممكن الاّ يقبل احدٌ ما كون «التكامل» هو المعيار اليتيم للمجتمع، بل يقول: يوجد لدينا تكامل للفرد وآخر للمجـــتمع، وقـــد يحـــدث بيـــنهما تزاحم. فإن لم نكن قائلين باصالة «الفرد» وحصرناها في «المجتمع» وقلنا بأنّ «الفرد» امرٌ اعتباري لا استقلالَ له وان «المجـــتمع» هو الامر الحقيقي، فالمعيار يكون هو تكامل «المجتمع»، ويجب ازاحـــةُ كـــلّ مـــا يعرقل هذا التكامل، لماذا؟ لأن كلّ ما هو موجودٌ من ذلك «المجتمع»، فهو ملك له.

وهـــذا يماثل ما هو مطروح في المنطق القرآني من ان الفرد لا يملك شيئاً امام الله تعالى، كل شئ ــ بما في ذلك «الفرد» نفسه ملكٌ لله تعالى «ان الامر كلّه لله» واذا ملك «الفردُ» شيئاً، فبتمليك الله تعالى لـــه، فالافراد كافّةً لا يمـــلكون شيئاً ملكية حقيقية امام الله، وان كانت هناك حقوقٌ وملكيات نسبيةٌ فيمـــا بيـــنهم، ويدعونـــا مقامـــنا لذكـــر حكايـــة لطيفـــة جرت بين «ابـــي

فـراس))[١] وسيف الدولة الحمداني[٢]، وابو فراس احد شعراء العرب الشيعة المـبدعين، عاش في القرن الرابع الهجري معاصراً ــ تقريباً ــ للفارابي، وكـان مـن مرتادي بلاط ملوك آل حمدان. وآل حمدان كانوا ملوكاً يحبون الادب ويرعون العلم وأهله كثيراً. ورغم ان مملكتهم وحكومتهم لم تكن كبيرة مـن حيث الحجم، ولكنها كانت ذات اهمّية كيفاً، ولذا عندما انهى ((الفارابي)) تحصـيلاته رأى ان ((الموصل)) وبلاط آل حمدان هو المكان الافضل للتردد عـليه، فترك مركز الخلافة ((بغداد)) وشدّ الرحال اليهم، وهناك مات وصلى عليه سيف الدولة الحمداني نفسه.

ذات يـوم دخل سيف الدولة الحمداني مجلس الحكم والشعراء والادباء حاضرون، وقال: لقد قلتُ بيتاً من الشعر، ولا اظنُ احداً يستطيع اردافه بآخر سوى ابي فراس، والشعر خطاب للحبيب ومضمونه:

ان جسمي منك وإليك، فلم تضنيه وتسفك دمَه سفكاً؟

فقال ابو فراس: لو كنتُ مالكاً له، لسفكت دمَه[٣].

---

(١) الحارث بن ابي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون، يكنى بأبي فراس، احد امراء آل حمـدان وابـن عم سيف الدولة وناصر الدولة، يُعد من كبار الادباء والشعراء، وكان وحيـد عصره في العلم والفضل والادب والكرم والشجاعة والشعر والبلاغة والفطنة. يمـتاز شعره بالجمال والسلاسة. يدور شعره عموماً حول الحماسة والفخر ومديح آل البيت ريحانة الادب ج٧ ص٢٣١.

(٢) مـلوك وامراء آل حمدان يُنسبون لجدهم حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشـد، يصل نسبهم الى عمرو بن غنم بن تغلب. حكموا حلب والموصل ٣١٧ ــ ٣٩٤ هـ. سيف الدولة واسمه « علي » حكم واسط وحلب.

(٣) نص الحكاية هو ان سيف الدولة قال لندمائه:

وهذا الكلام ينطبق اليوم على «المجتمع» حيث له الاصالة والاختيار.

## الحرية والمساواة

وهناك اتجاهات ومدارس اخرى لا ترى هذا الرأي، فبعض يرى الاصالة المطلقة للفرد. ومن هنا تنشأ مشكلة مزمنة بين «الحرية والمساواة» اذ ان لكلٍّ منهما «قيمة واعتباراً» في نظر الإنسان، والمشكلة هي انه اذا قلنا بحرية «الافراد» فهذا يعني الغاء مبدأ «المساواة» بينهم، واذا اردنا اجراء «كامل المساواة» فلا بد من تضييق دائرة الحرية الفردية.

وذلك ان افراد المجتمع ليسوا تماثيل مصنوعة في احد المصانع، بحيث لا تفاوتَ ولا اختلافَ فيما بينها، كلا، بل هم مختلفو الاستعداد والقابلية، وفيهم القوي والضعيف، والمبدع والمتخلف، فهم مخلوقون اطواراً.

واذا كان في نيتنا ان نجعل من «المجتمع» مضمارَ سباقٍ، فسيفوز افرادٌ ويخسر آخرون حتماً، اما كسلاً او عجزاً. والنتيجة ان "الحرية" ستصادر «المساواة» رضينا ام ابينا.

اما اذا فضلنا مبدأ «المساواة» فيتحتم علينا إلجام «الحريات» الفردية ووضعها تحت الرقابة لئلا تخدش «المساواة»، ومن استحقاقات ذلك ان يُؤخذ «المال» الفائض من صاحبه ليُعطى لآخر فقير.

---

ايكم يجيز قولي وليس له الاّ سيدي ــ يعني ابا فراس ــ :

لك جسمي تعله فدمي لم تحله  لك من قلبي المكان فلم لا تعله؟

فارتجل ابو فراس قائلاً:

انا ان كنت مالكاً فليَ الامرُ كلّه

( يتيمة الدهر ) للثعالبي ج١ص٢٠ الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية. « المعرب ».

ويمكـــن تشبيه ذلك بحركة الخيول في الميدان، اذ انّ هذه الخيول لها صورتان:

الأولى ــ ان يُـــراد مـــنها السير سيراً متناسقاً ذا وقع منظم، كما هو الحال في الاستعراض العسكري للجيوش، حيث تصطف الجياد لتسير سيراً منظماً أُعد له سلفاً.

وفي هذه الصورة لو كان من المقرر ان تقطع الجيادُ «١٠» كيلومترات في الساعة الواحدة ــ مثلاً ــ لكان على «الفرسان» تنظيم حركتها وخطواتها بحيث تتحرك جيادهم حركةً واحدةً متناسقةً، فأذا فرضنا ان عدد هذه الخيول العســـكرية «١٠» فهـــي ستقطع العشرة كيلومترات من دون ان يتقدّم احدها عـــلى الآخر. ولا ريب ان الكثـــير منها يجمح ويطمح في سبق غيره، لكن «الفرسان» يلجمونها ويمنعونها من ذلك، ويحدُّون من حريتها.

الـــثانية ــ ان يـــراد منها الانطلاق في مضمار السباق الحر، كما هو الحال في خيول السباق، وفي هذه الصورة ترى فرساً رسب به حظُه فتأخر، وفرساً علا به حظُه فتقدم. وهنا تزول «المساواة».

والحاصل: إن أُطلق عنان الخيول فلا مساواة، وان اردناها فلا بد من لجمهـــا والحـــدّ من حريتها، وهاتان الصورتان تجريان في مسألتنا، فالحرية تتعلق بالفرد والمساواة بالمجتمع.

المعسكر الغربي رمى المساواة جانباً واعتمد في نظامه على الحـــريّة الفرديّة، والمعسكر الشرقي رمى الحريّة خلف ظهره واتجه نحو «المساواة».

وهذا الاختلاف في التوجه ناشئٌ من فلسفتين مختلفتين.

والذي يهمنا فعلاً هو جواب هذا السؤال: هل الامر كما يقولون؟ يعني

اما نختار تكامل الفرد واما تكامل المجتمع، ولا خيار ثالث يؤمن لنا الاثنين؟ او انه يوجد طريق ثالث يؤمن للفرد حريته وتكامله بما لا يؤدي الى ضرر المجتمع. فيكون تكامل الفرد مندمجاً في تكامل مجتمعه.

وكيف كان فمورد نظرنا هنا هو المذهب الماركسي، وقد اوردوا عليه ما حاصله: نحن وان سلمنا جدلاً بأن المعيارَ هو التكامل وخصصنا المجتمع بالاصالة، لكن لازم هذا: القولُ بعدم وجود ايِّ «قيمة» للفرد، وهذا لا يمكن قبوله لأننا لا نقول بأحادية «القيمة»، بل نقول انه كما ان للتكامل الاجتماعي «قيمتَه واعتبارَه» كذلك للتكامل الفردي «قيمته». ولذا قد يقع التعارض بين هاتين «القيمتين».

اضف لذلك انه حتى لو قبلنا بالتكامل معياراً، سواءً كان منفرداً ام منضماً الى سواه، فإننا لا نراه رهناً بالثورة والتحول الكيفي للمجتمع، بل لا يمكن القول بأنّ «الثورة» هي طريق «الكمال» فكثير من الثورات أُشتعل اوارّها لكنها لمْ تحقق ايَّ كمال للمجتمع.

فالقول بأنّ الكمال يأتي دائماً عن طريق تحول التغير الكمي الى كيفي ليس صادقاً لا على الطبيعة الإنسانيّة ولا على غيرها ايضاً، فمثلاً:

لو غرسنا شجيرةً، ثم ترعرعت وصارت شجرةً باسقةً، فمتى تحصل مثل تلك التغيرات الكيفيّة؟ وحتى لو فرضنا ان حركتها معلولة لتضادّها الداخلي وانها طوت بذلك مرحلة الاثبات والنفي «تز وانتز»، لكن كيف نقبل هذا بالنسبة لمرحلة «التغيير الكيفي»؟

لو غرسنا فسيلة «أجاص» فطوت طريق تكاملها وصارت شجرةً واستوت على ساقها وانتت اكُلَها كلَّ عام بإذن ربها. ثم هرمت هذه الشجرة

ويبست في النهاية، ولم يطرأ عليها اثناء ذلك ايُّ تغيرٍ كيفي، فإن يقولوا بأنَّ هــذه الشجرة كانت تعيش حالة الكينونة والابرام، وانّ حركتها المضادة تبدأ من حين موتها، فحينما تموت يبرز ضدُّها، وحينما تحيا مرةً اخرى وتصبح شجرةً اخرى، فهذا هو ضدُّ ضدِّها.

ان يقولوا هكذا، قلنا: اذاً ما تكون الحركة السابقة المتحققة في المرحلة القبلية؟ حيث كانت الشجرة متحركةً مدةَ «٢٠» عاماً، لأنكم تقولون انه ما لم يحصل تضادٌ داخلها فلن تحصل حركةٌ.

وبناءً على هذا فهذا القانون لا واقعَ له لا في الطبيعيات ولا في ذوات الارواح. كيف يمكن مثلاً تصوير هذه المراحل الثلاث (التضاد ــ الحركة ــ التكامل) بالنسبة للإنسان الوليد؟

**والخلاصــة:** ان هــذه النظرية والفرضيةُ يبطلها ايرادان. وتبعاً لذلك تبطل النظرة الشيوعية للاخلاق ايضاً لابتنائها على تلك الفرضية. والإيرادان هما:

١ ــ إننا لا نسلم كون «التكامل» معياراً وحيدا، لأنَّ التسليم بذلك مبتنٍ على القول باصالة «المجتمع» واعتبارية «الفرد» وهو تصورٌ لا اساس له من الواقع ولا حظ له من الحقيقة. سلمنا بمعياريّة «التكامل» لكن لا نُسلّم بإنفراده ولا نقول باحاديّة القيمة، بل نعتقد بوجود معايير اخرى الى جانبه.

٢ ــ ولو اتفقنا مع الماركسية على كون التكامل «معياراً» يتيماً واحداً لا ثــانيَ لــه، فإننا نختلف معها بأنّ «التكامل» لا يأتي دائماً الاّ عن طريق «الثورة».

واذا حصــل ذلك استثناءً فلا يمكن تسريته واعتباره قانوناً عاماً، كي يقال بأنّ الطبيعة باسرها هذا شأنها، سيما وان المشاهدات الميدانية

تثبت خلاف ذلك.

# الباب السادس

## نظرية راسل

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## نظرية راسل

ومن النظريات المطروحة اليوم ما اتى به «برتراندراسل»، وقد اوضح نظريـــته الاخلاقية في عدد من كتبه منها كتابه «العالم كما اعرفه» حيث عقد فيـــه فصـــلاً خاصـــاً للاخلاق. وله كتاب آخر ايضاً يحمل عنوان «الزواج والاخلاق» خصص قسماً منه للاخلاق الجنسية.

وهـــو فـــي الحقيقة يعتقد بما يُصطلح عليه «الاخلاق العقلية» بمعنى: الاخـــلاق الذكية المرتكزة على المنفعة الخاصة. وهو ــ لأنه مادي الفكر ــ لا يعـــتقد بـــأي معيار اخلاقي. فهو لا يرتضي عقيدة «افلاطون» في الخير والفضـــيلة، ولا بالحدّ الوسط الذي اقترحة «ارسطو» ولا بالاخلاق الوجدانية لـــ «كـــانت»، ولا بشيء آخر، بل هو يقول: لن الانسان كائن مفطور على حـــب مصلحته وطلبها حثيثاً ولا شيء غير هذا، ويتابع: لا تصدقوا قول من يقول إن الانسان يريد شيئاً آخر غير مصلحته. ولكننا حيث نعيش في دائرة اجتماعية واحدة، فلا مناص من انشاء علاقات ودية وحسنة فيما بيننا، وهذا مـــا نســـميه «الاخلاق»، فنحن نقول مثلاً: عليكم برعاية الحقوق فيما بينكم، ليحـــترم بعضكم بعضاً لا تفرطوا في وظائفكم الاجتماعية، الى آخره، وهذه الامـــور هـــي مـــا يحتاجه البشر في حياتهم المدنية وهي ما يطلق عليها «الاخلاق».

ثـــم يقول: يجب علينا ان نحكم هذه «الاصول» في المجتمع كي يعتقد بهـــا كافـــة افراده. انتم تسعون الى ايجاد اساس غير مادي لهذه «الاصول»، بدعوى ان اساسها الفضيلة والشعور بالمسؤولية كلا، فهذا كلام لا واقعية ولا

صـــحة له. والحق ان منافع الانسان الفردية هي التي تملي عليه ذلك. ونحن ــ والحديـــث لراسل ــ يجب علينا ان نفهم البشر ذلك ونقول للإنسان: يجب ان تسعى لما يعود عليك انت بالخير والنفع، ونفعك يكمن في ممارستك لهذه الاصول الاخلاقية.

وانت تخطئ اذ تظن أنك بسحقك حقوق الاخرين تجلب اليك نفعاً.

أو أنـــك اذا فـــرطت في تكليفك ستجر اليك نفعاً، أو أنك اذا لم تحترم الاخـــرين ستكسب خيراً، فليس الأمر هكذا، بل على الانسان ان يُفعّل عقله، وان يكون بعيد النظر ثاقب الرأي، لينفع نفسه ويؤمن مطالبه الذاتية.

ان مـــن يظن ان منفعته في هدر حقوق الاخرين، لهو انسان سطحي التفكير لا يرى الا ما تحت قدميه، غير ملتفت الى ردود الافعال وصداها.

عـــلى الافـــراد ان يعوا ردود الافعال وانعكاساتها عليهم، فلو فرض ــ مـــثلاً ــ وجود جماعة يعيشون في حجرة واحدة. وكل فرد مـــن هؤلاء ــ كســـلاً او لســـبب ما ــ لا يبالي بهذا المحيط الصغير الذي يعيش فيه مع غيـــره. وكل منهم يأمل بقاء الحجرة نظيفة ومنسقة دوماً. لكنهم سرعان ما يدركـــون ان مصـــلحة كل فرد منهم تكمن في قيامهم جميعاً بواجباتهم تجاه محيطهم كي تكون الحجرة نظيفة دوماً.

فأنـــا حينما ادرك ان منفعتي الخاصة في ذلك، ويدرك الآخرون ذلك ايضـــاً، ســـيقوم الجميع حتماً بوظائفهم، لكون الانسان نفعياً. ثم يردف مثاله بآخر فيقول:

مـــن الممكن ان افكر بسرقة بقرة جاري لأن في ذلك مصلحة وكسباً لـــي. ولكن عندما يفهمونني انني اذا سرقت بقرة الجار، فهو ايضاً سيسرق بقـــرتي يوماً ما. و سيأتي جار آخر ايضاً ليسرق شيئاً آخر، فأنت ستتحمل

مائة خسارة من حيث تريد لنفسك ربحاً. والنتيجة: انه اذا ادركت هذا المقدار من الحقيقة فلن اقدم على السرقة كي لا اتعرض لسرقات عدة، وهذا أمر طبيعي جداً، فلا بد من تعميق النظرة لا ان تكون سطحية كنظرة التلميذ في المدرسة الابتدائية الذي لا يطال فكره الا يومه، فيقول: يؤسفني جدا ان امضي عددا من الساعات بين جدران المدرسة وأحرم من متعة اللعب واللهو في الساحات والازقة.

ان هذا التلميذ الصغير يرى انه واقع بين لذة وحسرة. بين حرمان ومتعة، وهو لا يتمتع ببعد النظر حتى يستشرف المستقبل ويقارن بين ما يعانية اليوم من الجهد والجد وبين الحصيلة المستقبلية، ولو كان مدركاً لذلك لقال لنفسه:

اذا لم ادرس اليوم، فالغد سيكون مثل اليوم، وهكذا، فعدم الدرس الى اين سيؤدي؟ هو لا يدرك. لكن الأب والأم يدركان كل ذلك، وهما يسعيان لما فيه نفعه، وهو كذلك، لكنه يرى نفعه من خلال النظرة الضيقة، بينما يرى الابوان ذلك من خلال النظرة الحادة والممتدة، ومن هنا تصبح المقارنة التي يراها الابوان، سبباً في حرمان التلميذ، وهذا الحرمان هو عناء الدراسة.

وكل الافعال الاخلاقية الاخرى هي من هذا النمط، فيجب عليّ مثلاً ان اكون صادقاً واميناً والا لن يكون احدا اميناً وصادقاً معي، اذا فمصلحتي هي هذه.

هذه خلاصة نظرية «راسل» في الاخلاق.

والواقع ان كلامه الآنف ينصب على «انكار الاخلاق» من حيث ان لها قيمة ذاتية. حيث انه ربطها بالنفع. وهناك ملاحظات ترد على هذا الكلام

منها:

١ ــ ان هذه الاخلاقيات النفعية عارية من ثوب القداسة، وفاقدة للقيمة. لأنها ليست شيئاً سوى المنفعة.

وهــذا خــلاف الشعارات التي يهتف بها «راسل نفسه»، وهو يُعد احد الذين تخالف فلسفتهم شعارتهم. ان «راسل» معروف عنه «انسانيته»، والحال ان فلسفته ضد ذلك، لأنها فلسفة تقوم على طلب الكسب والسعي للمنفعة. وقد انخدع بشعاره الكثيرون.

٢ ــ ثاني الايرادات، ان ما ذكره إنما ينفع حالة توازن القوى، كما في مــثال «بقرة الجار» الذي ذكره. ففي صورة تساوي القدرتين يكون ما ذكره مناسباً. اما اذا كانت احدى القوتين اقوى واشدّ بأساً من القوة المقابلة لها، فما ذكــره لا يكــون له اثر، لماذا؟ لان الطرف الاقوى يدرك ان الطرف الآخر الضعيف لا يمكنه المساس بمصالحه حتى بعد مائة عام.

فمــا ذكره ينطبق على مثل «بريجنيف» و«كارتر». حيث تحكمهما معاً اخلاق «راسل» لأن كلا منهما رقيب على الاخر وهما متعادلا القوة والنفوذ.

لكــن الأمــر يختــلف بالنسبة لموقفهما من الشعوب الضعيفة والدول الصــغيرة، فقدرتهمــا لا تقتضي ان يكونا اخلاقيين بحسب نظرية «راسل» لانهما يدركان ان لا قدرة لتلك الشعوب، بل ولا يسمحان لهما بإمتلاك القوة. فهما مطمئنان من هذه الجهة، وهنا نسأل «راسل»: ماذا ستصنع اخلاقك؟

٣ ــ ثالث الايرادات، ان الهدف من «الاخلاق» هو منع تجاوز القوى وهو في ذروة قوته، يقول الامام علي ــ عليه السلام ــ :

«اولى الناس بالعفو اقدرهم على العقوبة»[١].

فمن يملك قدراً اكبر عليه ان يُوطن نفسه ويُعودها اعظم ما يكون على العفو والصفح وكظم الغيظ.

والا فـالاخلاق القائمـة عـلى المنافع، لا تنفع الا حالة تعادل القوى وتكافؤها. كما في هذه الحكاية الظريفة:

قال أحد اصدقائنا ــ وقد صار الان شيخاً مسناً ــ كنا مجمـوعة من الموظفين. وكان لكل منا طاولة خاصة به. عندما حل شهر رمضان، صمتُ. وكـان معـنا رجل صام هو الاخر و ذات يوم قال لي: يا فلان، انا عندما اصوم لا تكون اخلاقي على طبيعتها. لأن الصوم يجعلني حادَّ المزاج، فلربما تجاسرتُ على جنابكم وجرحت مشاعركم، لذا ارجو سلفاً الا تنزعج وتتحمل ذلـك مني. يقول: رأيت هذا عجباً، فهو قد اعذرنا من اول شهر رمضان لذا بـادرت بالقول: لقد ذكرتني بكلامك هذا. فأنا أيضاً كذلك بل أسوأ منك، فأنا عـندما يحـتدُّ مزاجي اثناء الصوم لربما ضربت الآخرين ضرباً مبرحاً بلا شعور مني، لذا فأنا اطلب منك العذر فيما لو تجاسرتُ عليك في هذا الشهر. ما ان قلت هذا حتى قال: من الافضل اذن ان يحذر كلانا الآخر!

والحاصـل: هـذا فيمـا لو تساوت القدرتان. اما لو تفاوتتا فلا مكان للاخـلاق. وعـلى هـذا فأخلاق «راسل» ليست اخلاقاً، بل مضادّة لها. لأن الاخلاق تساوي «القيمة» والقداسة وشيئاً اعلى من المنافع الحيوانية والمنافع المادية.

وبناءاً على ما تقدم يمكن القول ــ والحديث لراسل ــ :

---

(١) النهج، حكمة ٥٢.

ان النـــتيجة التي يمكنكم اخذها من «الاخلاق» يمكنكم ايضاً أخذها من «التعليم»، بمعنى ان تفهموا الناس بأن المنافع المشتركة توجب عليهم التعامل بالاخلاق.

ونحـــن نقـــول: وهذا غير دقيق أيضاً لأن هذا الإفهام انما ينفع الناس المتساوين قدرة. ولا ينفع ذلك الإنسان الظالم. بل ذلك يغري الظالم ويجرئه عـــلى سحق حقوق الآخرين اذا تصادمت مع مصالحه. كما حصل في حرب «فيتنام» و«فلسطين».

فمـــا فعلـــه «نيكســـون» في الاولى، يكون ــ في نظر راسل ــ عملاً اخلاقياً، لأنه يصب في مصلحة «أمريكا». وكذلك ما تقوم به «اسرائيل» من إلقـــاء القـــنابل والقصـــف. لانها ترعى بذلك مصلحتها. واذا كان ذلك عملاً اخلاقيـــاً، فـــلماذا يا راسل، تندد بحرب فيتنام؟ وانت الذي اجزتها وبررتها اخلاقياً؟!!

تم بعون الله

# المسرد المفصل

الاهداء ..... ٥
المقدمة ..... ٧

**الباب الأول: مفهوم الاخلاق** ..... ١٧ ـ ٣٥
ماهي الأخلاق؟ ..... ١٩
ما هو الفرق بين الافعال الاخلاقية وغيرها؟ ..... ٢٠
نماذج من الافعال الاخلاقية ..... ٢٢
دعاء مكارم الاخلاق ..... ٢٥
السوقي ومالك الاشتر ..... ٢٩
الامام الحسين(ع) والشامي ..... ٢٩
حلية المتقين ..... ٣١
نهي القرآن عن اشاعة الفاحشة ..... ٣٢
موارد استثناء الغيبة ..... ٣٣
اشتباه ابن سيرين والغزالي ..... ٣٤

**الباب الثاني: النظريات الاخلاقية** ..... ٣٧ ـ ١١٠
نظرية العاطفة ..... ٣٩
المبدأ والهدف لفعل الانسان ..... ٤٠
الاخلاق الهندية ..... ٤١

نقد نظرية العاطفة ..... ٤٣
ماهي الانسانية؟ ..... ٤٥
نظرية الفلاسفة المسلمين ..... ٤٧
الفرق بين الميل والارادة ..... ٤٨
نظرية الوجدان ..... ٥٣
نظرة القرآن للوجدان ..... ٥٣
نظرية "كانت" ..... ٥٥
الوجدان في نظر علماء النفس ..... ٥٦
هل المعلومات الذهنية مرهونة للتجارب فقط؟ ..... ٥٧
العقل العملي والعقل النظري ..... ٥٨
الوجدان والسعادة ..... ٦٢
الوجدان واختيار الانسان ..... ٦٥
الوجدان وخلود النفس ..... ٦٥
نقد نظرية "كانت" ..... ٦٩
نظرية الجمال ..... ٧٥
نقد تعريف افلاطون للجمال ..... ٧٩
هل الجمال مطلق او نسبي؟ ..... ٧٩
جاذبية الجمال ..... ٨١
جمال العالم ..... ٨١
الجمال المعنوي ..... ٨٢
فصاحة القرآن ..... ٨٥
جمال كلام علي (ع) ..... ٨٥
شبهة ورد ..... ٨٧
نظرية افلاطون ..... ٩٠
نظرية العبادة ..... ٩٤
الحس الاخلاقي موصول بالحس الباطني بـ"الاله ..... ١٠٠

التوجيه الصحيح للاخلاق ..... ١٠٣
الاخلاق من مقولة العبادة ..... ١٠٦

**الباب الثالث: النفس الانسانية** ..... ١١١ ــ ١٦٨
سعة الروح ..... ١١٣
النفس في القرآن ..... ١١٤
النفس في السنة والروايات ..... ١١٥
عزّة النفس ..... ١١٧
عزة النفس في كلام الامام الحسين (ع) ..... ١٢٠
عزة النفس في كلام أمير المؤمنين والامام الصادق (ع) ..... ١٢٢
ثنائية النفس ..... ١٢٤
صراع داخلي ..... ١٢٦
نفس البخيل ..... ١٣٠
روح الانسان منبع الحس الاخلاقي ..... ١٣١
اطلالة على النظريات المادية في النفس ..... ١٣٦
وقفة مع الماركسية ..... ١٣٧
النقــد ..... ١٣٨
معرفة النفس ..... ١٣٩
معرفة النفس طريق معرفة الرب ..... ١٤١
عالم المادة في تغير وحركة مستمرة ..... ١٤٣
لا تبدل ولا تغيير في النفس ..... ١٤٥
حكاية بهمنيار وابن سينا ..... ١٤٦
الميول المعنوية آيات الهية ..... ١٤٨
تعصب الماديين ..... ١٤٩
موريس مترلينك ..... ١٥١
التوبة ..... ١٥٢

روح المجتمع ..... ١٥٣
الالهيون ..... ١٥٤
القرون الوسطى ..... ١٥٤
وقفة مع سارتر ..... ١٥٦
لماذا يحتاج الانسان للاخلاق؟ ..... ١٥٨
نوعان من الاخلاق ..... ١٥٩
عماد الاخلاق ..... ١٦٠
معرفة الله عماد الاخلاق ..... ١٦١
كلام گوستالوبون ..... ١٦٣
طريقان لجهاد النفس ..... ١٦٤
الامام الحسين والاخلاق ..... ١٦٦

**الباب الرابع: الازمة الاخلاقية المعاصرة** ..... ١٦٩ ــ ١٨٧
قيمة العقيدة ..... ١٧١
الازمة المعنوية والاخلاقية اعقد مشكلات العصر ..... ١٧٣
اصالة العلم ..... ١٨١
ايديولوجية جديدة ..... ١٨٢
عرفان بلا دين ..... ١٨٥

**الباب الخامس: الاخلاق الشيوعية** ..... ١٨٩ ــ ٢٠٦
منطق الديالكتيك ..... ١٩٣
تكامل المجتمع ..... ١٩٥
اصالة الفرد واصالة المجتمع ..... ٢٠٠
الحرية والمساواة ..... ٢٠٢

**الباب السادس: نظرية راسل** ..... ٢٠٧ ــ ٢١٤

المسرد المفصل ..... ٢١٥